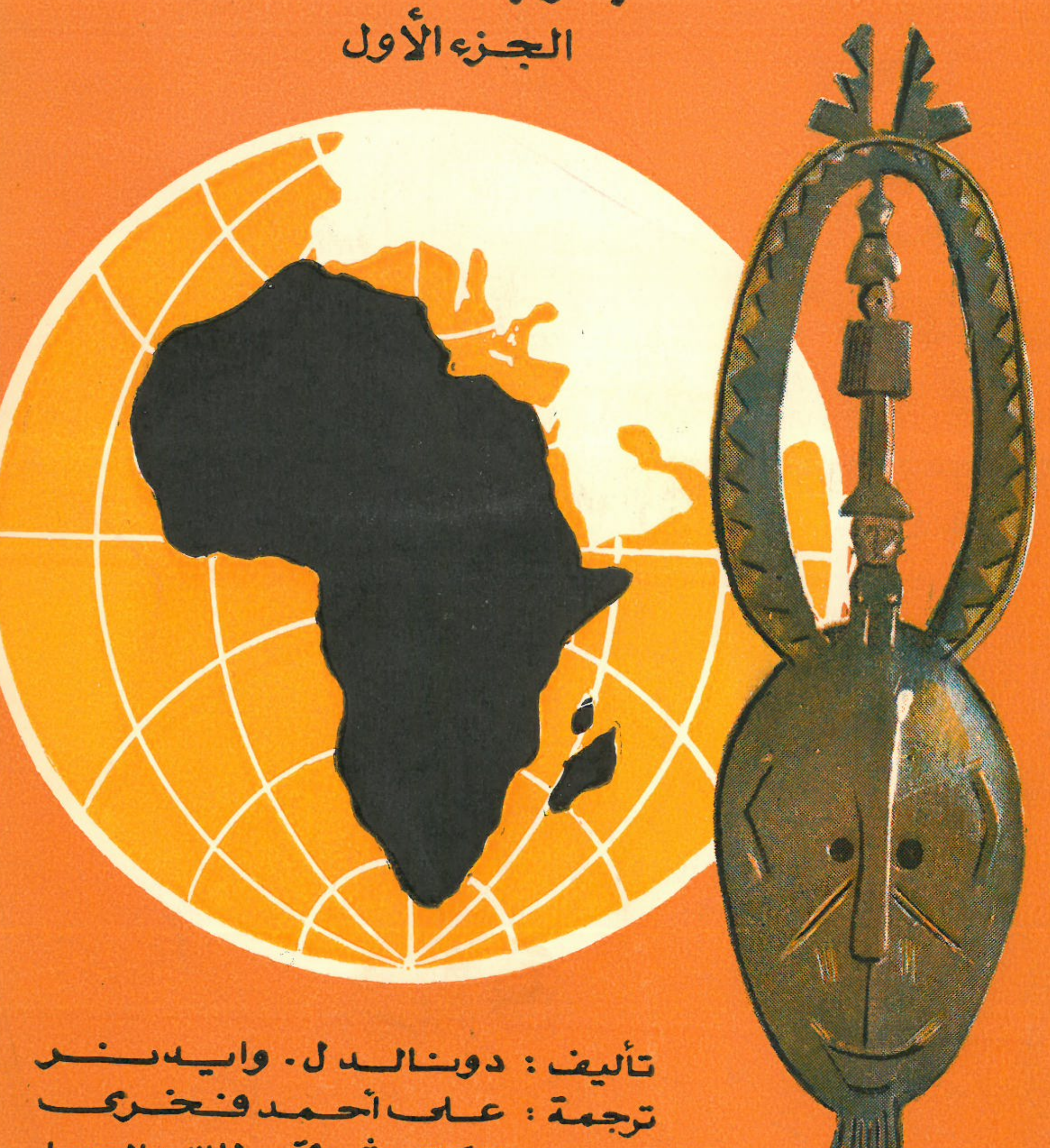




تأليف : دونالد ل. وايدنر
ترجمة : على أحمد فخرى
: الدكتور شوقى عطا الله الجمل
مراجعة وتعليق : الدكتور شوقى عطا الله الجمل
تقديم : الدكتور عبد الملك عودة

تاريخ أفريقيا
جنوب الصحراء

نشر هذا الكتاب بالاشتراك
مع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
القاهرة — نيويورك
أبريل سنة ١٩٧٦

تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء

الجزء الأول

تأليف
دونالد ل . وايدنر

ترجمة
علي أحمد فخري
الدكتور شوقي عطا الله الجمل

مراجعة وتعليق
الدكتور شوقي عطا الله الجمل

تقديم
الدكتور عبد الملك عودة

الناشر
مؤسسة سجل العرب
بإشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده
٢٦ شارع شريف باشا - القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩ - ٥٢٣٠٩

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف :

دونالد لورانس ويدنر : الأستاذ المساعدللتاريخ بجامعة البرتا . حصل على الليسانس من جامعة كولمبيت عام ١٩٥٢ والماجستير من هارفارد عام ١٩٥٣ والدكتوراه عام ١٩٥٨ . درس فى كل من جامعة ميتشجان وكلية مونت هوليوك . كما انتخب عضواً فى جمعية Phi Beta Kappa ١٩٥٢ . حصل على منحة الزمالة من مؤسستى وودرو ويلسون ودانفورث . كما انتخب زميلا بجمعية الدراسات الأفريقية عام ١٩٦٠ . صدرت له العديد من المقالات فى Africa Report ؛

المترجمان :

على أحمد فخرى : سكرتير أول بوزارة الخارجية : حصل على ليسانس الآداب قسم آثار عام ١٩٥٧ ، وأتم دراسته بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية عام ١٩٧١ . عمل مفتشاً بمصلحة الآثار من عام ١٩٥٨ إلى ١٩٦٠ ، ثم التحق بالسلك الدبلوماسى بدرجة ملحق وخدم فى كل من بكين وسيراليون ثم بالإدارة الإفريقية بوزارة الخارجية :

الدكتور شوقى عطا الله الجمل : رئيس قسم التاريخ بمعهد الدراسات والبحوث الأفريقية — بجامعة القاهرة ، والمنتدب بجامعة الملك محمد الخامس بالرباط كأستاذ للتاريخ الحديث والمعاصر :

صاحب التقديم

الدكتور عبد الملك عودة : أستاذ الدراسات السياسية والأفريقية بجامعة القاهرة ، وعميد كلية الإعلام بجامعة القاهرة .

مصمم الغلاف :

محمد سليمان التهامى . يعمل رساما بدار الهلال ، صمم الكثير من أغلفة كتب المؤسسة .

محتويات الجزء الأول

تقديم
بقلم
الدكتور عبد الملك عودة

فى اطار الالتزام بتقديم الفكر الأمريكى المعاصر لقراء اللغة العربية — توالى مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر التزامها بنشر ترجمات منتقاة فى مختلف ميادين المعرفة والعلوم الاجتماعية والتطبيقية ، ولهذا تقدم اليوم كتاب تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء من تأليف الاستاذ الدكتور دونالد ويدنر .

ويتوافر النشر مع تزايد تيار الاهتمام بالدراسات الأفريقية خاصة والتعرف على أفريقيا المعاصرة عامة ، وهذا اهتمام عالمى واهتمام عربى . لقد اصبحت دول أفريقيا وشعوبها ذات موقع يجذب النظر على خريطة الصراع العالمى وعلى خريطة العلاقات المتبادلة بين البلاد الغنية والبلاد االفقيرة ، وعلى خريطة التعاون العربى الافريقى ، وهذا الأهتمام العالمى العام يتزايد مع نمو المعلومات والبيانات والكتابات المنوعة عن أفريقيا القديمة والوسيطة والحديثة والمعاصرة كما أن ميدان الكتابة والنشر لم يعد حكرا على البلاد الغنية والمتقدمة فقط ، بل دخل ميدان التأليف والبحث — فى أقتدار .. الأفريقيون أنفسهم ، كتبوا تاريخ بلادهم وحضاراتها المنوعة باللغات الانجليزية والفرنسية والعربية والسواحلية والهاوسا ... الخ .

كما أن الاضافات العلمية المؤكدة التى سجلوها فى ميدان البحث والدراسات أصبحت متداولة ومتعارف عليها فى الاوساط الاكاديمية العالمية .

وبالنسبة لهذا الكتاب — لقد كتب الاستاذ الدكتور شوقى عطا الله الجمل تعليقا شاملا على بعض ما أثاره المؤلف من قضايا وما أورده من تفسيرات أو آراء وهذا الفصل الاخير الذى كتبه المترجم يوضح موقفا اكاديميا يستحق الاستحسان ، اذ يقول فى فاتحة هذا الفصل :

« أقتضت الأمانة العلمية أن ننقل للقارىء العربى الآراء التى أوردها المؤلف فى هذا العمل العلمى الضخم — كما هى — وقد أشرنا فى هوامش

هذه الترجمة العربية مرارا الى اننا لا نتفق مع بعض الآراء التى ذكرها — وأن كان هذا لاينقص من قيمة الكتاب الذى بلاشك يسد فراغا كبيرا فى المكتبة العربية » .

ومن الواجب أن نشير الى أن مؤلف الكتاب أستاذ متخصص فى تاريخ أفريقيا بالجامعات الأمريكية ، ومع ذلك لا نجد حرجا فى أن نختلف معه حول ما أورده من آراء وفيما ذهب اليه من تفسيرات واستنتاجات ، ولكن فى نفس الوقت يجب أن ننبه على أن الكتاب قد طبع عام ١٩٦٢ بالولايات المتحدة الأمريكية ، ومنذ ذلك التاريخ تغيرت أوضاع عديدة فى أفريقيا وفى اتجاهات وسياسات قياداتها ، لقد أزداد عدد الدول الأفريقية المستقلة ، وتراجع الوجود الاستعمارى ، وشهدت القارة تجارب ونماذج منوعة فى التنمية القومية وفى التغيير الاجتماعى وفى نظم الحكم وفى أعمار واهتمامات الأجيال المتعاقبة فى الدول المختلفة ، كما حدث تطور خطير فى تراكم ونمو المعلومات والبيانات والحقائق حول تاريخ أفريقيا القديم والوسيط وحضارات أفريقيا ولغاتها وثقافاتها ، وتطلعات شعوبها نحو المستقبل .

وهذا التغير العام وهذا النمو الحضارى والثقافى هو ما نعنيه عندما نشير الى الاضافات العلمية والاجتهادات الاكاديمية التى قام بها أبناء أفريقيا من الاساتذة والباحثين والمتخصصين كل فى ميدان عمله ونشاطه . كما أن التطور العام قد أسقط كثيرا من المقولات الخطأ والأوهام الشائعة التى طالما امتلأت بها كتابات مغرضة ، وفى هذا المقام نشير الى رفض الكثيرين تبنى مقولة انقسام أفريقيا الى جنوب الصحراء والى شمال الصحراء ، ومقولة أن الرجل الأفريقى الاسود ليس له تاريخ أو حضارة قبل مقدم الاستعمار الأوربى ، وأن اللغات الأفريقية المنطوقة والمكتوبة ليس لها أسهام ثقافى أو دور اجتماعى حضارى .

واجد نفسى فى موقف الاتفاق مع الأستاذ الدكتور شوقى عطا الله الجمل فى تعليقاته الخاصة بقضايا الرق وتجارة الرقيق ، وما ترتب عليها من آثار وتعقيدات أنسانية وتاريخية واقتصادية واجتماعية وان جميع شعوب العالم — قبل الغاء تجارة الرقيق دوليا — قد اسهمت بطريقة ما فى هذه التجارة وأن التجارة الأوربية الأمريكية هى أشد مراحلها سوءا وتدميرا للشخصية الأفريقية ، وأن الأديان السماوية وخاصة الاسلام لها موقف فكرى واضح ضد استعباد الانسان لاخيه الانسان مهما كان لونه أو جنسه أو دينه .

وفى قضية الاستعمار الأوروبى نجد أن مقولة الرسالة الانسانية وعبء الرجل الأبيض ودوره فى تمدين وتحضير العالم المتخلف — هذه آراء واتجاهات قد سقطت نهائيا . وثبت من علوم الاقتصاد والاحصاء والسياسة أن الاستعمار قد جاء الى بلادنا — بدون استثناء — تحت علم التجارة والاستغلال والاستثمار ، وان جميع أنواع الاستعمار حاليا فى صوره القديمة والجديدة انما تلقى من شعوب أفريقيا العداء والرفض . وان الاستعمار المعاصر ليس استغلالا ونهبا اقتصاديا فقط وانما يأخذ صورا فكرية وحضارية وسياسية وثقافية ولغوية منوعة تدور جميعها حول فكرة اصيلة وهى النفوذ الاقتصادى والربح والاستثمارات المالية والنفوذ السياسى .

والقضية الثالثة التى اهتم المترجم بتوضيحها هى ان المؤلف قد فسر واستنتج تطورات العلاقات الدولية ودور الاتحاد السوفيتى طبقا لما يعتقد أو يرى ، ومن وجهة نظرى اعتقد أن المؤلف قد أخذ موقف الانحياز ، وسبب هذا الموقف المنحاز هو أن الكتاب قد أعد ونشر فى فترة الحرب الباردة التى اجتاحت العالم فى السنوات الخمسينات والستينات من هذا القرن ، وكانت الحرب الباردة فترة قاسية فى حياة العالم حيث توالت الضغوط والتيارات على الدول الصغيرة والشعوب الفقيرة لكى تنحاز الى أحد الجانبين اللذين تصارعا فى العالم وهما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى ، وقد كان السلاح الوحيد الذى التزمت به هذه الشعوب والدول الصغيرة والمستقلة حديثا بعد الحرب العالمية الثانية — هو سلاح عدم الانحياز ، والحياد الايجابى ، وقد عبر عن موقف جميع هذه الدول بيان مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ حينما رفض الاستعمار القديم والجديد فى كافة صوره واشكاله ، واعتبر سياسات الدول العظمى والكبرى كافة انما تعبر عن مصالحها واتجاهاتها ، وأن واجب الدول الصغرى فى آسيا وأفريقيا هو ان تحارب وتكافح حتى لا تدخل فى دائرة مناطق النفوذ . وهذه نقطة خلافية مع المؤلف أيضا ومع كل هذا — فان الكتاب جدير بأن يقرأ وأن يناقش ، وأن يأخذ سبيله الى ايدى طلاب الدراسات الأفريقية فى جميع البلاد الناطقة باللغة

العربيـــة ، كما اننــا ننظر الى المستقبل لمزيد من الترجمات فى ميـــادين الدراســـات الأفريقيــة ، اذ أعرف — تمام المعرفة — الكتابات الحديثــة للأساتذة والمتخصصين بجامعات الولايات المتحدة الأمريكية،وان اعدادا كثيرة منها تمتاز بالاضافات العلمية وبالمناقشـــات الموضوعية وبمواكبة الجديد فى البيانات والمعلومات الأفريقية وبارتياد مناهج ومدارس حديثة فى الدرس والبحث فى مختلف فروع الدراســـات الأفريقية .

مقـــدمـــة

يثور السؤال عما اذا كان هنـــاك تاريخ للقـــارة الأفريقية .. اذ من المعلوم أن التـــاريخ يصنع حينما وحيثما يعيش الانســـان ، وقـــد وجـــد فى افريقيا كما وجد فى أى مكان آخر من العـــالم . وكان من المـــألوف أن يقال ان التاريخ انما يوجد فقط حينما تتوافر لدينـــا سجلات مكتوبة كاملة ، وبقايا آثرية تمثـــل تتابعا تاريخيا على نحو يمكن تفسيره . وفيما يتعـــلق بمصر ووادى النيل ، وشمال افريقيا ، فان لهـــا تاريخها المعروف من زمن طويل ، لكن الى الجنوب من هـــذه المنـــاطق لم يتم اكتشـــاف مثل هـــذه المصـــادر التاريخية .

وكان المعتقد ، والحالة هـــذه ، أن افريقيا ليس لها تاريخ ، باستثناء تلك الأجزاء التى استطاع ســـكان منطقـــة البحر المتوسط والمستكشفون الأوربيون والمستعمرون أن يكتبوا عنهـــا فى الأزمنـــة الحديثة . ولم يكن لســـكان افريقيا تاريخ خاص بهم الا بعـــد أن تم اتصالهم بالأوربيين .

ولكن وســـائل البحث الحديثـــة فى عصرنا الراهن أدت الى قلب كثير من المفهومات القديمـــة — اذ لم تعد الوثـــائق والحفريات هى المصـــادر الوحيدة للمعرفة التاريخية ، حيث أمكن للطرق البديلـــة للبحث أن تقـــدم لنا مادة علمية صـــالحة فى هـــذا المجال خلال السنوات الأخيرة الماضية . وفى العديد من الحـــالات أمكن لهذه الطرق الحديثة أن تؤدى الى اكتشـــاف وثائق ومخلفات تتعلق بتاريخ أفريقيا ما كان مستطاعا أن ترى النور بدون هـــذه الطرق .

ولقـــد بـــدأت البحوث — التى لم تســـتخدم بالضرورة الوثـــائق أو الحفريات — فى التطور بعـــد تطبيق المعرفة العلميـــة والسيكولوجية فى أواخر القرن التاســـع عشر وأوائل القرن العشرين ، وان كان تطبيقهـــا على افريقيا فى مجـــالى الســـلالات والاجتماع قـــد حـــدث فى وقت متأخر نسبيا — لكن اكتشف أن الأفريقيين احتفظوا بتقاليد عريقة فى الأساطير ، سواء منها ما يمس النواحى العقائديـــة أو غيرهـــا .

وكثير من هذه الأساطير عبارة عن خيالات أو تفسيرات لظواهر غير معروفة ، وعادة ما تكون غالبية الأساطير التى يعتد بها تأكيدا لقوائم بأسماء ملوك أو معارك ، وربما لهجرات كبرى . وغالبا ما تقتضب أو تبدل تواريخ الوقائع ، كما تتكرر ظاهرة احلال الأسماء أو الوقائع بعضها مكان بعضها الآخر ، مما دعا بعض المتشككين الى القول بأن الأساطير نادرا ما تكون صحيحة . غير أن هناك عدة طرق يمكن عن طريقها تصحيح النواحى غير الدقيقة ، ويتسنى بذلك فصل الصحيح منها من الزائف . واذا كانت الأساطير التى يتناقلها الناس شفاها تسجل أحداثا تناولها أيضا الأوربيون والكتاب العرب،فان الكثير أيضا من التفصيلات التى ترتبط بهذه التقاليد من المحتمل أن تكون صحيحة ، ويمكن أن تساعد على التأريخ للأحداث ، وتسهم الدراسات الأثرية أحيانا فى اثبات صدق بعض الأساطير . فمثلا ذكرت بعض الروايات الشفهية أن كسوفا للشمس حدث قبل موعده الحقيقى بـ ٢٥٠ سنة ، وهذا لا يختلف عن الحسابات الفلكية الأوربية .

وفى بعض الحالات كانت تحدد أسماء الأماكن مشافهة لبضعة قرون . ولا شك أن دقة هذه المعلومات التى ترد عن طريق النقل الشفاهى لها فائدة حيوية ، حيث ان الأخطاء الكبرى غالبا ما تكون مستحيلة ، وغالبا ما يحدث أن يقوم رجال القبيلة الآخرون ، الذين هم على دراية بالعادات والتقاليد ، بتصحيح ما يرويه الرواة .

ويحدث أحيانا أن تتشابه الأساطير التى تتناقلها قبيلة مع تلك التى تتناقلها قبيلة أخرى ، ومع ذلك فان هذا النوع من الاستدلال لا يؤدى الى نتيجة كاملة ؛ وذلك لا مكان استعارة هذه الأساطير بين القبائل ، كما أن هذه الأساطير تتضمن على أية حال بعض الدلائل التى تنم عن أصولها ، ومن الذى قام بنقلها — ففى بعض الأحيان ترد هذه الأساطير عبر مسافات بعيدة عن طريق بعض الوسطاء — وهذه فى حد ذاتها تعتبر ظاهرة ذات مغزى تاريخى .

وهناك عدد من الوقائع المكتوبة ذات الأهمية البالغة ، ورد كثير منها عن طريق الرحالة العرب أو الدارسين ، وقليل منها عن طريق الزنوج الأفريقيين ، جرى تدوينه باللغة العربية ، مما يلقى الضوء على أحداث فى مناطق من شرق أفريقيا أو غربها جنوبى الصحراء ، ترجع فى بعض الحالات الى أكثر من عشرة قرون قبل وصول الأوربيين المحدثين .

وعلى ذلك فان أفريقيا لها تاريخها الخاص بها ، كما أن التتابع التاريخى يمكن أن يتسع مداه ، وأن يجرى تحقيقه بالاستعانة بتقارير الرحالة والغزاة ، وبالتجار الآتين من أقطار بلغ فيها فن التسجيل التاريخى مرحلة متطورة . ومن مجمل المصادر التاريخية الأفريقية يبدو أن هناك عدة موضوعات يتكرر تناقلها . ويجدر برجل التاريخ حين يلم بالتنظيم القبلى ونواحيه الثقافية لتلك القبائل أن يضع فى حسبانه ما مرت به أحوالها من تطور سياسى واقتصادى وجغرافى ، وثقافى ، ودينى .

فهذه المجتمعات الأفريقية — وهى فى طريق تطورها — تتفاعل مع المؤثرات التكنولوجية والنظم الأوربية ، وباعتبار أنها جزء من العالم الحديث فان الأفريقيين ، بشتى مشاربهم وانتماءاتهم ، يتصلون بعضهم ببعض من ناحية ، وبالعالم الخارجى من ناحية أخرى ، ويحاولون مواءمة تقاليدهم المتباينة تاريخيا مع البيئة والظروف الراهنة .

ودرجة التجانس البشرى والثقافى فى أفريقيا ليست أقل أو أكثر منها فى أوربا وأمريكا ، فلا ينبغى اذن فرض وحدة مصطنعة بدعوى القيام بدراسة منطقة أكثر أتساعا ؛ اذ أن التباين أو التشابه يمكن اكتشافه باجراء الحصر العام .

وقد كانت المناطق الواقعة على ساحل البحر المتوسط والمتمركزة فى مصر أساسا وامتدادها نحو الغرب — بفعل انتشار الاسلام — الى مضيق جبل طارق ، موضوعا مألوفا للقراء الغربيين وللمؤرخين ، فى حين أن المناطق الواقعة جنوب الصحراء كانت ، من الناحية الفعلية ، غير معروفة لأى حضارة من حضارات البحر المتوسط ، سواء منها الحضارات القديمة أو تلك التى تنتمى للعصور الوسطى فيما عدا العرب .

وعلى ذلك فلم يكن هناك اهتمام بالمنطقة جنوب الصحراء فيما وراء المجرى الرئيسى لنهر النيل وجنوب مرتفعات الحبشة الا نادرا ومن ثم فان هذا الجزء من أفريقيا بذاته هو ما ينبغى أن يحظى بعناية الدراسات والبحوث فى عصرنا الحديث .

٢
تمهيد

تتميز المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى فى القارة الأفريقية ، بأنه لا يوجد بها جبال أو أحراش ، وانما توجد حشائش سافانا يتخللها بشكل غير منتظم بعض الأشجار وبعض الأنهار الراكدة ، وهذه المنطقة تشبه برارى أمريكا فيما بين تكساس وداكوتا (١) ، ولكنها أكثر حرارة وجفافا فى معظم أوقات السنة .

وفى أفريقيا يعتبر سقوط الأمطار مشكلة ذات طابع مميز ؛ لأنها تتركز غالبا فى فصل واحد من السنة ، كما أنها غير كافية لمواجهة احتياجات الأرض ، وقارة أستراليا فقط هى التى توجد فيها مرتفعات وجبال أقل مما فى أفريقيا ، أما أمريكا الجنوبية وجنوب آسيا فتوجد فيهما غابات مدارية ، مما يمكن أن يطلق عليها اسم « الأحراج » .

وتبلغ مساحة أفريقيا نحو ١١٫٦٠٠٫٠٠٠ ميل مربع ، يقع ما يقرب من ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ ميل منها فى منطقة الصحراء وبطول ساحل البحر المتوسط ، فى حين تقع نسبة ٢٠٪ من باقى المساحة وقدرها ٦٫٦٠٠٫٠٠٠ ميل مربع (ضعف مساحة الولايات المتحدة) فى جنوب الصحراء ضمن الغابات المدارية ، حيث تتوافر أمطار أكثر ونباتات أكثف مما فى جنوب الولايات المتحدة ، أما الـ ٨٠٪ الأخرى من أفريقيا جنوب الصحراء ، فلا يسقط عليها من الأمطار سنويا ما يوازى ما يسقط على ميامى أو فلوريدا (٢) . وعلى العموم فان أية جهة فى أفريقيا لا تسجل درجات حرارة كتلك التى تسجلها منطقة شرقى الولايات المتحدة ، اللهم الا فى الصحراء ذاتها ، ومن ناحية أخرى يلاحظ أن جبال جنوبى أفريقيا فقط تسجل درجة برودة فى الشتاء مشابهة لواشنطن العاصمة . وفيما عدا الغابات الاستوائية المطيرة يمكن أن نضاهى الأحوال المناخية فى أفريقيا بالمنطقة الممتدة من لويزيانا مارة بتكساس حتى نيومكسيكو .

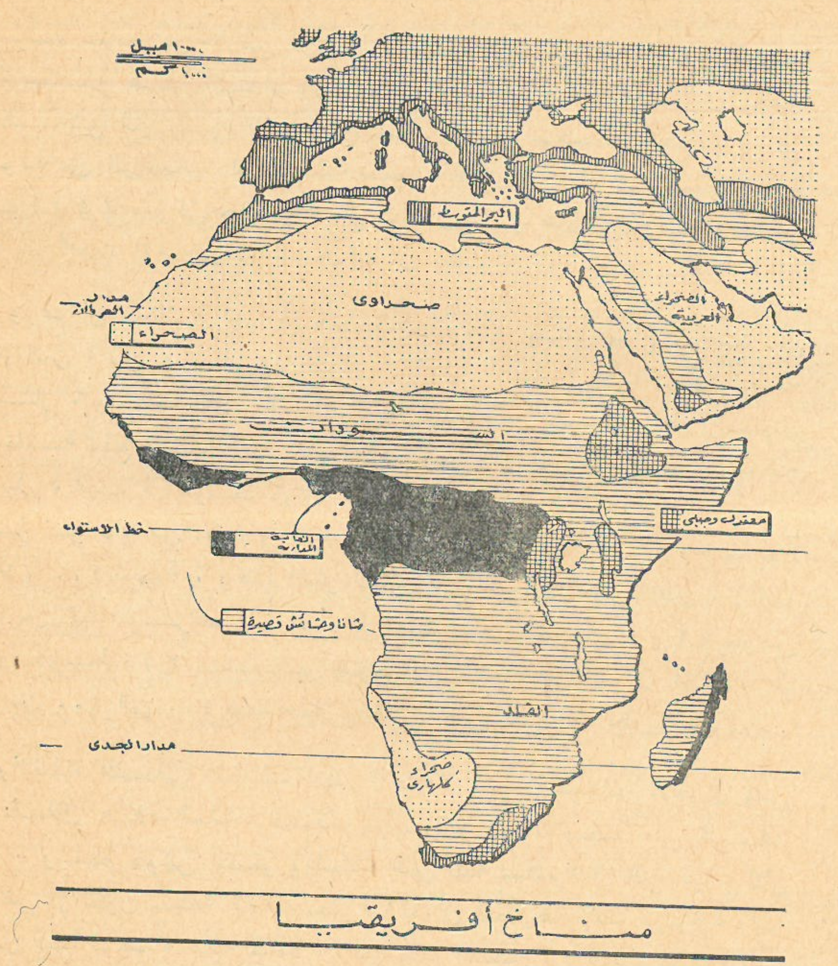
---

(١) ولايتان أمريكيتان تقعان شرقى وجنوبى الولايات المتحدة . (المترجم) .
(٢) جنوب شرقى الولايات المتحدة وهى منطقة مدارية . (المترجم) .



مظاهر تضاريس القارة الأفريقية

أما شمال أفريقيا المطل على البحر فيسوده مناخ ما بين شبه المدارى والمعتدل ، ويتوقف ذلك على درجة الارتفاع عن سطح البحر ، ويمكن ملاحظة الفرق بين هذه المناطق ونظيرتها على الساحل الأوربى من ذلك البحر ، فالأفريقية أكثر جفافا نسبيا ، ومناخها — باستثناء المغرب والجزائر — يقترب من المناخ الصحراوى . وتتميز الصحراء الأفريقية بأنها صخرية أكثر منها رملية ، وما يصاحب ذلك من وجود آبار مائية أو واحات واسعة فى قلب مساحات يبلغ متوسطها ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ ميل



مناخ أفريقيا

مربع ، وتخترقها تلك الظاهرة الطبيعية الهامة ، نهر النيل الصالح للملاحة فى معظم اجزائه ، والذى يمثل موردا أساسيا للرى .

والى جنوب هذه الصحراء تبدأ منطقة السافانا التى يمكن أن تمارس فيها الزراعة الجافة . وتزداد حشائش السافانا كثافة وارتفاعا حتى تصل الى منطقة المطر الذى يسمح بنمو الغابات فى غرب القارة ووسطها . والى الشرق فيما بين الغابة المطيرة ومرتفعات الحبشة يكون نهر النيل مستنقعات من نبات البردى تعرف بمنطقة السدود the sudd وفى اعالى النيل تلمس منابعه الحافة الشرقية من الغابة المطيرة ، فيأتى بنوع من السافانا حتى أفريقيا الاستوائية والبحيرات الأفريقية العظمى . والى الغرب توجد الغابة المطيرة فى حوض نهر الكنغو وعلى ساحل الاطلنطى ، أما فى الشرق فتوجد مرتفعات كينيا المعتدلة المناخ والتى تحيط بها السافانا . والى الجنوب الغربى من القارة توجد الحشائش الخشنة

ويمتد شريط من الأرض الريفية المنبسطة من وسط القارة نحو الجنوب حيث يتسع هذا الامتداد فى اقليم الفلد . وهذه منطقة أخرى مغطاة بالحشائش التى تشبه السافانا الشماليه . كما توجد فى جنوب أفريقيا مجموعة من المرتفعات الساحلية يسود خلفها مناخ محيطى يشبه مناخ الريفيرا (١) . والى جانب ذلك توجد صحارى هامشية محدودة شرقى كينيا فى القرن الأفريقى فى الصومال وفى بتشوانا لاند شمال منطقة الكاب

ورغم أن معظم أفريقيا فى جنوب الصحراء يتمتع بمناخ موحد الى حد كبير ، فان هناك منطقة محدودة للغابات المطيرة تختلف فيها كمية الأمطار ، ويختلف كذلك الغطاء النباتى . ويقدر متوسط المطر السنوى فى منطقة تبلغ ثلاثة أرباع هذه الغابة ما بين ٥٩ و ٧٨٫٧ بوصة (موبيل ، ألباما ، المتوسط ٦٧٫٦ بوصة) . أما الربع الباقى منها — ويبلغ نحو ٥٪ من الأراضى الواقعة جنوب الصحراء — فيتراوح ما بين ٧٨٫٧ و ٤٠٠ بوصة ؛ وهذا المطر الغزير يسقط على ثلاث مناطق : (١) أجزاء من غينيا وسيراليون ، وليبيريا ، وساحل العاج ، (٢) حوض الكنغو الأوسط ، (٣) دلتا نهر النيجر وساحل الكميرون . أما حزام المطر من ٢٠٠ الى ٤٠٠ بوصة فلا يوجد الا على منحدرات جبل الكميرون .

والغطاء النباتى للغابات المطيرة كثيف . أما النباتات الآخرى التى تنمو خلال هذه الغابات فتتوقف نوعيتها ومدى تلاصقها على كميات المطر . ومعظم حوض الكنغو والمنطقة التى تليه مباشرة فى الجنوب ، كان المفروض أن تكون منطقة غابات مطيرة ، لو أن أمطارها كانت غزيرة ، ولكن بدلا من ذلك توجد « غابة جافة » تنمو فيها أشجار من النوع الذى ينفض ورقه فى بعض فصول السنة ؛ كما أن هناك بعض مناطق متناثرة من الغابات المطيرة على طول الساحل الجنوبى الشرقى (موزمبيق والناتال) ، هذه الظاهرة ترجع الى انتظام سقوط الأمطار على مدار السنة ، لا الى غزارة هذه الأمطار .

وباستثناء الساحل الجنوبى الشرقى للقارة — تتمثل فى أفريقيا شهور مطيرة وأخرى جافة ، ويوجد تباين واضح فى هذه الشهور بين الشمال والجنوب ، ولا تكاد تلحظ آثار الموجات العاصفة بين منطقة البحر المتوسط

---

(١) يقصد مناخ البحر المتوسط . (المترجم) .

المعتدلة ومنطقة الرأس ، هذا باستثناء موزمبيق التى تقع على حافة العواصف الاستوائية .

ولم يكن تخطيط الحدود السياسية فى أفريقيا راجعا الى العوامل الجغرافية بقدر ما كان راجعا الى عوامل تاريخية تعسفية . الا أن العوامل الجغرافية هى التى كانت تحدد طرق الاتصال والتجارة حتى أتى الأوربيون واستطاعوا بأساليبهم السياسية والتكنولوجية أن يخضعوا العوامل الطبيعية فى هذا المجال . وهناك ثلاثة أنهار كبرى ؛ هى : (النيل ، والنيجر ، والكنغو) ، قامت بدور هام كوسائل للاتصال ، الا أن أهميتها كطريق ملاحى كانت محدودة لعدم صلاحية المجرى ، اذ توجد به بعض الجنادل والشلالات والحواجز الرملية وتذبذب مستوى النهر . أما باقى الأنهار الأقل أهمية مثل نهر شرى ، والفولتا ، والسنغال ، وجامبيا ، فنادرا ما كانت تستخدم فى الماضى حتى وقتنا هذا .

وينتشر السكان فى كل من غرب أفريقيا وشرقها ، وفى وسط وجنوب القارة . وهذا لا يمنع وجود بعض السكان متناثرين عبر منطقة الصحراء ، ولكن يلاحظ أن أكثر الجهات كثافة بالسكان هى الواقعة على امتداد الساحل الغربى ما بين نهر السنغال والكميرون (مع درجة كثافة خاصة فى دلتا النيجر وشمال نيجيريا وغانا الساحلية) ، وكذلك حول البحيرات العظمى ، وعلى طول امتداد خط سكة حديد كينيا — أوغندا (وتتركز بدرجة أكبر فى رواندا أوروندى) ، وأيضا فى المناطق الشرقية والجنوبية من روديسيا ، وفى جمهورية جنوب أفريقيا . ويمكن أن نوازن بين ما نشاهده فى الأماكن المزدحمة بالسكان فى أفريقيا ، وما نشاهده من اختلاف فى الكثافة السكانية فى فرنسا ، وأيرلندا ، وفيرجينيا ، على أن المناطق الواقعة جنوب الصحراء يمكن تشبيهها من ناحية الانتشار السكانى بسهول السويد الشمالية أو سهول أمريكا .

وانتشار توزيع السكان فى أفريقيا يعتبر تطورا حديثا ؛ اذ كانت أكثر المناطق سكانا منذ ما يقرب من ٥٠٠ سنة هى التى تحيط بنهر النيجر والبحيرات العظمى الاستوائية . أما الشواطىء والجبهات الجنوبية من القارة فكان سكانها متناثرين . ومن المحتمل فى الأزمنة القديمة أن يكون جنوب الصحراء ووسطها أكثر جهات أفريقيا ازدحاما بالسكان ، مع توزيع سكانى متناثر فى الأماكن التى تقع الآن فى مناطق السافانا والغابات . وعلى ذلك يمكن القول بأن تاريخ أفريقيا المبكر نشأ فى الصحراء التى انتقل منها بعد ذلك الى سافانا النيجر وشواطىء بحيرة فيكتوريا .

وتشير عدة اكتشافات حديثة الى احتمال أن يكون الانسان الأول قد نشأ فى القارة الأفريقية . ويبدو أن الأنواع الأولى من الانسان تشبه الى حد كبير — سواء فى المظهر أو السلوك — قبائل البوشمن الحاليين والأقزام وسكان أستراليا الأصليين . ولم يتفق الباحثون فيما اذا كان القوقازيون والزنوج ينحدرون من هذه الأنواع ذاتها أم من أنواع أخرى لا تتفرع منها (١) . ويحتمل أن تكون قبائل البوشمن قد انتشرت من جنوب القارة باتجاه الشرق الى الحبشة ، فى حين تسرب الأقزام من غرب كينيا باتجاه الكنغو وساحل الغابة المطيرة فى غرب أفريقيا ، أما عناصر « الجنوبيين » Australoids فقد تم امتصاص بعضهم بواسطة العنصرين الآخرين . وهاجر البعض الآخر عبر قارة آسيا الى أستراليا والجزر المحيطية (٢) .

وقد بدأت عناصر القوقازيين تظهر فى غرب كينيا ، وكانوا يسمون بشعب الكابسيين ، أو الكوشيين الأوائل ، أو الحاميين الأوائل ، ولكن لا يمكن الجزم بأن يعتبر ذلك تحولا من سلالة البوشمن الأصلية ، أم أن هذا العنصر تطور تطورا مستقلا . ومن المعتقد أن هؤلاء القوقازيين قد هاجروا باتجاه الشمال الشرقى الى شبه الجزيرة العربية وغرب آسيا ، وأنهم كذلك هاجروا نحو الشمال الغربى الى مصر وشمال أفريقيا .

ويذهب الدارسون المحدثون (بصفة خاصة جوزيف جرينبرج) (٣) الى أن اسم الكوشيين ينطبق على أصول القوقازيين الأول ، وان لغتهم الأساسية ينبغى أن يطلق عليها اسم الأفروآسيوية (سابقا حامية) . وعلى ذلك يكون البوشمن اسما لسلالة أخرى يتحدث أهلها لغة

---

(١) انظر مؤلفات L.S.B. Leakey ، خاصة Adam's Ancestors (4th. ed.), London, 1953.
وتقرير مؤتمر المعهد الأنثروبولوجى الملكى بعنوان :
Early Human Remains in East Africa (Cambridge 1933)
وكذلك نتائج بحوث المؤتمر الأول للوحدة الأفريقية،الخاص بما قبل التاريخ (اكسفورد ١٩٥٢) .

(٢) للتوسع فى دراسة هذه النقاط والنظريات الأخرى التالية ، انظر : Sonia Cole, The Prehistory of East Africa, Harmondsworth, 1954 ; and Henriette Alimen (A. Broderick, transl.), The Prehistory of Africa, London, 1957.

« خوابسان » . وليست هناك معلومات مؤكدة عن لغة الأقزام الأولى ؛ ذلك أنهم كانوا يستخدمون دائما لغة من يغزونهم .

اما نشأة الزنوج فقد كانت أكبر الألغاز التى حيرت الدارسين . وقد كان المظنون أنهم نمط من الكوشيين أو مزيج من الكوشيين والبوشمن والأقزام . أما النظريات القديمة التى كانت تقول بأنهم وردوا من الهند أو اندونيسيا وهاجروا الى القارة دون أن يتركوا وراءهم اى اثر لهم فقد صرف النظر عنها تماما .

وتاريخ هذه التطورات لما قبل عصر التاريخ لا يمكن أن يكون مؤكدا ، وانما يذكر على وجه التقريب انتظارا لمزيد من البحوث ، وهنا لا بد أن نراعى ما يلى :

١ — أنه كان من الممكن التعرف على الكوشيين والبوشمن والأقزام قبل ١٠٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد .

٢ — أن الكوشيين الذين كانوا يتميزون بصفات قوقازية دخلوا مصر نحو سنة ٥٫٠٠٠ ق.م.

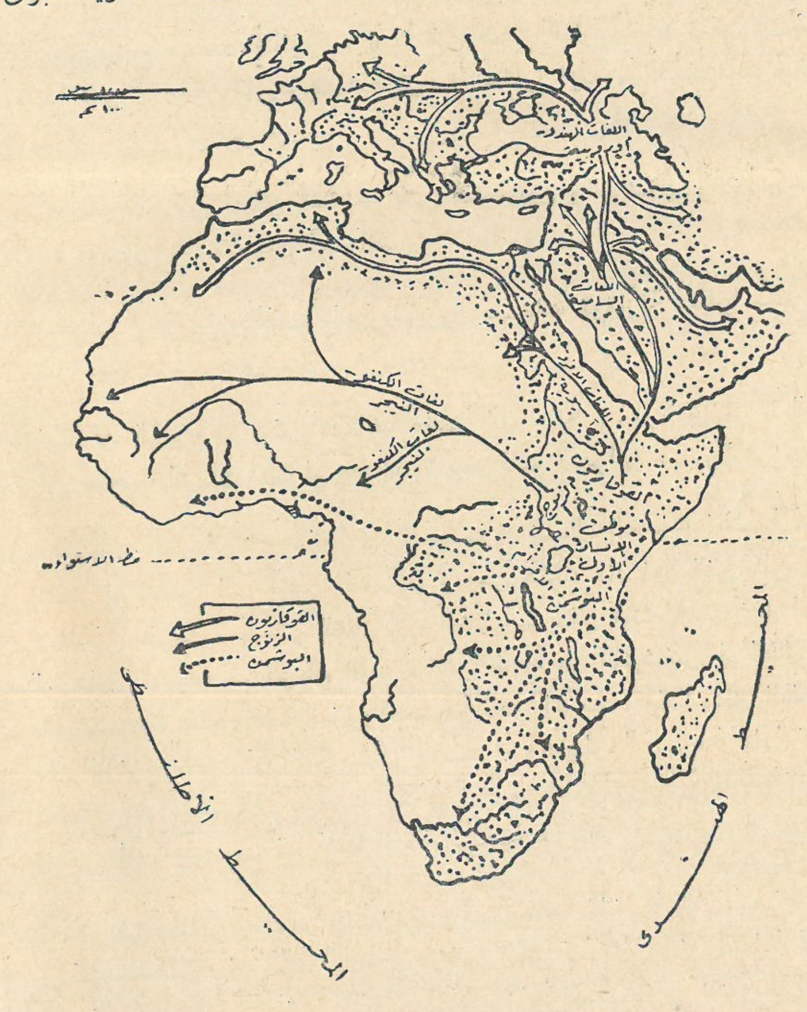
٣ — أن الزنوج لم يمكن التعرف عليهم قبل سنة ٦٫٠٠٠ ق.م. (البعض يذهب الى أن ذلك لم يحدث الا بعد ذلك ، حوالى ٤٫٠٠٠ ق.م.) .

وحين ظهر الزنوج كانوا فى الصحراء شمال الغابات المطيرة مباشرة ولكنهم لم يصلوا الى البحر المتوسط . ومن هناك عند نهر النيل الى المحيط الأطلنطى تقريبا . ويمكن القول بأن أفضل ما يمكن تصوره — رغم استناده الى دليل ضعيف — هو أن الزنوج كانوا فرعا من الكوشيين فى أعالى النيل بالقرب من كينيا ، وانهم انتشروا بسرعة نحو الغرب . وكما يذكر الباحثون ، فان الزنوج كانوا أول من احتل الصحراء وسيطروا بسرعة على كل تلك المنطقة ، وأغلبهم كان يتحدث بلغة (نيجرو — كونجولية Negro-Congo) وكان يطلق عليها من قبل لفظ اللغة الزنجية .

وعلى ذلك توجد الأجناس والمجموعات اللغوية الأربع الرئيسية فى أفريقيا على نطاق يمتد ٢٥٠ ميلا حول بحيرة فيكتوريا ، رغم اننا لا نعرف هل كان لهذه الأجناس أصل واحد ؟ وواضح أن التوزيع الجغرافى لتلك الأجناس فى حوالى ٤٫٠٠٠ ق.م. كان كالآتى : البوشمن ، فى جنوب وشرق أفريقيا ، والأقزام ، فى قلب الغابات المطيرة ومعظم الغابات الجافة ؛

والقوقازيون ، بطول الشواطىء الأفريقية والآسيوية للبحر الأحمر ، وفى شمال أفريقيا الساحلية حتى المحيط الأطلنطى (المغرب) مع امتدادات أخرى من شبه الجزيرة العربية ، عبر منطقة ما بين النهرين بالعراق الى أوربا ووسط آسيا ؛ والزنوج ، فى الصحراء وفى السافانا شمالى الغابات المطيرة .

ويبدو أن التقسيم اللغوى يساير التقسيم البشرى ، حيث ان القوقازيين الأفروآسيويين قد تحدثوا بخمس مجموعات لغوية كبرى ،



السلالات فى افريقيا قبل عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد .

وهى : السامية فى شبه الجزيرة العربية وما بين النهرين ، والبربرية فى الساحل الشمالى الغربى ، واللغة المصرية القديمة ، والتشادية فى الصحراء ، واللغة الكوشية القديمة فى الحبشة .

وظهرت تقسيمات لغوية أخرى للمجموعة النيجرو — كنجولية ، واهمها لغة الماندى او الماندجو (غربى الصحراء) ، والزنوج الشرقيين أو الاداماوا الشرقيين (فى الصحراء الشرقية) ، ثم اللغة البانتوية التى عرفت باسم شبه البانتو (فى جنوب شرق نيجيريا ومرتفعات الكميرون) ، أما زنوج وادى النيل الأعلى فيبدو انهم كانوا يتحدثون مجموعة لغوية متميزة سميت « السودانية » ، ربما كانت خليطا من اللهجات النيلية ، أو اشتقاقا مبكرا من العائلة اللغوية الزنجية . وانه لمن العسير أن يكون الأمر أكثر تحديدا من ذلك ؛ لأن المتحدثين باللغة السودانية كانوا يتلقون الضربات المتكررة ويتعرضون للغزوات التى كان يداهمهم بها قدماء المصريين والكوشيون الاثيوبيون والزنوج الشرقيون فيما قبل ١٠٠٠ م. ، ثم بعد ذلك العرب الساميون وغيرهم من المتحدثين بلغات الزنوج . هذا بالاضافة الى هجمات تجار الرقيق مما زاد من الاضطراب فى المنطقة . وتوجد مجموعات أخرى غير محدودة الانتشار ، ولم يتناولها التحليل فى الصحراء الشرقية ووادى النيل ، لكن باقى القارة الأفريقية تسكنه اليوم جماعات تتحدث باللغة الأفروآسيوية ، والنيجرو — كنجولية ، أو لغة خواسان .

وفى الفترة ما بين ٨٠٠٠و٤٠٠٠ ق.م. كانت فى العالم اربع مجموعات من الشعوب ، استطاعت أن توجد أربع طرق للزراعة مع فاصل زمنى كبير ، بين تلك الحضارات الزراعية ، اذ لا يوجد اى دليل على الاتصال بينها ، حيث لم تتوافر السبل لذلك . وأيضا مع الاختلاف بين هذه الحضارات الزراعية من ناحية تنوع المحصولات والنظم الاجتماعية .

وهذه الحضارات هى :

١ — الفرع السامى من القوقازيين الأفروآسيويين فى الأردن ووادى دجلة .
٢ — المغوليون فى شرق آسيا . .
٣ — الهنود الأمريكيون فيما بين المكسيك وبيرو .
٤ — زنوج الماندى فى السافانا الأفريقية على امتداد مشارف النيجر بين الغابات والصحراء الكبرى .

ويحتمل أن تكون مصر القديمة قد تعلمت الزراعة من الأردن

والعراق ، فى حين انتشرت طرق الزراعــة الزنجيــة بالتدريج نحو الشرق من منتصف النيجر الى أعــالى وادى النيــل ، واستطاعت مصر مزج حضــارات الهلال الخصيب مع تلك الحضــارات الآتية من الزنوج فى أول اتصال حضــارى كبير فى تاريخ البشرية ، ولكن — كنتيجة لذلك — كان من الصعب تمييز ما قام به كل فريق على حــدة من الانجازات الحضارية .

ولقــد كان المعتقد أن الانجازات التى قام بها الزنوج كانت نتيجة لانتشــار حضــارة ما بين النهرين فى العراق مارة بمصر الى زنوج منطقة السافانا . الا أن الكربون المشــع والدلائل الأثرية تدل على أن هناك فاصلا زمنيــا بين الاثنتين (٥٠٠٠ فى الأردن ، وقبل ٤٠٠٠ فى أفريقيا) ، ولم تتصل مصر بأى من الاثنتين الا فى تاريخ متأخر جــدا .

ان تاريخ هــذه التطورات والتحديد الدقيق لأماكنها وأهميتها النسبية لا تزال موضوعا مطروحا للبحث ، ولكن أقوى التفسيرات لتلك النظرية قد بنى على أسس انثروبولوجية ولغوية من جانب الأستاذ جورج ميردوك ، الا أن الأستاذ كرستوفر ريجلى فى بحثــه المقــارن يؤكد أهمية الزراعــة الفلسطينية ، ويرى أن أول الزارعين الزنوج كانوا فى وادى النيــل . وأما من الناحية النباتية (Botanical) فان الأستاذ رونالد بورتير يرى أن الأفريقيين قــد ابتكروا فن الزراعــة مســتقلين دون أن ينقلوهــا من الخــارج . غير أنــه يرجعها الى ١٥٠٠٠م . أما الدكتور فيدج فينظر الى هــذه المسألة نظرة تاريخية ، ويؤيد تأريخ الأستاذ بورتير ، الا أنه يقول ان الزراعــة كانت فى الأماكن الســاحلية من القارة ، وأنها ترجــع الى زنوج نهر النيجر الأوسط وليست لقبائل الماندى (١) .

ان من المتفق عليه أن الزنوج كانوا فى تاريخ مبكر يزرعون أنواعا من البقليات (منها الأنواع الرئيسية من السرغم وعــدة أنواع أخرى من الذرة الرفيعــة والــرز والباميــة) فضــلا عن بعض أنواع من اليــام والفول

(١) انظر George Peter Murdock, Africa : Its Peoples and Their Culture History, New York, 1959, pp. 40-45 ; Christopher Wrigley, "Speculation on the Economic Prehistory of Africa," Journal of African History, vol. 1. no. 2, pp. 189-203 ; Roland Porteres, "Veilles agricultures de l'Afrique intertropicale," L'Agronomie Tropicale, vol. V, 1950, pp. 489-507 ; J.D. Fage, "Anthropology, Botany, and the History of Africa," Journal of African History, vol. II, no. 2, 1961, pp. 302-304.

السوداني والبطيخ والقرع والكولا والتمرهندى والسمسم . ويعتقد الأستاذ ريجلى أن كثيرا من **هــذه المحصولات قــد دخلت أفريقيا** فى تاريخ مبكر ، ومن المتفق عليه أن أعظم انجاز حــدث هو زراعــة القطن البرى وتطويع خيوطه للنسيج ، وكذلك استخدام نباتات الزيوت مثل نخيل الزيت . ويعتقد أن معظم هــذه النبــاتات قــد انتقلت زراعتهــا الى المصريين فيمــا بين ٣٠٠٠ و١٠٠٠ ق.م. ثم الى أوربا والهند والشرق . والمحصولات الأساسية التى آلت من منطقــة ما بين النهرين فى العراق ومصر عبر وادى النيــل كانت الشعير والقمح والفول والعدس والبنجر والبصــل والثفت والكرنب والعنب والبطيخ والتين والزيتون والتيل . ثم — بعد وقت متأخر نسبيا — دخل الخيــار والموز وقصب السكر والزنجبيل وبعض أنواع من الرز من **شرق آســيا** .

أما فى اثيوبيا فقــد زرعت محصولات البن والجرجير بعــد أن كانت فنون الزراعــة قد انتقلت من الزنوج ومن المصريين . اما التبــغ والخوخ والذرة (الأمريكية) والقرع العســلى والطمــاطم فقــد ادخلها تجــار الرقيق الأوربيون .

لقــد استطاع الزنوج ، منــذ ما يقرب من ألفين أو ثلاثة آلاف سنة ، أن يقيموا اقتصــادا مبنيا على الزراعــة الدائمة فى المنطقة الواقعة ما بين الغابة والصحراء ، وهناك ادلة كثيرة على أن المنطقــة التى تعرف باسم الصحراء كانت فى تلك الفترة أكثر خصبــا ، وكــانت تستوعب كثيرا من الســكان الذين ينتشرون فيها يرعون قطعانهم ، وقد أثبتت بعثة لوت (١) فى عامى ١٩٥٦ و ١٩٥٧ أن الزراعــة فى تلك المنطقــة كانت ممكنة بدون استخدام الرى فى معظم أجزائهــا حتى عــام ٢٠٠٠ ق.م. ، وأن رعى القطعان كان منتشرا حتى ١٠٠٠ ق.م. وأنه كان يمكن رعى الخيــل فيها بوفرة حتى عهــد الرومان . ولكن فى نحو ٤٦ ق.م. وحينما لم تستطع الخيول والثيران العيش فى الصحراء قام الرومان بحل هــذه المشكلة بجلب الابل من أواسط آسيا واستخدامها فى الصــحراء . وعلى كل حــال فان الابل لم تستخدم بكثرة قبل ابتداء القرن الرابع الميلادى (٢) .

(١) Henri Lhote, "Peinture prehistorique du Sahara" (Catalogue of Exhibition, Paris, 1958) and La découverte des fresques du Tassili, Paris, 1958.

(٢) E.W. Bovill, The Golden Trade of the Moors, London, 1958, pp. 42, 48.

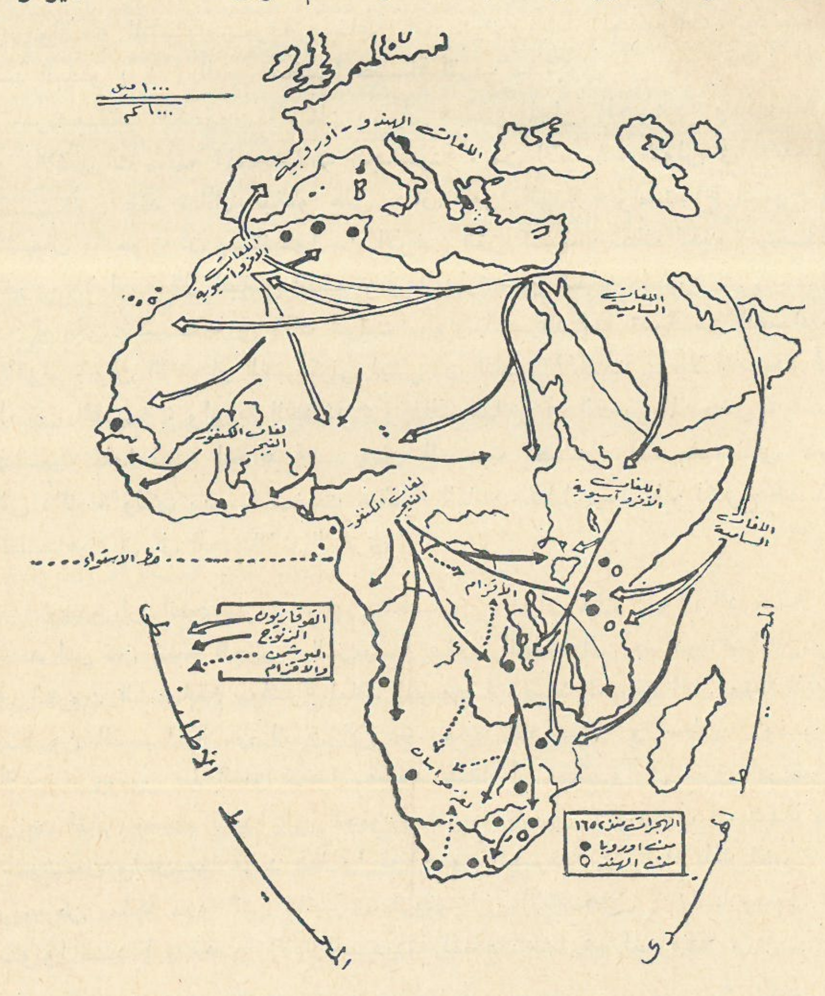
ان منطقـة تزيد فى مساحتها عن الولايات المتحدة الأمريكية وتعتبر الآن صحراء مقفرة ، من الصعب أن نتصور أنها كانت — فى وقت ما — منطقة خصبة يمكن زراعتها . ولكن الدلائل التى أوردها الأستاذ هنرى لوت — بالاضافة الى تقارير تجار الرومان ، ثم ما عثر عليه من الآثار ، فضلا عن التحليل الجيولوجى للمنطقة بأكملها — كل ذلك يؤكد هذا التحول الصارخ . أما اسبابه فليس من اليسير تاكيدها ، الا انه يمكن القول بأن عوامل التعرية ونقص وسائل حفظ التربة من جانب البربر الساحليين والزنوج فى الداخل قد اسهمت فى ذلك الى حد كبير .

ويوجد حاليا بعض مناطق على مشارف الصحراء حيث تمتد المعالم الصحراوية الى الأراضى الصالحة للزراعة لمسافة خمسة أميال فى السنة . ومع أن هذا أمر غير عادى ، لكنه يكفى دليلا على الكيفية التى بها تحولت منطقتان صغيرتان فى عصر ما قبل التاريخ الى ارض قفر فى مدى ٣٠٠٠ عام تقريبا .

ولاتساع نطاق الصحراء تدريجيا قيل انها كانت صحراء حية (Living Desert) اجبرت قاطنيها على رد البربر نحو ساحل البحر المتوسط كشريط سكانى ضيق ، ورد الزنوج الى منطقة السافانا . وفى الألف الأخيرة قبل الميلاد اخذ نطاق الضغط السكانى فيما بعد الصحراء يتسع ، لكن لحسن الحظ كان الزنوج فى ذلك الوقت قد تعلموا كيفية استخدام الحديد ، كما عرفوا الزراعة الكثيفة لبعض المحصولات ، مما أتاح الفرصة لتقدم وسائل الاعالة .

ولربما كان الحيثيون اول من صهر الحديد حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م. ولم يستعمل هذا المعدن فى مصر الا بعد مضى الف عام ، وقد عرفت قرطاجة هذا المعدن نحو سنة ٥٠٠ ق.م. وانتشرت صناعة الحديد فى أعالى النيل من مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد حيث صار انتاج الحديد صناعة كبرى فى مرو (على بعد قليل من الخرطوم الحالية) . وتعتبر مرو — منطقيا — مصدر معرفة الزنوج للحديد . ولما كان المنتجون النيليون حريصين على الاحتفاظ بسر هذه الصناعة ، فمن المحتمل أن تكون قرطاجة هى التى علمت سكان غرب افريقيا فن صهر هذا المعدن ، حيث كانت الخيول لا تزال تنقل المسافرين بانتظام عبر الصحراء . وأما الزنوج فقد استخدموا الحديد فى ٣٠٠٠ ق.م. ، واستخدموه فى استغلال مناطق السافانا . كما أن الآلات الحديدية والأسلحة الحربية يسرت غزو واستغلال الغابات الاستوائية وفتح المجال للزيادة المطردة فى السكان .

ان دور الزراعة فى غزو الغابة المطيرة قد أصبح احدى المسائل التى يطرحها الباحثون للنقاش . فالأستاذ ميردوك يعتقد أن الغابات المدارية لم تستقر المعيشة فيها الا بعد أن أدخلت اليها زراعة البطاطة والموز من اندونيسيا . ولذلك فانه من المفترض وجود الأندونيسيين على الساحل الشرقى للقارة قبل سنة ١٠٠ ق.م. حيث انتقلت المحصولات الجديدة من هناك بطريقة معقدة على طول الطريق الجنوبى من الصحراء الى حوض نهر النيجر (١) . الا أن معظم اقران الأستاذ « ميردوك »



السلالات فى افريقيا من عام ٣٠٠ بعد الميلاد (الهجرات)

(١) أنظر : Murdock, op. cit. pp. 207-211 .

يردون بأن هذا الوجود الاندونيسى ربما كان فى الفترة ما بين ٦٠٠ و ٩٠٠م، وفى مدغشقر وليس فى شرقى القارة ، ويرون أيضا أنه ربما كان من السهل ادخال أى محصول جديد بواسطة طرق التجارة المشهورة حينئذ من الهند والبحر المتوسط ، وأن هذه الأغذية الجديدة لم تكن ضرورية ليمكن ولوج الغابة المطيرة .

ولقد انتشرت معرفة صناعة الحديد وربما المحصولات الجديدة عند البانتو (١) الذين عاشوا حياة أقرب ما تكون الى حياة الغابة فى مرتفعات الكميرون ، وكان دخول هذه المهارة الجديدة وحدها ، أو بالاشتراك مع المحصولات الجديدة ، من الأسباب الأولى فى الانفجار السكانى عند قبائل البانتو على نطاق غير مألوف ، واستطاع الزنوج فى الشمال والغرب أن يستفيدوا من الأرض التى كانت تحت أيديهم بمعدل أكبر . الا أن قبائل البانتو اندفعت فى البداية نحو الغابة المطيرة التى يحتمل أنه لم تكن تسكنها فى ذلك الوقت سوى أعداد متفرقة من الصيادين الأقزام ، وأن الانفجار السكانى ليس من الأمور المعتادة — الا أنه يبدو أن الصين القديمة ، وأوربا الحديثة ، وكذلك البانتو فى العصر المسيحى ، قد خضعت كلها لهذه الظاهرة — ومن الصعب تحديد الأسباب التى أدت الى ذلك ، ولكن ربما نهضت حالة البانتو كدليل يصلح لشرح هذه الظاهرة فى كل الحالات الأخرى .

ويبدو أن انفجارا سكانيا مشابها — وان كان أقل فى الدرجة — قد اتى من شبه الجزيرة العربية عابرا اثيوبيا الى حدود مملكة مرو فى القرون السابقة مباشرة لميلاد المسيح ، وقد اخترق أهل سبأ الذين يتكلمون السامية من اليمن الى مرتفعات الحبشة ، واضطر الكوشيون الأفروآسيويون — الذين كانوا مقيمين هناك أن ينتشروا فى شرق أفريقيا ، وربما أقام بعضهم بعيدا الى الجنوب حتى موزمبيق . ويحتمل أن كلا من الكوشيين وأهل سبأ قد تعلموا فن صهر الحديد فى أثناء تلك الفترة — ربما من مملكة مرو التى كانت فى طريقها الى الاضمحلال ، كما يحتمل أن يكونوا قد استخدموا آلات حديدية لقطع أحجارهم المعروفة .

لقد كان انتشار البانتو وليس الكوشيين هو العامل الأكبر فى ايجاد التغيير الكبير فى الجغرافيا البشرية لوسط وشرق وجنوب أفريقيا . ففى

(١) هى عناصر تتحدث بلغة البانتو، ولو انها تغلب عليها الصفات الزنجية، لكن جرى العرف على تمييزها باطلاق اسم المجموعة اللغوية عليها .

القرون المسيحية الأولى أوغل البانتو بعمق الى حوض الكنغو ليقوموا بالرعى والزراعة ، وحملوا معهم فن صناعة الحديد وأخضعوا فى طريقهم الأقزام الصيادين ، واستمر ضغطهم من مرتفعات الكميرون ، لبعض الوقت ، نحو الشرق ونحو الجنوب ، وكانت قبائل البانتو التى انتشرت فى هذين الاتجاهين تهزم وتطرد أمامها الأقزام ، وكانت قبائل البانتو هذه هى الأكثر تسليحا والأحسن حظا من ناحية التغذية ، فقد أقامت لنفسها نظما عسكرية وسياسية قوية . وحين اكتشفت طلائعهم المنتشرة الأرض الخصبة والمنبسطة فى منطقة البحيرات العظمى فيما بين عامى ٦٠٠ و ٩٠٠ بعد الميلاد ، كان نظامهم الاجتماعى قد تحسن بدرجة أكبر ، ونشأت جماعات مستقلة تتمتع بحكم ذاتى أرقى من زملائهم الذين تركوهم وراءهم فى الكميرون وفى الغابات المطيرة .

وبعد أن تركت هذه القبائل — المتحدثة بلغة البانتو — منطقة الغابات انطلقت بسرعة لتحتل منطقة السافانا المكتشفة حديثا . فعلى سبيل المثال نجد قبائل الباتونجا (السوزو الحديثين) (١) قد أوغلوا جنوبا فى القرن العاشر حتى وصلوا الى جنوبى روديسيا حيث حققوا درجة من الوحدة أكثر قوة من باقى قبائل البانتو المهاجرة ، كما تحركت مجموعات أخرى من البانتو ببطء أكثر تجاه مصب الكنغو وأنجولا .

وعلى هذا فقد انتشرت صناعة الحديد عبر الصحراء الأفريقية على مدى ١٢٠٠ سنة ، ما بين ٣٠٠ ق.م. بين الزنوج فى سافانا النيجر و ٩٠٠ م. بين بانتو الباتونجا فى جنوبى روديسيا ، لكن لا يرجع الفضل كله لهم . وقبل أن يصل الانتشار من الكميرون الى جنوب منطقة السافانا كانت بعض الشعوب التى تنطق بلغة خواسان قد تعلمت فن صناعة الحديد ورعى الماشية ، وربما من الجماعات الصغيرة من الكوشيين الذين قد يكونون أدخلوها معهم حتى حوض نهر الزمبيزى فى العصر المسيحى . ولقد اكتشف ديزموند كلارك (٢) مؤخرا أن البانتو قد وصلوا الى هذه المنطقة بعد أن بدأ أهل خواسان يعرفون صناعة الحديد بمدة تتراوح بين خمسمائة وثمانمائة سنة . لكن لم يكن هناك انتاج هام منه حتى استطاع البانتو ادخال بعض مهاراتهم فى تلك

(١) انظر Basil Davidson, Old Africa Rediscovered, London, 1960, p. 214.

(٢) J. Desmond Clark, the Prehistory of Southern Africa Harmondsworth, 1959, p. 283.

الصناعة . وقد واجه الكوشيون القوقازيون الذين علموا صناع الحديد الخواسيين — رءوس الحراب المتقدمة الصنع التى كان يستخدمها الباتونجا ، ويمكن أن نلمس النتائج الثقافية لذلك فى تاريخ شرق أفريقيا بعد القرن العاشر .

وفى جميع الأحوال ، فانه يمكن القول بأن احتلال البانتو لمنطقة جنوب وشرق أفريقيا كان هو العامل الحاسم فى تطورها التاريخى . وقد أقام البانتو الذين استقروا على شواطىء مجموعة البحيرات العظمى ، فى مجتمعات منظمة واستوعبوا مؤثرات الكوشية تدريجيا . واستمر بعض هؤلاء فى التوغل من البحيرات نحو الشاطىء الشرقى محتلين بعض أجزاء من « تنجانيقا » وكينيا فى الفترة ما بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ ق.م. ، وفى طريقهم اصطدموا بالبوشمن الذين انتهى وجودهم : اما بالذوبان ضمن هذا المد من البانتو ، واما بنقص عددهم ، فصاروا توابع لهم تماما ، كما حدث مع الأقزام فى الغابات المطيرة .

وأما الموجة الثالثة من البانتو فقد جابهت — وهى فى طريقها نحو الجنوب على طول ساحل الأطلنطى — الغابات الجافة ثم قبائل البوشمن . وكانت قبائل البانتو المستقرة قرب مصب نهر الكنغو أقوياء فى القرن الخامس عشر ، وكانت لهم صلات وثيقة بالبرتغال ، فى حين كانت فروعهم التى استمرت فى الاندفاع نحو الجنوب الى أرض البوشمن تواجه أرضا قاحلة .

وقد نشأت عن هذه الاتصالات الأخيرة بين البانتو وغيرهم ظاهرتان حيرتا الباحثين ، ومصدر هذه الحيرة هو وجود شعوب تتكلم « لغة خواسان » مثل البوشمن .. ولكنها تختلف فى مظهرها الجسمانى . ففئة من هذه الشعوب تتكون من مجموعة من الزنوج المستقرين الذين يشتغلون بالزراعة ويحتمل أنهم انحدروا من البانتو المحاربين نتيجة الاختلاط الجنسى بنساء البوشمن . أما الظاهرة الأخرى فكانت من الهتنتوت الذين كان يعتقد أنهم خليط من الكوشيين الاثيوبيين والبوشمن فى كينيا (١) . لكن المعتقد فى الوقت الراهن أنهم نوع من البوشمن تعلموا رعى الماشية من البانتو ، وعلى ذلك أمكنهم أن يحسنوا نوع غذائهم فصاروا أكبر حجما من البوشمن العاديين (٢) .

---

(١) انظر : C. Meinhof, Der Sprachen der Hamiten, Hamburg, 1912 : Isaac Schapera, The Koisan Peoles of South Africa, London, 1930.

(٢) كذلك انظر تعليقات : Murdock, op. cit., pp. 52-53, 56-57 . Greenberg, op. cit., pp. 80-87 .

لقد درج الأوربيون على الاعتقاد بأن المجتمعات الأفريقية كافة تأخذ بنوع واحد متشابه من التنظيم الاجتماعى والسياسى ، الا أن البحوث الحديثة قد كشفت النقاب عن اختلافات بينة فى التكوين القبلى الأفريقى . ولربما كان صحيحا أن القبائل فى فترة ما قبل التاريخ كانت تسير على نمط واحد باحترام النظام الأموى (Matrilineal) عن النظام الأبوى (Patrineal) .

لكن التحول عن تقاليد النظام الأموى الى النظام المعقد المتبع فى الوقت الراهن يرجع الى المؤثرات العسكرية والزراعية على مدى الـ ٤٠٠٠ سنة الأخيرة ، فعلى سبيل المثال نجد أن النظام الأموى يرتبط بالقوقازيين ، وكذلك بالزنوج الذين انتشروا — كما انتشر البانتو الجنوبيون — بشكل شبه عسكرى ، كما يرتبط بمن كان نظام حياتهم الاقتصادى قائما على الزراعة المستقرة والتجارة مثل القبائل الكبرى فى غرب أفريقيا فى منطقة السافانا . أما النظام الأموى فقد استمر شائعا بين من تبقى من سكان الصحراء وبين زنوج الغابة الاستوائية فى غرب القارة ، وكذلك بين قبائل البانتو فى الغابات الجافة فى أواسط افريقيا . وسواء أكان قد جرى تتبع سليم من الناحية النظرية لتحولهم أم لا ، فان الاختلافات فى النظم الاجتماعية — فى أفريقيا كما فى أوربا — من المحتمل أن تكون عشوائية ومحلية أكثر منها شاملة وثابتة .

وهناك بعض التخمينات والنظريات المتضاربة فى تغير الهيكل الجغرافى البشرى لأفريقيا فى عصور ما قبل التاريخ ، الا أنه على أى من الأحوال فان التأمل فى الاعتبارات الرئيسية التى أوردناها فى هذا الفصل لا شك سيزيد من عمق ادراكنا لتاريخ أفريقيا فى هذا المجال .

الجزء الأول

أفريقيا القديمة

٣

القبائل والإمبراطوريات الأفريقية

كان الاتصال المبكر بين الزنوج المشتغلين بالزراعة فى غرب القارة والقوقازيين الذين عرفوا صناعة الحديد من أهل مصر وشمال أفريقيا ، بداية لمرحلة طويلة من التبادل الثقافى والتجارى بين المنطقتين . وكانت كل من قرطاجة والجمهورية الرومانية تهتم بالمتاجرة مع الزنوج ، فقد كانت البضائع كالعاج والذهب وبعض الرقيق تتجه نحو الشمال ، فى حين يأتى الزجاج والملح ، وربما النبيذ والقمح ، من المنطقة المطلة على البحر المتوسط متجهة نحو الجنوب .

أما المواصلات عبر الصحراء فقد كانت صعبة دائما ، وخصوصا بعد أن تعذر استخدام الخيول ، الا أن التدرج فى استخدام الجمال للنقل والانتقال فى بداية العصر المسيحى كان أحد العوامل المنشطة للتجارة فى تلك المنطقة ، كما ساعد ذلك على هجرة بعض البربر من الشمال الى جنوبى الصحراء .

وكان الملح من المواد النادرة فى منطقة السودان الغربى فيما بين الصحراء الكبرى والغابة المطيرة ، وكان تقهقر الصحراء التدريجى سببا فى دفع الزنوج السودانيين بعيدا عن مصادر الملح الذى كانوا يحتاجون اليه باعتباره مادة هامة فى حفظ الأطعمة وتخزينها ، وفى حفظ الكثير من الأشياء .

ولم يكن الحصول على الملح فى جنوب الصحراء ميسورا الا بعمل شاق يتمثل فى تقطير الحشائش ، أو بنقله خلال الغابات المطيرة من الشواطىء المدارية للمحيط الأطلنطى الجنوبى . ولأنه كان ذا أهمية كبرى لدى الزنوج فقد تولى البربر مهمة انشاء الملاحات فى شمال الصحراء الوسطى ، وأصبح سلعة أساسية يبادلونها بالذهب والعبيد الذين كانوا يستخدمونهم بالتالى فى تصنيع المزيد من الملح .

وكان الاعتماد بعد ذلك ، على جمال البربر فى نقل البضائع ، سببا فى تعليم الزنوج المشتغلين بالزراعة فى السودان فن التجارة ، وفى توصلهم

الى نوع من التنظيم السياسى ، وكانت نقطة تلاقى البربر والزنوج هى نهر النيجر بطوله فى الطرف الجنوبى من الصحراء ، حيث كان البربر يعملون فى نقل الملح .

وكان النيجر فى ذلك الحين بمثابة شريان حيوى للاتصال ، يمتد من الشرق الى الغرب بالنسبة لمنطقة السودان ، كما كان موصلا من الشمال الى الجنوب — الى مناجم الذهب (التى يحتمل أنها كانت قرب منبع النهر فى موضع غينيا الفرنسية الحالى) ، والى مستهلكى الملح على طول النهر الممتد من غينيا الى نيجيريا . ومن المعتقد أن من بين الذين أسهموا فى تلك التجارة فئات من تجار اليهود فى قرطاجة الرومانية ومدينة قورينة الاغريقية ، ممن طردوا عبر الصحراء عقب نشوب احدى الثورات فى القرن الثانى الميلادى ، حيث أقاموا على طول نهرى النيجر والسنغال .

وقد ذكر بعض الرحالة من تجار العرب فى القرن العاشر أنهم سمعوا من بعض الرواة السودانيين : « أن بعض البيض كانوا يحكمون وادى نهر النيجر فى الفترة ما بين القرنين الخامس والثامن ، وبعد ذلك أتى حاكم من قبيلة الماندى أو الماندنجو يدعى سونينكى فأسس أسرة حاكمة زنجية » . وسواء صحت تلك الرواية أم لا فانه من الواضح أنه فى الفترة ما بين القرن الثانى والقرن الخامس — أصبح من الضرورى ايجاد نوع من التنظيم الادارى والتمركز التجارى فى تلك المنطقة ، عندما بدأت قبائل الماندى تعمل فى التجارة عن طريق قوافل الابل متبادلة الملح بالذهب .

وليس هناك من يدعى أنه يعرف لغة هذه الدولة السودانية — والتى كان يطلق عليها حينئذ اسم غانا — لكن علماء الآثار اكتشفوا أن هناك مدنا كانت تعتمد فى حياتها على التجارة الواسعة ، وتدل الوثائق التى أمكن العثور عليها ، على وجود نظام ملكى قوى كان يتبعه نظام لادارة الضرائب ومقار لاقامة التجار البربر والرعايا الزنوج . ولقد استطاعت حكومة غانا أن تستولى على ادارة مناجم الملح الواقعة فى منتصف الصحراء ، فى حين بقيت مناجم الذهب على مشارف حدودها الجنوبية فى يد القبائل الأخرى .

ولقد سيطر المزارعون السودانيون على مفارق الطرق ، فى حين أدار البربر « مراجل » اعداد الملح وقوافل الابل . وكانوا يطلقون على الطريقة التى يتم بها تبادل الذهب بالملح اسم « التجارة الصامتة » ، حيث كان رجال القبائل المشتغلون بمناجم الذهب يتركونه (خاما) على حافة

غرب افريقيا قبل انتشار الإسلام (القرن السابع)

النهر ، ثم يعودون بعد ذلك حيث يكون التجار الغانيون قد كدسوا كميات الملح بجانب الذهب ، فيأخذون الملح ، أو يدعون الاثنين ، الملح والذهب ، اذا تراءى لهم أن كمية الملح لا تكافىء ما قدموه من ذهب .

ولقد وفدت الى أفريقيا من ناحية الشرق شعوب من القوقازيين ينطقون اللغة السامية قادمين من جنوب شبه الجزيرة العربية ومن مملكة سبأ . وكان كثير من التجار والمهاجرين يعبرون البحر الأحمر بصفة مستمرة متجهين الى مرتفعات الحبشة فى الألف الأولى قبل الميلاد ، ثم انتقلت حكومة سبأ وقامت فى القرن الرابع الميلادى مملكة اكسيوم

أو أثيوبيا . كذلك انتشر اليهود — الذين تشتتوا فى مختلف أنحاء العالم — والمتحدثون بالسامية فى أنحاء القارة ، الا أن وجودهم ظهر فى مصر بصورة أكبر ، وكانوا يميلون الى الأخذ بالحضارة الهيلينية .

وقبل أن يحل القرن الرابع صارت المسيحية هى العقيدة الغالبة فى شمال أفريقيا وحوض النيل الأدنى ، كما فى كل أنحاء الامبراطورية الرومانية ، وكانت قد اكتسبت مركزا قويا حول قرطاجة القديمة ، فى حين انتشرت الديانة القبطية الأرثوذكسية فى مصر ، ومنها انتشرت الى أعالى النيل ، لتصبح هى العقيدة الغالبة فى مملكة مرو — التى أطلق عليها المسيحيون اسم النوبة ، وكذلك الحال فى أكسيوم . وكانت هذه الديانة الجديدة قادمة من فلسطين والشرق أساسا ، ولكن الذين اعتنقوا الديانة المسيحية فى أفريقيا كانوا من أهلها الأصليين ولم يكونوا وافدين من خارجها . كما أن بعض البربر الذين يعملون بقيادة الابل والتجارة فى الصحراء كانوا قد اعتنقوا المسيحية ، ولجأ بعضهم الى الصحراء التى اختاروا المقام فيها ليتمكنوا من ممارسة شعائر دينهم . لذلك يمكن القول بأن المسيحية انتشرت فى شرق القارة فى حين لم يتيسر لها النفاذ الى الغرب عبر الصحراء ، ويعتقد البعض أن البربر من غير المسيحيين قد أدخلوا المعتقدات الدينية القرطاجية فى مملكة غانا الزنجية (١) .

وفى مستهل القرن السابع كانت المسيحية ذات أثر ملموس فى كل أفريقيا ، شمال الغابات المطيرة ، فيما عدا غانا ووادى نهر النيجر ومنابع النيل ، وكانت الحبشة تشتهر بأنها المنطقة الوحيدة التى اعتنق أهلها الدين المسيحى وتمسكوا به بشكل واضح .

وظهر الاسلام الذى جاء به النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى شبه الجزيرة العربية ، وأخذ ينتشر حتى احتل مركزا عاليا لا يزال يحتفظ به شمال الغابات المطيرة ، وفقدت المسيحية بالتالى معظم مواقعها الأولى ، ولم تظهر مرة ثانية فى أفريقيا الى أن بدأ الأوربيون فى نشرها ثانية بعد انقضاء ألف سنة .

---

(١) انظر بصفة خاصة :
Eva L.R. Meyerowitz, The Akan of Ghana, London, 1958 ;
وكذلك Basil Davidson, Old Africa Rediscovered, London, 1960, pp. 68-70 ; and Maurice Delafosse, Haute-Senegal-Niger, 3 vols., Paris, 1912.

ولقد قاد النبى محمد صلى الله عليه وسلم أتباعه من مكة التى آذتهم الى المدينة التى ناصرتهم ، وكان ذلك عام ٦٢٢م وهذه هى الهجرة التى يتخذها المسلمون ومعظم الأفريقيين فى مناطق السافانا والصحراء اليوم بدءا للتقويم العربى .

ولقد توفى النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى أواخر السنة العاشرة من الهجرة ، اى فى يونيو عام ٦٣٢م تاركا كتابا مقدسا هو القرآن الكريم يحتوى تعاليم دينية واجتماعية وسياسية مكنت العرب الرحل لأول مرة من أن يأخذوا بالتنظيم المبنى على أساس من عقيدة عالية . وليس على أساس مجموعات منقسمة ترتبط كل منها برابطة الدم ، وصارت هذه القبائل المنقسمة أمة واحدة تحت لواء تشريع عقائدى فى صحراء شبه الجزيرة العربية — لكن استلزم الأمر عدة شهور لفرض الوحدة على شبه الجزيرة العربية .

وبمجرد أن شعر هؤلاء البدو بوجود تنظيم يجمع بينهم ، تولدت لديهم الرغبة فى نشر عقيدتهم الى منطقة الهلال الخصيب . وفى يوم الأحد « يوم عيد الفصح » من عام ٦٣٤م — وبعد مرور أقل من سنتين على وفاة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، أمكن لهؤلاء البدو الفاتحين أن يهزموا البيزنطيين المسيحيين ويحاصروا دمشق ، ثم سقطت فى أيديهم معظم منطقة الهلال الخصيب الممتدة من فلسطين الى بلاد الفرس فى مدة لم تتجاوز ثلاث سنوات ، ومرت جيوش الخليفة عمر بن الخطاب عبر برزخ السويس لتعبر النيل بالقرب من القاهرة فى ربيع عام ٦٤٠م ، وبعد أربع سنوات أخرى كانت أفريقيا من مصر الى قرطاجة تدفع الجزية لهؤلاء العرب .

ولكن المسيحيين ظلوا مسيطرين على النوبة فى منتصف وادى النيل ، وكذلك على أرض البربر غربى قرطاجة ، الا أن الهجمات البيزنطية المضادة والنزاع الداخلى على الخلافة بعد وفاة عمر تحالف بعضها مع بعض لتمنع المزيد من التوسع الاسلامى على مدى جيل آخر ، لكن العرب تمكنوا فى الفترة من ٦٧٠ — ٦٨٣م من اخماد تمرد قرطاجة وطردوا البيزنطيين من المنطقة التى تعرف الآن باسم الجزائر ، وبذلك وصلوا الى المحيط الأطلنطى . ولكن القلاقل التى تسبب فيها البربر دفعت العرب الى التقهقر الى مصر ، ثم عادت الجيوش العربية مرة أخرى لتحتل المنطقة احتلالا دائما بعد مرور ربع قرن من الزمان .

وتمكن العرب من قهر البربر المتمردين ، مما شجع جيوشهم بقيادة طارق بن زياد على الاندفاع الى أوربا عام ٧١١م الذى سمى المضيق الذى يمر منه الجبل الذى يشرف على هذا المضيق باسمه ، واحتلوا اسبانيا ، ثم غزوا فرنسا ، ولم يمكن وقف زحفهم شمالا الا بعد ٢١ سنة . ولقد تمكن المور (وهم خليط من العرب والبربر) من تثبيت مواقعهم فى جنوب جبال البرانس ، وكانت اسبانيا المسلمة تعتبر فى المبدأ موقعا متقدما للخليفة العربى المقيم فى دمشق .

ولكن ما ان حل عام ٧٥٧م حتى صارت اسبانيا من الناحية الفعلية دولة مستقلة تحت حكم أسرة حاكمة أخرى .

ولقد اتسمت الـ ٣٥٠ سنة التالية بالمنازعات الدائمة بين أفراد الأسرة المالكة . وتزايد الشقاق بين العرب والبربر والاسبان المسلمين — كل يود أن يحظى لنفسه بأكبر قدر من مزايا الحكم . وتوقف المد الاسلامى ، وتزايد الاستقلال المحلى فى كل منطقة من العالم الاسلامى عامة بما فى ذلك أفريقيا — ففى كل مكان غربى السويس كانت توجد فئة صغيرة من الفرسان العرب تحكم عن طريق جهاز من أهل البلاد الذين اعتنقوا الاسلام . ولم تكن الثقة متوافرة بين هؤلاء الفرسان والجهاز الذى يحكمون عن طريقه . ولم يكن هناك تشابه يجمع بين الرعية ؛ اذ لم يكونوا قد اعتنقوا الاسلام عن اقتناع تام .

واندلعت الحروب التى كانت سببا فى اتلاف نظم الرى والزراعة ، وعريت الغابات من أشجارها التى استهلكت فى بناء السفن للحرب أو للقرصنة . وصارت الأراضى الخصبة صحراء قاحلة لسوء استخدامها ، وأمكن للبربر أن يستولوا على السلطة بعض الوقت ، الا أن الخليفة الفاطمى فى القرن الحادى عشر تمكن من أن يبعث بجيش قوامه ٢٠٠,٠٠٠ غاز من الهلاليين توجهوا من شبه الجزيرة العربية الى شمال أفريقيا ، وكان هؤلاء الهلاليون هم الموجة الأولى من الناطقين بالسامية الذين سكنوا تلك الأصقاع ، والذين استطاعوا أن يطردوا البربر من المناطق الساحلية ويسيطروا على مجتمع شمال أفريقيا ، وحولوا الاسلام هناك من اعتباره عقيدة للحاكمين الى عقيدة للجماهير كافة .

وترتبت على ذلك نتيجتان بالنسبة لأفريقيا ؛ فقد صارت المنطقة

التى تمثلها الآن ليبيا وتونس اقل خصبا من ذى قبل ، مما دعا كثيرين من عابرى الصحراء أن يبحثوا عن طرق أخرى جديدة لم يلحقها الدمار فى أقصى الغرب فيما يسمى الآن بالمغرب . كما أن بعضا من البربر فضلوا الهجرة عبر الصحراء ليقيموا الى جانب شاطىء الأطلنطى غرب امبراطورية غانا على قبول السيطرة العربية وتعاليم الاسلام التى رأوا فيها قيدا على حرياتهم . وقد أطلق هؤلاء البربر اسم قبيلتهم « صنهاجة » أو « السنغال » على النهر الذى كانوا يعيشون على امتداده ، ولكنهم كانوا مسلمين اسما ولم يستمسكوا بالاسلام كعقيدة .

وبين الحين والحين كان بعض حكام البربر يؤدى فريضة الحج الى مكة . ومما يذكر أنه فى بداية القرن الحادى عشر قام أحد شيوخهم ، ويسمى يحيى ، بأداء تلك الفريضة ، وعند عودته تأثر بأحد علماء الدين المسلمين ، يدعى ابن ياسين ، فأحضره معه . لكن أتباع يحيى لم يكونوا على نفس القدر من الحماسة الدينية ، فطردوا ابن ياسين هذا وأتباعه الى جزيرة فى نهر السنغال ، فأطلق على هؤلاء المطرودين المعزولين اسم « المرابطين » ، فاستحوذوا على حب الناس لهم حتى المرتدين عن دين الاسلام ، ثم عادوا بعد ذلك ليحكموا دولة صنهاجة . وفى عام ١٠٤٢م بدأت تظهر بينهم الدعوة للجهاد لتنقية الاسلام مما دخل عليه من الشوائب والبدع .

وقد تمكن المرابطون أتباع ابن ياسين من اخضاع بربر الصحراء ، الذين لم تكن عقيدتهم الاسلامية قد رسخت ، وضمهم تحت لواء ابن ياسين ، وهاجموا معا الوثنيين وزنوج غانا عام ١٠٥٤م ، كما استطاعوا أن يضموا اليهم خلافة المغرب بعد ذلك بثلاث سنوات .

أما فى اسبانيا فان تنظيم رجال العصابات المسيحيين كان قد اخذ فى التحسن ، كما أن استمرار الشقاق بين حكام المسلمين كان أحد الأسباب التى دعت الوالى (يوسف) الذى خلف ابن ياسين فى قيادة المرابطين — أن يستخدم جيشه القوى لاقرار النظام فى اسبانيا . وبذلك عادت الوحدة الى صفوف المسلمين الاسبان بعد أن أمكنهم انزال هزيمة ساحقة بالمسيحيين عام ١٠٨٦م ، مما مكن ليوسف أن يستولى على السلطة المطلقة فى المنطقة كلها من شمال اسبانيا حتى

الغابات المطرية الأفريقية . ولم يكن من السهل ادارة مثل هذه الامبراطورية الشاسعة التى لم يكن يجمع بينها أى نوع من الانسجام ، وسرعان ما استقل المرابطون الذين هاجموا غانا وسقطت فى أيديهم عام ١٠٧٦م وانفصلوا عن جيوش يوسف فى الشمال .

ولم يستمر نفوذ المرابطين الا فترة وجيزة ، شأنهم فى ذلك شأن اصلاحات « ابن ياسين » . لكن حدثت تطورات كثيرة ، فقد اتحد المسيحيون الاسبان للدفاع عن أنفسهم لأول مرة ، ثم تحول الوضع من الدفاع الى الهجوم ، ومنذ ذلك الوقت فقدت غانا مجدها السياسى والاقتصادى ولم تستعده بعد ذلك ، فقد حلت المنازعات القبلية محل الحكم المركزى ، وتعددت مظاهر الاستقلال المحلى فى المناطق الواقعة جنوبى الصحراء ، وسادت هذه النزعة وتغلبت على المصلحة الوطنية ، واستمرت امبراطورية غانا حتى القرن الثالث عشر ، ولكن لم يتسن لها أن تبلغ ما كانت قد بلغته من عظمة سابقة .

وأصبح الاسلام هو العقيدة المعلنة لغانا وللدول الزنجية الأخرى فى منطقة السودان الغربى ، لكن فضل كثيرون من أهل المنطقة أن يهاجروا على أن يقبلوا العقيدة الجديدة . وكان من بين هؤلاء قبائل الفولانى رعاة القطعان الذين اتجهوا شرقا نحو ما يسمى الآن بشمال نيجيريا ، ويحتمل أن يكون بعض آخر قد أصبح هو الطبقة الحاكمة فى قبائل الآكان على حافة الصحراء .

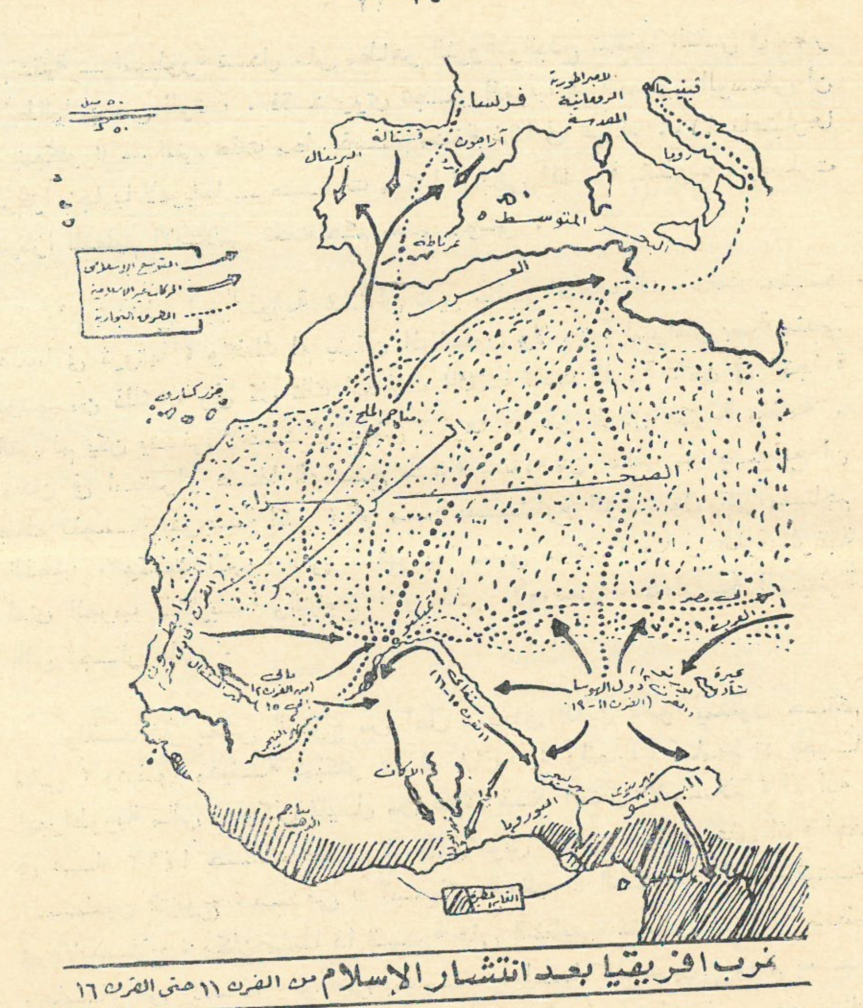
وفى بداية القرن الثالث عشر أمكن لبعض القبائل الغازية السيطرة على كل أو بعض الأجزاء من مملكة غانا لفترات وجيزة ، الا أن أشد المسلمين تمسكا بدينهم — وهم زنوج مالى — أمكنهم السيطرة الكاملة على المنطقة بعد عام ١٢٣٥ ، وعاد للمنطقة الاستقرار السياسى والازدهار التجارى الذى كان يعتمد على التجارة عبر الصحراء يتبادل الذهب والملح ، وظلت امبراطورية مالى متباعدة عن المحيط الأطلنطى لبعض الوقت تحتل الطرف الغربى لنيجيريا الحالية . وكانت هذه الامبراطورية معروفة جيدا للأوروبيين فى القرن الرابع عشر ، ولربما كان ازدهار امبراطورية مالى أنشط وأكثر الفترات اشراقا فى تاريخ أفريقيا قبل مجىء الأوروبيين . ولقد خلقت رحلة حاكم مالى ، الشيخ منسى موسى ، الذى سافر الى مكة عام ١٣٢٤م عن طريق مصر — كما يروى تجار

البندقية — أسطورة تدل على مظاهر الثروة والبذخ تناقلها الناس فى مصر وايطاليا لبعض الوقت . فقد روى تجار العرب فى العصور الوسطى أن « تمبكتو » — التى حلت محل خيام مدينة غانا فى عام ١١٠٠ باعتبارها مركزا تجاريا لأفريقيا — صارت مركزا للمبانى المشيدة بالطوب ، وصارت مركزا للتعليم الاسلامى تحت حكم منسى موسى .

ولم تستطع امبراطورية غانا أن تدير مناجم الذهب التى كانت تعتمد عليها فى ثروتها ، وكذلك لم يتمكن المرابطون ولا حتى امبراطورية منسى موسى من ذلك . وفى كل تلك الحالات الثلاث كانت الثروة تكمن فى التجارة التى لم يكن يتسنى لأحد أن يجنى ثمارها الا عن طريق حكومة منظمة . وكان فى استمرار هذا الوضع مدعاة للغزو من جانب من يستطيع أن ينظم نفسه بدرجة أكبر ، أو من يستطيع الوصول الى مناجم الذهب . وكانت الثروة التى اشتهر بها منسى موسى سببا فى اثارة الرغبة لدى العرب المغاربة والزنوج ، وبالتالى الأوربيين ، لمحاولة السيطرة على تجار مالى .

ولقد ثار بعض الزنوج من أهل سنغاى الذين كانوا يمقتون حاكم مالى ، ودخلوا مدينة تمبكتو عام ١٤٦٨ ، وانهارت أمامهم تدريجيا امبراطورية مالى . وكان قليل من هؤلاء قد اعتنق الاسلام ، الا أنه فى عام ١٤٩٢ حدث انقلاب اسلامى تولى عرش سنغاى على أثره أحد المسلمين الزنوج ، يدعى « آسكى العظيم » الذى اشتهر برغبته فى الاصلاح ، وكان مثقفا ذا قدرة على التنظيم ، فتمكن من اعادة معظم رعاياه الى الاسلام ، وحظى بمساندة علماء المسلمين ، وقام بعدة حركات بهدف احياء تعاليم الدين الصحيحة . وسقطت فى يده معظم مالى وأرض الهوسا ، ولكن — كما حدث مع المرابطين تماما — ما لبثت جذوة الاصلاح أن خبت وتحولت الى منازعات وشقاقات للاستيلاء على السلطة ، مما كانت نتيجة أن عادت كل من الهوسا ومالى الى الظهور مرة أخرى فى شكل امبراطوريات ضعيفة فى القرن السادس عشر . ورغم أن هذه القلاقل لم تؤثر فى الازدهار الاقتصادى لمنطقة السودان الا أن قوتها السابقة قد اختفت عندما بدأ الأوربيون فى استكشاف الشاطىء الغربى من القارة .

وتزايدت المطامع فى شمال الصحراء فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وكانت الغزوة الوحيدة عبر الصحراء منذ توسع



غرب افريقيا بعد انتشار الإسلام من القرن ١١ حتى القرن ١٦

المرابطين هى غزوة اهل المغرب فى القرن السادس عشر . فقد استطاع المنصور ، بعد تمكنه من سحق غزوة برتغالية ، ان يجمع شتات اتباعه ويرسل حملة ضخمة للاستيلاء على مناجم الذهب جنوب الصحراء ، ويبدو انه — من موقعه فى الطرف الشمالى على الطريق التجارى الصحراوى الطويل — لم يكن على علم بأن تلك المناجم كانت وراء الطرف الجنوبى لمنطقة الحضارة السودانية . وجهز لهذا الغرض كميات ضخمة من القماش لصنع الخيام وعددا من البنادق تبرعت بها لجيوشه اليصابات ملكة انجلترا التى كانت ترغب فى الاسهام فى تسليح صديقها المنصور الذى يعيش بالقرب من أعدائها فى اسبانيا .

واستطاع المنصور أن يسيطر على مناجم ملح سنغاى شمال الصحراء ،

وفى عام ١٥٩٠ أرسل جيشا عبر الصحراء يقوده خصى أسبانى يدعى جودار Judar . وقد هلك ثلاثة أرباع هذا الجيش من العطش فى مسيرة امتدت خمسة أشهر دخلوا بعدها مدينة تمبكتو . وتم لهم الاستيلاء على امبراطورية سنغاى بعد سلسلة من المعارك الضارية . ولهذا نال جودار رتبة الباشوية أو أمير السودان ، لكن رغم هذه الانتصارات لم يتمكن المغاربة من التقدم لأكثر من حوض نهر النيجر ، ولم يستطيعوا بلوغ مناجم الذهب .

ولقد تسببت هذه الغزوات فى افلاس خزائن المنصور ، وأيقن أن السودان كان منطقة فقيرة ، بل ان التجارة أصابها الكساد ، واتضح له أن التجارة من خلال الأوربيين — الذين كانوا قد وصلوا الى ساحل غينيا — اسهل من ان يتولى هو أمر الطريق الصحراوى فى غمار تلك القلاقل . وقد أصيب المنصور بخيبة الأمل ؛ ففضلا عن النفقات التى تكبدها كان عليه ايضا أن يواجه التمرد فى الداخل وفى سنغاى ، كما كانت تساوره الشكوك فى اخلاص القائد الاسبانى ، وانتهى به الأمر الى أن عين قائدا غيره وصار يضطهد العاملين فى مدارس ومكتبات تمبكتو حتى اتسم حكمه بالقهر والفوضى .

ولقد خلقت الثورات التى نشبت على مشارف هذه المنطقة المحتلة عددا من الدويلات المتناحرة التى تضمر كل منها الانتقام من الأخرى ، وتأخذ بالنعرة القبلية . وتخلت المغرب عن هذا المشروع نهائيا فى عام ١٦١٨ ليتولى كل واحد من « الباشوات » المرفهين حكم منطقة مستقلة . وكان هؤلاء الباشوات ، الذين نصبوا انفسهم ولاة ، يحكمون لفترة ثم ينتهى حكمهم بتتابع لا يعرف نظاما محددا . وانهارت التجارة والزراعة ، وأضحت المدن الواقعة على نهر النيجر الأوسط خرابا بعد ازدهار ، وابتلعتها الصحراء حتى أطلق عليها اسم « أشباح العواصم » للطغاة المحليين الحاكمين . واضمحلت الأرستقراطية الحاكمة من المور المسلمين فى تمبكتو تدريجيا ، واختلطت دماؤهم مع أهل البلاد الأصليين ، وانتهى الأمر الى أن أطاح بها الزنوج عام ١٧٨٠ .

وجاء دور البرتغال لتكون ثالث الغزاة لمنطقة السودان ، وقد كانت البرتغال احدى الممالك المسيحية الصغيرة فى الشمال بأوربا . وكانت البرتغال فى الأصل جزءا من قشتالة ، احدى الممالك المسيحية فى شمال اسبانيا . وبعد الكفاح ضد الاسلام ، وبعد الغزو المسيحى

و[illegible]يار دولة المرابطين فى القرن الثانى عشر ، منحت البرتغال للنبلاء
الفرنسيين الذين اشتركوا فى الحرب الصليبية الاسبانية ، لكنهم تحدوا
سادتهم القشتاليين وأنشأوا دولة ملكية مستقلة بمساعدة انجلترا
وطردوا المسلمين من بلادهم ، تم ذلك قبل أن تستطيع قشتالة نفسها أن
تحرر بلادها منهم بمائتى عام . وكانت الخطوة المنطقية التالية هى أن
يمدوا الحرب الصليبية الى المسلمين فى أفريقيا التى استحوذت على
اهتمامهم ، وانتهى الأمر بهجومهم على مدينة سبته فى المغرب عام ١٤١٥م .
ولم يكن الوازع الدينى لديهم بأكثر أهمية من رغبتهم فى السيطرة على
تجارة ذهب السودان . الا أن قبضة المغاربة على تلك التجارة كانت
قوية فأجبروا البرتغاليين على التراجع بعد صمودهم فى حصار استمر
ثلاث سنوات .

وكان أحد قادة البرتغال الأمير هنرى أصغر أبناء ملك البرتغال ؛
وكان على دراية كبيرة بالجغرافيا وفن الملاحة التى استقاها من المكتبات
العربية فى المناطق التى استعادها البرتغاليون ذاتها وقشتالة ، وقد قرر
هذا الأمير — الذى لقب بالملاح والذى اشتهر بالخيال الواسع والجد
والثقافة — أن يتخطى كلا من شعب المور والصحراء الأفريقية الصعبة
الاجتياز ، وأن يصل الى مناجم الذهب بطريق آخر هو طريق البحر .
ويبدو أن هذه الفكرة ، وليست الرغبة فى الحصول على الرقيق
أو الوصول الى الهند — هى التى أوحت اليه بانشاء معهد للملاحة
فى ميناء ساجر Sagres (*) ، وأن يبعث بحملات على طول
الساحل الغربى للقارة .

ولقد لعبت المصادفة دورا كبيرا ، سواء فى طريقة الملاحة ذاتها
أو فى عدم دقة تحديد مواقع مناجم الذهب . لكن الصيادين البرتغاليين
كانوا يذهبون الى مدى لا يقل عن ١٥٠٠ ميل من بلادهم موغلين
فى الأطلنطى ، وكان للجغرافيين العرب فضل كبير فى اعطاء دلائل ذات
قيمه كبيرة عن الشاطىء الأفريقى الى الجنوب حتى سيراليون الواقعة
على الحافة الشمالية للغابات الاستوائية .

(*) انظر موقع هذا الميناء على الخريطة (صفحة ٤٠) .

وأبحرت السفن البرتغالية الأولى فى عام ١٤١٨ ، واشترت الشحنات
الأولى من الذهب الهام والرقيق من البربر فى منطقة أرجين (على ساحل
موريتانيا الحالية) فى عام ١٤٤٤ ووصلت بالفعل الى الغابات المطيرة
قبل أن يتوفى هنرى الملاح فى عام ١٤٦٠ .

وبدأت تجارة الرقيق المربحة تجتذب اليها للمرة الأولى اهتمام
أصحاب المصالح التجارية من الأوربيين ، لكن حركة الاستكشافات خمدت
لبعض الوقت لفقدان الأمير الملاح ، وربما أيضا لأن الغابات المطيرة
لم تكن تغرى بولوجها . وفى عام ١٤٧٠ نشطت حركة الكشف مرة أخرى
وأمكن النفاذ الى الغابة من خلال المنطقة — حيث تنمو أعشاب السافانا
ممتده حتى البحر — والتى تسمى غانا فى الوقت الحالى ، وتم عبور خط
الاستواء لأول مرة فى التاريخ الأوربى ، كما تم العثور على الذهب
وتبر الذهب بوفرة خلال هذا الممر الى الغابة . وبسبب ذلك سمى
الشاطىء فى تلك البقعة باسم « المينا » وسمى المنجم نفسه باسم
« ساحل الذهب » كما أنشئت مستوطنة تجارية سميت « المينا »
فى عام ١٤٨٢ .

ويبدو أن المستكشف كريستوفر كولومبس ، الجنوى الأصل ، الذى
اكتشف أمريكا فيما بعد ، قد زار هذه المستوطنة التجارية بعد سنة
أو سنتين من انشائها (١) . فقد كان يعمل لحساب البرتغال منذ
١٤٧٧ كصانع للخرائط ثم كضابط فى البحرية فاكتسب مهارة فى الرحلات
المحيطية ولم يفكر فى البحث عن المساندة لرحلته الشهيرة تجاه الغرب
الا فى ١٤٨٦ .

ولقد أثبتت المواصلات بطريق البحر حينئذ أنها وسيلة يمكن الاعتماد
عليها ، وأنها أكثر ملاءمة من السفر بطريق الصحراء ، وكان الأمر يتعلق
بعامل الزمن فحسب . كما أثبت ذلك المغاربة فى أيام المنصور بعد ذلك
بقرن من الزمان حين حققت التجارة الأفريقية فى نمطها وفى تقدمها ثورة

---

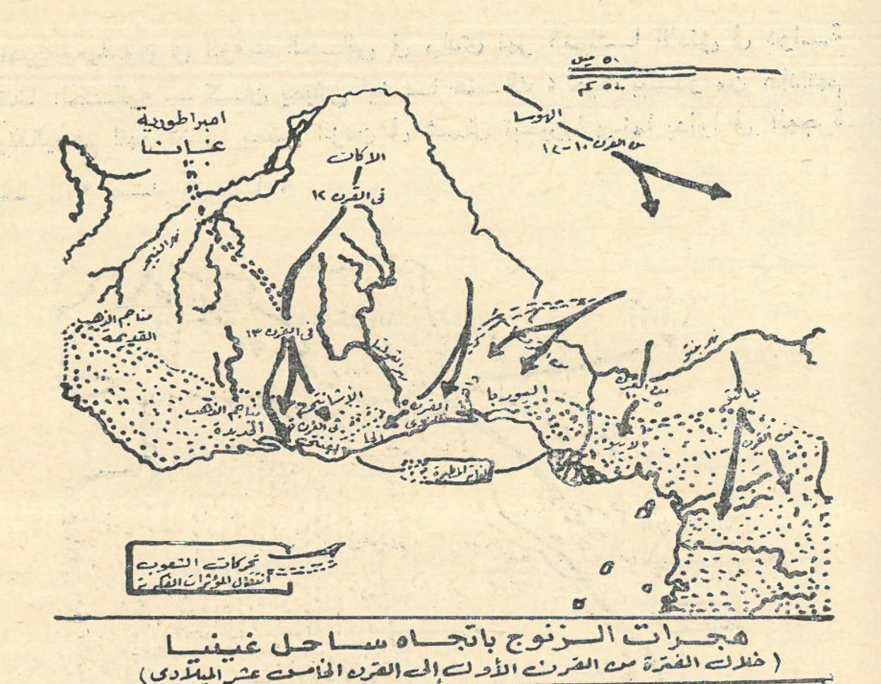
(١) لزيادة التحقق من هذه الأحداث ، انظر :
Samuel Eliot Morison, Admiral of the Ocean Sea, 2 vols., Boston, 1942, vol. 1, pp. 53-54, and p. 59, n. 23.

عميقة . ولم يكن الذهب الذى يستجلبه البرتغاليون يأتيهم عن طريق المصادر التى كانت تعتمد عليها غانا ومالى ، بل كان يأتيهم من مناجم جديدة فى الغابة المطيرة التى تقع خلف السافانا القريبة من الشاطىء ، ويبدو أن اكتشاف هذه المناجم ووصول الزنوج الى الساحل قد حدث قبل وصول البرتغاليين الى هناك ببضع سنوات .

ولقد شجعت الاضطرابات الدينية والسياسية فى السودان — ابتداء من القرن الحادى عشر فى عصر المرابطين الى وقت احتلال المغاربة لتلك المنطقة — بعض الزنوج من غير المسلمين أن يخرجوا عن نطاق الامبراطوريات القوية وينظموا أنفسهم عسكريا ، لا سيما ما حدث بين بعض القبائل فى غرب وجنوب وادى النيجر المزدهر . فقد ظهر تحالف قوى بين قبائل الأكان الموجودة فى جمهورية غانا الحالية ، لأن الزنوج من غير المسلمين بدأوا فى دخول الغابات بأعداد كبيرة حيث اكتشفوا الذهب وصاروا يقيمون على ساحل غينيا .

ان معلوماتنا عن التطور الذى حدث على هذا الشاطىء يعوزها كثير من الدراسة ، الا أنه يمكن افتراض اتجاهات عامة : منها أن الزنوج الذين كانوا يستخدمون الحديد بمهارة قد انتقلوا الى المنطقة الواقعة غرب دلتا النيجر منذ اكثر من ٢٠٠٠ سنة مضت ، فى نفس الوقت تقريبا الذى بدأ فيه الزنوج المتحدثون بلغة البانتو شرقى هذه الدلتا ينتشرون وينشئون عددا من المجتمعات المستقلة ، وقد عثر على أشكال بشرية مصغرة منحوتة باتقان حول منطقة « نوك » Nok جنوبى السافانا فيما بين ٩٠٠ ق . م . و ٢٠٠ م .

وتمثل حضارة النوك تحولا من استعمال الخشب والحجر الى استعمال الحديد فى غرب القارة . وقد كانت أفكار النوك هى طلائع أشكال الفن التى تحولت فيما بعد الى فن تشكيل الصلصال والبرونز فى وسط جنوب غرب نيجيريا ، وقد استطاعت حضارة « بنين » — التى تعتبر رافدا من حضارة النوك — أن تطور صناعة الحديد الى مستوى رفيع نحو ١٤٠٠ ميلادية . وقد استطاع فنانو « بنين » أن يشكلوا بعض التماثيل البشرية والدينية التى توحى برقة الحس والفن . أما المجتمعات الأخرى — وعلى الأخص مجتمع اليوروبا وأتباعهم من الداهومى — فقد كانوا [illegible] فى اختراع الآلات ، فمنذ [illegible] الضغط من السودان حوالى



هجرات الزنوج باتجاه ساحل غينيا
(خلال الفترة من القرن الأول الى القرن الخامس عشر الميلادى)

١٥٠٠ م كان ذلك سببا فى اتحادهم للدفاع عن كيانهم ، فتحول هذا الفن الى انتاج الأسلحة ، واضمحلت حضارة « بنين » فى القرن السادس عشر تحت وطأة الضغط العسكرى من جانب قبائل اليوروبا من جهة ، وانتشار الثقافة الحديثة التى أتت فى ركاب التجار والمبشرين البرتغاليين من جهة أخرى .

وفى شرق وشمال شرق دلتا نهر النيجر — بين جماعات البانتو وغيرهم من الزنوج وحول مرتفعات الكميرون — لم يكن هناك تنظيم بين القبائل الزنجية التى تركزت فى تلك المناطق على الرغم من أن أغلبهم عاش فى هذه المنطقة لبضعة آلاف من السنين . أما فى منطقة السافانا شمال المرتفعات فقد عاش الزنوج هناك منذ عصور ما قبل التاريخ ، وربما كانوا من قبائل اليوروبا والداهومى الذين تحركوا عبر النهر الى غرب نيجيريا وقت ميلاد السيد المسيح ، وبعد ذلك جاءت قبائل الهوسا الذين وصلوا تلك المنطقة فى القرن العاشر تقريبا . ويحتمل أنه كان هناك بعض عناصر البانتو شمالى نيجيريا — وتوجد حاليا بقايا منهم متناثرة — ولكن انتشار البانتو كان فى معظمه نحو الجنوب منطلقا من الكميرون وليس جهة الشمال ، ومن المحتمل أن شعب « الجا » (Ga) —

الذين يعيشون فى الوقت الحالى فى وادى نهر الفولتا الأدنى فى دولة غانا الحالية — كان يعيش أيضا هناك ، حيث يبدو من عاداتهم وتقاليدهم أنهم قضوا بعض الزمن فى شمال نيجيريا ومنها بداوا فى الهجرة منذ ٩٠٠ عام تقريبا .

النشاط الأجنبى على غرب أفريقيا (فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر)

ويعتقد شعب « الجا » أنهم قد وصلوا الى منطقة فولتا حوالى عام ١٣٠٠ م فى حين تظهر معظم الدلائل أن شعب الأكان انتقل من الطرف الجنوبى من دولة غانا القديمة أو مالى الى الطرف الشمالى للغابة المطيرة فى غانا الحديثة ما بين ١٢٠٠ و ١٤٠٠ م ، ثم عبرت قبائل الأكان مخترقة الغابة المطيرة وسمت نفسها الآشنتى ، ويفترض أنهم اكتشفوا الذهب

فى القرن الخامس عشر وبداوا يكونون حلفا عسكريا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وهناك فرع آخر من قبائل الأكان يسمى « الفانتى » تنقل حول الغابة المطيرة واستقر فى شريط من السافانا عند ساحل الذهب يقع غرب شعب « الجا » . لكن الى أى مدى يمكننا أن نصدق العرف ؟ والى أى حد تندمج قبيلة مهاجرة بأخرى أو بالسكان الأصليين فى المناطق التى استقرت فيها وسيطرت عليها ؟

ومعلوماتنا عن الهوسا قليلة نسبيا بالرغم من أنهم تركوا وثائق مكتوبة لكنها أعدمت فى أثناء ثورة للمسلمين منذ ١٥٠ عاما . ولربما كان هؤلاء الهوسا غزاة من البربر ، وربما كانوا زنوجا ذوى حضارة من البربر انشأوا أنفسهم على أنقاض الزنوج الأصليين ممن اشتغلوا بالزراعة . والحقيقة أن الهوسا كانوا تجارا منظمين استطاعوا أن ينظموا أنفسهم فى مجموعات من المدن . ولقد أسهم تحالف ملوكهم ونظمهم الادارية السليمة فى بقاء حكمهم كأقلية غازية لجموع الشعب الأصلى . وكانت هذه النظم الحكومية تستمد تعاليمها من القرآن ، الا أن الاسلام كديانة كان بطىء الانتشار ، سواء بين الحكام أو المحكومين ، ولقد تخصصت الهوسا فى صنع الأقمشة الرقيقة والمصنوعات الجلدية والرقيق الذين يمكن جلبهم أو بيعهم شرقى دلتا النيجر . وكانت مدن الهوسا تتاجر عبر الصحراء مع الامبراطوريات عبر النيجر الأوسط ، ومع زنوج اليوروبا والجا . ولعلنا نتساءل : هل كان الجا جماعات لجأت الى هذه الجهات فرارا من الغزاة الذين استمروا فى علاقاتهم التجارية — لكنهم استعادوا حريتهم ؟

ومن الصعب القول بأن الزنوج قد عاشوا فى أعداد كبيرة فى الغابات المطيرة فيما قبل القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكذلك من العسير الاعتقاد بأن الأكان كانوا قوما من اللاجئين أتوا فى أعداد كبيرة من أقصى الشمال . وتشبه لغتهم الى حد كبير لغة جيرانهم من سكان الغابات لكنها تختلف تماما عن اى لغة فى وادى النيجر الذى يدعون انهم أتوا منه . وهذا لا يعنى بطبيعة الحال انهم عاشوا لمدد طويلة فى داخل او فى جنوب الغابة المطيرة ، كما لا يعنى أنهم لم يتأثروا بسكان الشمال .

وقد يفسر هذا بأن الشعوب التى كانت تتكلم لغة الجا والآكان عاشت لفترة طويلة فى الطرف الجنوبى لمنطقة السافانا فى أعلى منطقة الغابات بعيدا عن الشاطىء ، ولكنهم استمدوا حديثا تقاليد وعادات ونظما فى الحكم وحتى أرستقراطية حاكمة من الأماكن التى ادعوا أنهم جاءوا منها . وعلى ذلك يمكن القول بأنهم تقهقروا نحو الساحل ونحو الغابات المطيرة منذ سنة ١٣٠٠ كوسيلة لتفادى سيطرة الاسلام والقلاقل التى كانت تعم وادى النيجر حينئذ .

ويمكن رؤية نموذج آخر لذلك فى السكان الأصليين الزنوج داخل الغابات المطيرة فيما يعرف حاليا بدول ساحل العاج وليبيريا وسيراليون . اذ يبدو أن قلة من هؤلاء الزنوج فى هذه المناطق دخلوا الغابه فى وقت متأخر نسبيا ، ممن لم يكن لهم رغبة فى اعتناق الاسلام والخضوع لسيطرة الحكومة المركزية فغادروا منطقة السافانا هربا من الاسلام ومن الوقوع تحت طائلة الحكومة المركزية ، لكنهم لم يتلقوا المؤثرات ولا الضغوط التى حدت بالأكان للتحالف والاتحاد .

وهناك مجموعة متناثرة من القبائل فى غرب أفريقيا فى منطقة تمتد ما بين السنغال حتى منطقة دول الهوسا ويسمون « الفولانى » ، وهم قوم من الرحل لم تكن لهم دولة تحمل طابعهم ، وانما كانوا يحتمون فى مجتمعات أخرى فى جنوب ووسط مناطق السافانا . ويدعى شعب الفولانى أن أصولهم بيضاء مما دعا بعض الباحثين الى ارجاع ذلك الى اتصالهم بالبربر على حين تذهب الأراء الحديثة (١) الى أنهم فى الأساس زنوج أتوا من غرب القارة ، وقاوموا الاسلام لعدة قرون ، وربما يكون هذا ، أو ميلهم الى الرعى ، هو الذى دفعهم للهجرة المستمرة . ومما لا شك فيه أن بعضا منهم كان يقطن على مشارف دولة غانا القديمة حينما أغار عليها المرابطون . ويبدو أن انتشارهم قد تزايد منذ ذلك الحين حيث كانوا يوجدون كأقليات فى حماية بعض الدويلات فى منطقة السافانا المنتشرة ما بين السنغال وأرض الهوسا حتى القرن الثالث عشر .

---

(١) أنظر بصفة خاصة: Joseph H. Greenberg, Studies in African Linguistic Classification, New Haven, 1955, pp. 24 - 32.

وفى أثناء الفوضى التى سادت المنطقة عندما قام المغاربة بغزواتهم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بدأ شعب الفولانى يلعب دورا سياسيا ملحوظا فى سياسة الدويلات التى كانت تناوىء أمراء شمال أفريقيا . وكانت جماعات منهم توجد فى ذلك الوقت فى منطقة فوتاجالون (داخل غينيا الحالية) ، وفى أرض الهوسا حيث كانوا يزاولون الرعى — كما كانوا أقلية من الوثنيين ، ولو أن نسبة كبيرة منهم كانوا يعيشون بين ظهرانى الهوسا فى المدن حيث حدث اختلاط بينهما بالمصاهرة مما أدى الى اعتناقهم الدين الاسلامى . وقد عاش رعاة القطعان من الفولانى فى أغلب الأحوال فى وئام مع السكان الأصليين من المشتغلين بالزراعة . وباستثناء سكان السواحل — فقد انقضت ثلاثة أو أربعة قرون قبل أن يكون للكشوف والتوسع الأوربى تأثير مباشر فى معتقدات السكان الدينية . وقد أدى التأثير الأجنبى غير المباشر منذ ١٤٥٠ الى تغيرات جذرية أثرت تأثيرا جوهريا فى مجرى تاريخ غرب أفريقيا .

٤
الـــرق

لقـد وجـد الرق — أى حيازة الانسان للانسان كمتاع شخصى — فى أفريقيا ، كما وجد فى جهات أخرى من العالم منذ أزمنة سحيقة تعود الى ما قبل التاريخ . الا أنه كان فى مراحله الأولى ظاهرة غير خطيرة ، محدودة الأثر ومنطقيـــة ؛ اذ كـان الاسترقاق وسـيلة لادارة واستخدام المجرمين والمتذمرين وأسرى الحرب فى أغراض الانتـــاج لدى مجتمعات الرحل التى لم يكن يتوافر لديهـا حكومـات مجردة ولا سـجون لتطبيـق القوانين . ولأسباب متعـددة لم تكن فكرة التنكر للمبـادىء الانسـانية والشخصية الفرديه المرتبطة عادة بالرق موجودة — اذ لم تكن لدى المجتمعات الأفريقية فكره محـددة عن حقوق الملكية الخاصـــة ، ولذلك فان الحقوق الشخصية والظروف العـامة للعبيد كـان يحكمهـا العرف والمسئولية الجماعيـة الأفريقية . كما كان الرق فى أفريقيا يمتد لفترة محـدودة من الزمن تطول أو تقصر حسب طبيعة الجريمة التى اقترفها العبد أو حسب ظروف أسره ، فلم يكن الأسر أمرا دائما . وكان فى الامكان أن يسترد العبد حريته سواء بالسلوك الحسن أو بشرائها ، فقـد كان مالك العبد مسئولا عن الحفـاظ عليه وحمايته ، على أن يقوم العبد بأداء قـدر مخصص من العمـل دون أجر . ومـع ذلك فكان يسمح لـه فى وقت فراغـه أن يحوز ممتلكـات منقولة يستطيع أن يشترى بها حريتـه ليدخل المجتمـع مرة أخرى كعضو له منزلة حســنة .

وظلت هـذه الشروط المخففة للرق سـائدة مادام العبيد يباعون الى مجتمعات مجاورة تعتنق نفس الأسـلوب ، الا أن الصعوبات والمساوىء كانت تثور من المبدأ لو بيـع العبد الى مجتمع آخر يتمسك بنظرية الملكية الفردية وبـدوام الاسترقاق ، وهـذا تماما ما حـدث حينما بيـع بعض

الزنوج من العبيد لدول منطقة البحر المتوسط القديمة حيث كانوا يواجهون بهذه الظروف التى ذكرناها . لكن مع انتشار الاسلام فان القرآن قد قضى بالمعاملة الانسانية للرقيق .

وقد ظهرت نماذج من الاسترقاق الكلى فى شمال أفريقيا وفى مصر منذ القرن الحادى عشر حين أحكم العرب قبضتهم على نهاية الطرق التجارية عبر الصحراء من ناحية البحر المتوسط ، وانتشر الاسلام ووصل الى منطقة السافانا تحت راية المرابطين ، فازداد حجم التداول فى تجارة الرقيق ، ويبدو أن معظم الرقيق كانوا أسرى حرب وضحايا الاغارات التى قامت بها الامارات فى منطقة السافانا على طول الطرف الشمالى من الغابة المطيرة .

وكانت أكبر مصادر الرقيق — من الزنوج ، وبخاصة قبائل البانتو الذين لم يهاجروا الى غابة الكنغو ، والذين عاشو جنوب شرق أرض الهوسا ، فقد كانوا عبارة عن أعداد كبيرة من القبائل الصغيرة التى تفتقر الى التنظيم الذى يكفل لها الحماية ، وكانت تدفع للحرب بعضها ضد البعض الآخر بهدف توفير أسرى للتجار . ولقد ازداد الطلب على هؤلاء الرقيق بعد سقوط الدولة البيزنطية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر حين كان الغزاة الأتراك يحتاجون الى توابع شخصية لتثبيت حكمهم على السكان المسيحيين ، حتى ان بعض هؤلاء العبيد من الزنوج وصلوا الى مناصب ادارية هامة فى ظل سلطان القسطنطينية — الا أنه كانت تجرى لهم عملية « التعقيم » باستمرار مخافة نشوء دعوى وراثية على تلك المناصب قد تزاحم الأتراك فى سلطانهم .

ولقد نشطت قبائل الهوسا فى توريد هؤلاء « الخصيان » وتجهيزهم لتلك الرحلة ، وكانت عمليات الاسترقاق تتم بشكل مخفف بين قبائل البانتو التى هاجرت الى داخل الغابات من الكميرون فى أثناء العصر المسيحى . كما كانت هناك منافسة لمحاولة السيطرة على منطقة خط

تقسيم مياه نهر الكنغو ، وتسببت فى خلق مجموعات منتظمة نسبيا من القبائل التى استطاعت أن تغير على جيرانها من آن لآخر . وكان الأسرى نتيجة هذه الاغارات يؤخذون عبيدا . الا أن المحتمل أن يكون أكبر مصدر للرق هو ما كانت تطلبه القبائل المنتصرة من القبائل المهزومة فى شكل جزية واجبة الدفع قوامها أعداد معينة من العبيد . ولم تكن هناك سوق أو تجارة لهؤلاء الأسرى ، ولكن اذا أمكن استيعابهم داخل أفراد القبيلة المنتصرة فان ذلك كان يعنى تعزيز قوة رئيس هذه الجماعة فى قبيلته وفى نطاق المنطقة التى يمتد نفوذه عليها .

ويبدو أن المستكشفين البرتغاليين الأوائل قد اشتروا أول شحنة رقيق من تجار على شواطىء السنغال وموريتانيا فى منتصف القرن الخامس عشر ، وبعد وفاة الأمير هنرى الملاح عام ١٤٦٠م صار البرتغاليون يستجلبون الرقيق من مناطق شتى عن طريق مختلف الوسطاء من الزنوج والبربر فى المنطقة الممتدة ما بين نهرى السنغال وجامبيا — فى حين استجلب بعض آخر بالاغارة فى شمال غربى الغابة الاستوائية ، لكن هذا كان يكلف الأوربيين ثمنا باهظا من النفوس والمال لا يتكافونه فى عملية الشراء السلمى . وفى عام ١٤٨٢ وحين استقر البرتغاليون فى منطقة « المينا » على ساحل الذهب كان تركيزهم منصبا على الحصول على الذهب ؛ اذ أصبح فى امكانهم جلب الرقيق بالقرب من البرتغال حول الرأس الأخضر بما يكفى الاحتياجات الأوربية من العبيد . وعقدت فى « المينا » عدة اتفاقيات مع قبائل الفانتى على طول الساحل لمبادلة الذهب بالملح والأقمشة والحلى والآلات . وكانت علاقات البرتغاليين بهذه القبائل علاقات صداقة ، اذ أن البرتغاليين لم يحاولوا أن يتخطوا هؤلاء الوسطاء من رجال القبائل للوصول بأنفسهم الى المناجم ، أو ليمارسوا علاقات مباشرة مع المنتجين من الأشانتى فى الداخل .

ولقد زارت بعض البعثات التبشيرية وبعض التجار منطقة « بنيان » فى غرب دلتا نهر النيجر ، لكن هذه البعثات لم تمكث طويلا . واستطاع البرتغاليون أن يوغلوا على الساحل جنوبا حتى اتصلوا بقبائل البانتو فى حوض الكنغو ، اذ تحول اهتمامهم للبحث عن أسطورة المملكة المسيحية التى يقوم على رأسها القديس يوحنا فى شرق القارة ، وكذلك للسيطرة على طريق الهند . وفى عام ١٤٨٣ م طلب حاكم قبيلة « المانيكونجو »

مساعدته لتدعيم نفوذه وابدى اهتماما بالديانة المسيحية . ومع أنه تم كشف راس الرجاء الصالح بعد ذلك بأربع سنوات ، الا أن البرتغاليين كانوا قد اثروا الاهتمام بالمانيكونجو كخطوة فى سبيل الوصول الى الشرق الذى بدأ اهتمامهم يتحول اليه .

وفى ربيع عام ١٤٩١ م وصلت بعثات تبشيرية تحمل بعض المبعوثين والمرشدين الفنيين الى الكنغو كما تحمل بعض الهدايا والآلات . وتم تعميد رئيس قبيلتهم المدعو نزنجا كنوو Nzinga Knuwu وتسمى باسم الملك يوحنا الأول ، وعند معاهدة صداقة مع الملك يوحنا الثانى ملك البرتغال ، وسمح بتأسيس مستعمرة برتغالية صغيرة على بعد ١٢٥ ميلا من الداخل عند مبانزا Mbanza مركز القبيلة . وساعدت فرق من المانيكونجو على القضاء على الثورة التى نشبت ، لكن حين أصبح الملك يوحنا الثانى أكثر اهتماما بالهند ، أخذت مملكة البانتو تضمحل ، واضطرت البعثات التبشيرية للانسحاب للساحل مع الأمير مبيمبا نزنجا Mbemba - a - Nzinga الذى أصبح — بعد أن قضى عشر سنوات فى المنفى ، تثقف خلالها بالثقافة البرتغالية — بعيدا عن حياة البانتو .

وخلال المنفى استطاع عدد من الذين رحلوا من البرتغال من الساخطين على النظام القائم هناك أن ينتجوا السكر فى جزيرة ساوتومى الاستوائيه المهجورة على بعد ٦٠٠ ميل شمال الكونغو ، وقد وفدوا الى الأراضى الأصيلة بالقارة لأول مرة حوالى عام ١٥٠٠ لشراء العبيد اللازمين لزراعتهم ، ووجدوا ضالتهم المنشودة عند اللاجئين من المانيكونجو وبعد وفاة أبيه تسمى مبيمبا باسم الفونسو الأول ، وتغلب على المغتصب لعرش أبيه ، واطلق على عاصمة ملكه « مابنزا » اسم سان سلفادور . وفى عام ١٥٠٨ توالت البعثات التبشيرية لمساندة حكم الفونسو ذى الميول الأوربية المسيحية . ولكن نشاط البرتغاليين كان قد تحول لغزو المحيط الهندى عام ١٥٠٩ م .

وكان أهتمام البعثات التبشيرية مركزا على الاماء والعبيد أكثر من تخليص النفوس ، مما أدى الى اضمحلالها بالتدريج ، واصبح فى وسع الحاكم الشرعى لساوتومى مراقبة الاحتجاجات والاستغاثات التى يبعث بها الفونسو الى لشبونة . وأصدر عمانوئيل ، الملك الجديد للبرتغال ، أوامره لتصحيح هذا الموقف لكنه لم يستطع أن يفرض ارادته على أتباعه .

وظل الفونسو يمثل القوة الدافعة للتقدم ، فقد بنى عددا من المبانى على النمط الأوربى فى (سان سلفادور) ، وأرسل أبناء الزعماء الى البرتغال ؛ وقد نذر ابنه للكنيسة وأصبح راعيا لكنيسة الكونغو ، وكان بذلك أول زنجى ينحو هذا النحو . لكن ساوتومى جذبت الكثيرين من طلاب العلم السابقين .

وحاول الفونسو تقوية البعثات التبشيرية ، لكن ظلت التقاليد المتعلقة بأسرى الحروب تتحكم فى بلده . وكان الأسرى الذين يؤخذون فى مثل هذه المعارك يرحلون الى ساوتومى . على أن هذا لم يربك الفونسو ، فقد كان معتاداً غارات تجار الرقيق ، كما أنه صدق باخلاص ما كان يدعيه البرتغاليون من الفوائد التى تعود على هؤلاء العبيد من تعميدهم وتبشيرهم .

وفى الثلاثينات من القرن الثالث عشر ظهر عدد من التجار البرتغاليين الجدد وبعثاتهم التبشيرية فى المانيكونجو ، وظلت تلك المملكة فى حالة من الفوضى المدبرة نتيجة دسائسهم الداخلية حتى صار من الصعب على أى ملك من أهل الكنغو أن يسيطر عليها . ومع ذلك بقيت هذه الأسرة الزنجية المسيحية تحكم حتى القرن السابع عشر . وقد نصب بطريرك للكونغو من البرتغاليين ، على نمط الكاتدرائية البرتغالية فى سان سلفادور حتى عام ١٦٧٦م لكن كان مقره الرسمى انجولا .

توالت البعثات التبشيرية الجديدة بين الحين والآخر الى سان سلفادور ، بل وافتتحت كلية كهنوتية لاعداد القساوسة من الأفريقيين فى منتصف القرن السابع عشر ، وكان ملك الكونغو يعتبر فى نظرهم من المسيحيين ، لكن كانت مملكة الكونغو تدفع الجزية للبرتغال ابتداء من عام ١٥٧٠م ، وعاد سكانها بعد ذلك الى الوثنية فى عام ١٦١٥ ، ولم يحل عام ١٦٩٠ الا وكانت كل آثار مملكة المانيكونجو وسان سلفادور قد تلاشت . وظلت البرتغال تعتبر الكونغو حليفا لها حتى عام ١٨٨٣ م حيث لم يبق البانتو يذكرون من هذا العهد سوى أسم (الفونسو) وتجارة الرقيق ، وبعض التمائم التى ترجع الى أصل مسيحى . ولقد كانت هذه التجربة مثيرة حقا ، اذ لم يستطع البرتغاليون أو ملوك المانيكونجو حل المشكلة الناجمة عن الصراع بين القيم الأوربية والتقاليد الأفريقية .

لقد كان الفونسو ، ومعه حكام البرتغال من ناحية ، يودون انشاء دولة سياسية مركزية فى الكونغو يعتنق أهلها الدين المسيحى وتأخذ بالنظم الادارية وبأساليب الثقافة الأوربية ، فى حين نجدهم من جهة أخرى يسمحون باستمرار النظام القبلى للبانتو ووجود دويلات مفككة تستطيع أن تستجلب لهم الرقيق عن طريق تشجيع التشاحن بين القبائل مما يحول دون الاستقرار الوطيد . وكان نبلاء البرتغال فى لشبونة وتجار الرقيق ورجال الارساليات البرتغاليون يشجعون وجود مثل هذه الجماعات المتنافرة فى الكونغو ونظام أسرى الحرب بما يستتبع ذلك من استمرار نظام الرق ، حتى انه كان لا يعنيهم أن تتمكن أية قبيلة من قبائل البانتو من الاطاحة بالمانيكونجو مادام فى الامكان استجلاب الرق نتيجة لذلك ، فقد كان ازدهار تجارة الرقيق يرتبط بانتشار حالة الفوضى فى المنطقة .

وفى بداية القرن السادس عشر — فى أثناء حكم الفونسو فى أوج تجربة الكنغو مع البرتغال — كانت سوق الرقيق مقصورة على ما تحتاج اليه مزارع جزيرة سان توماس ، وكانت البرتغال وأسبانيا تستجلبان ما تريدانه من رقيق الى سان دومنجو من قبائل السنغال وغامبيا .

وفيما بعد عام ١٥٣٠ استطاع التوسع الاسبانى فى كوبا وأمريكا ، بالاضافة الى استيطان بعض البرتغاليين فى البرازيل التى كانت تشكو من قلة عدد السكان ، أن يخلق سوقا جديدة للرقيق فى أفريقيا ، كما خلق أسواقا هائلة ما كان يستطيع اشباعها سوى عبيد سنغامبيا . وقبل عام ١٥٥٠ م ابتدأت مناجم الذهب بالقرب من منطقة الميناء تنضب ، وعلى ذلك اتجه جلاب الرقيق من قبائل الفانتى نحو امداد الامريكتين بالرقيق . واقترب تجار الرقيق من بنين ، الا أنهم ركزوا اهتمامهم على المانيكونجو التى كان اعتماد اقتصادها على تجارة العبيد سببا فى انهيار الثقافة الأوربية فيها .

واصبحت مصالح البرتغال فى حوالى منتصف القرن السادس عشر مبعثرة على شواطىء ثلاثة محيطات مما عمل على استنزاف مواردها البشرية المحدودة . فالاحتكارات التجارية ، والمزارع ، ورجال الارساليات ، كانوا يمارسون نشاطهم فى البرازيل (قصب السكر) وسنغامبيا (*)

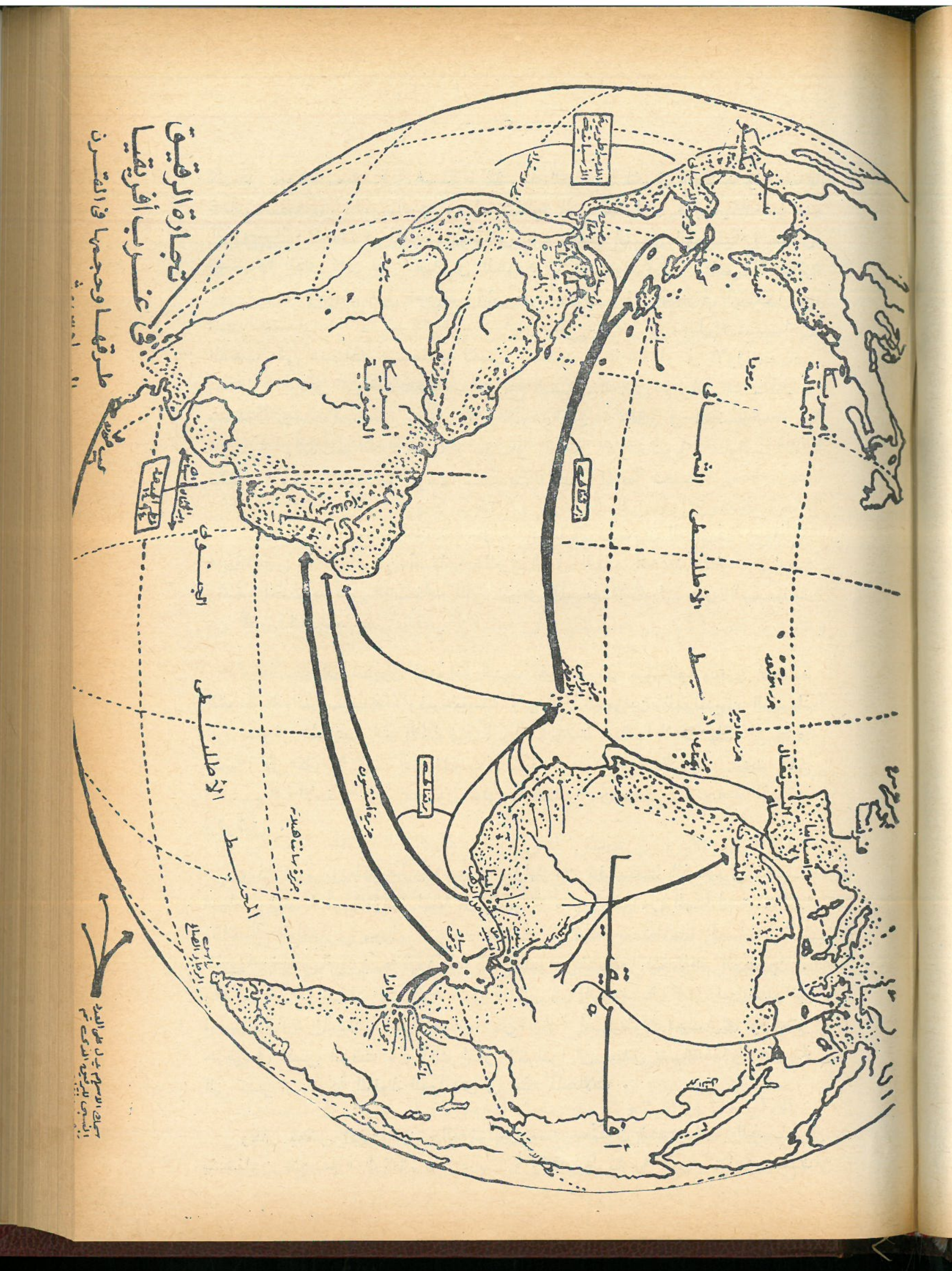
(*) يطلق المؤلف هذا اللفظ على المنطقة التى تشمل حاليا السنغال وغامبيا . (المراجع) .

وساحل الذهب والكونغو (الرقيق) ، وفى شرق أفريقيا والخليج الفارسى والهند والملايو وجزر الهند الشرقية والصين واليابان (التوابل والسلع الكمالية) .

وكانت السفن البرتغالية تمد الامبراطورية الأسبانية فى أمريكا بما تحتاج اليه من الرقيق ، وقد حاول التجار البرتغاليون السيطرة على التجارة المارة بالمحيط الهندى وفى شرق آسيا ، واستمرت حملاتهم العسكرية ضد المور المغاربة . وباستثناء البرازيل ، كان لزاما على البرتغال الا تحاول التوغل فى الداخل ، **فلجأت الى الاعتماد على** الجزر القريبة من الشواطىء الأفريقية حتى يمكن وقاية رعاياها — نظرا لقلة عددهم — من مباغتة الأعداء ومن شر الأمراض الفتاكة التى تنتشر فى الداخل . وكانت محطة المينا على ساحل الأطلنطى لأفريقيا هى المحطة الرئيسية للبرتغال . أما البعثات التبشيرية والمراكز التجارية فى كل من الكنغو وبنين فقد توقف نشاطها وانتقل مركز الثقل الى جزر الرأس الأخضر وساو توماس حيث تحول الاثنان الى « اصطبلات » للعبيد — الا أنه كانت هناك فى نفس الوقت تجارة مربحة لقصب السكر فى ساو توماس مع عدد كبير من أصحاب المزارع الأوربية ، واستمرت حاجة الجزيرة الى العبيد ، لكن حاجة الاقطاعيات الكبيرة فى البرازيل الى الرقيق كانت أشد .

ولقد ادت قسوة المناخ المدارى وخوف البرتغاليين من تناقص عدد السكان فى الوطن الأم الى منع هجرة نسائهم،ولذلك اعتمدوا فى حفظ وزيادة عدد السكان البرتغاليين على الاختلاط بالأجناس الأخرى فى امبراطوريتهم ، وكان الأبناء الناتجون عن الاختلاط يرثون مراكز آبائهم الاجتماعية من الوجهة النظرية ، الا أن امتيازاتهم الوراثية — من الناحية العملية — كانت أكثر وضوحا من ثقافتهم الأوربية .

ورغم أن البرتغال لم تكن راغبة فى توريط نفسها بالدخول الى أعماق أفريقيا ، فقد كان من الضرورى لها فى ذات الوقت أن تسيطر على وسائل الاتصال بمصادر الرقيق فى الجنوب . وقد كانت قبائل المانيكونجو تدعى السيطرة على المنطقة جنوبى ساو سلفادور المسماة (أنجولا) الا أن الاضمحلال المتوالى لقوة البانتو حال دون ذلك . وفى عام ١٥٧٦ طبق التاج الملكى فى لشبونة نظام الملكية المعمول به



فى ساوتومى والبرازيل على المناطق الساحلية المضطربة ، لكن لمنع التشتت واضطراب الجهود ، بسط الملك نفوذه المباشر على قبائل البانتو المنقسمة وعلى عمليات التوسع الزراعى . ولقد أنشئت قلعة ساحلية كبيرة ذات مستودع للرقيق فى (لواندا) كما أقيمت فيها وحدات عسكرية بغرض اجبار رؤساء القبائل فى المنطقة على بيع سجنائهم ، أو بغرض الاقتناص المباشر للرقيق .

ولقد أخفقت كل المحاولات لانشاء مزارع تجارية فى تلك المنطقة حيث كانت تجارة الرقيق أكثر ربحا ، كما خبت الآمال فى العثور على مناجم للذهب ذات قيمة تجارية ، اذ كانت المنطقة قد اكتشفت . وحلت أنجولا — بعد ذلك تحت حكم البرتغال المباشر — محل الكنغو كمورد أساسى للشحنات البشرية من الرقيق .

ولما قتل الملك سباستيان الأول فى أثناء حربه مع المغاربة انتقل العرش الى فيليب الثانى ملك أسبانيا عام ١٥٨٠ الذى لم تستحوذ أفريقيا والبرازيل والشرق على اهتمامه بقدر ما استحوذت عليه المكسيك وبيرو . وتحولت هولندا الى فيليب حين انقسمت أملاك أبيه فى وسط أوربا ، ولكن قامت بها حركة اصلاحية ، ونجح الهولنديون فى الحصول على استقلالهم عن اسبانيا الكاثوليكية قبل نهاية القرن السادس عشر . وقد اعتاد الهولنديون طويلا صيد السمك وكسب المزيد من الأرض من البحر ، واستطاعوا أن يبرعوا فى توزيع المنتجات — التى تأتى بها البرتغال واسبانيا من مستعمراتها — الى الشمال .

ولم تكن الولايات الهولندية المستقلة فى ذلك الوقت على اتفاق فيما بينها الا أن أى واحدة منها لم تكن تتردد فى محاولة استغلال الشرق وأفريقيا والأمريكتين لحسابها ، بغض النظر عن غرمائهم من الوسطاء الاسبان ، وظهر من بينهم الطامعون فى أفريقيا البرتغالية والهند قبيل عام ١٦٠٠ . ولم تلبث البرتغال أن طردت من بعض المناطق التى تمكن الهولنديون من انشاء محطات منافسة فيها .

وانشئت شركتان تجاريتان قويتان ومنحتا مرسوما باحتكار العمل ،

كل فى منطقة معينة ، هما : الشركة الهولندية لشرق الهند وقد امتد نطاق عملها من رأس الرجاء الصالح الى اليابان ، وشركة الهند الغربيه ، للعمل فى المحيط الأطلنطى . وتمكنت السفن الهولندية ، بفضل تصميمها الذى كفل لها العمل فى الحدود الاقتصادية ، أن تنافس الاحتكار البرتغالى ، وتعمل على تخفيض الأسعار دون أن يؤثر ذلك فى أرباحها من تلك التجارة . أما شركة الهند الغربية فآثرت أن تعمل فى ساحل الذهب على ساحل سنغامبيا القليل السكان حيث تتوافر فى الأول مصادر تجارة الرقيق ، وعقد معاهدات مع قبائل الفانتى ، وانشأت محطات جديدة واستولت على بعض قلاع البرتغاليين . ولكن فى الجنوب ، فى أنجولا والكنغو ، لم يأبه تجار الرقيق البرتغاليون بأوامر الملك فيليب ، وكان اهتمامهم موجها لما يدر عليهم الربح فحسب .

وحين استطاعت هولندا الحصول على مركز فى شرق البرازيل وسيطرت على بعض وكلاء كل من أسبانيا والبرتغال فى العالم الجديد صارت تمارس وضعا احتكاريا على الشحنات التى تمر فى المحيط الأطلنطى حتى السبعينات من القرن السابع عشر .

واكتسب الهولنديون أسواقا جديدة فى كل من بريطانيا وجزر الهند الغربية الفرنسية ، وفيرجينيا ، وأمكن للمهربين الهولنديين النفاذ الى أسواق المستعمرات الاسبانية . ولما كانت هولندا لا تستهلك الا جزءا يسيرا من كل ما كانت تنقله سفنها التجارية ، فقد اعتمدت على الأسواق الأجنبية فى الحصول على متطلباتها من بعض المنتجات الشرقية والرقيق .

وبدأ تبرم بريطانيا وفرنسا يتزايد من دفعهما الذهب والفضة لهولندا ثمنا لما تؤديه لهما من خدمات . وبالرغم من أنهما لم تستطيعا منافسة هولندا فى مجال التجارة الحرة الا أنهما استطاعتا اقامة نظام تعريفة خاصة ووضع قيود على الاستيراد تشجيعا لتجارهم الوطنيين . وقد كانت هولندا تمتلك قوة بشرية أكبر من البرتغال لكن لم تتوافر لها الموارد المادية التى تمكنها من ادارة أسطول تجارى وآخر حربى فى نفس الوقت ، ولذلك أمكن لانجلترا أن تحقق سياستها الرامية الى كسر شوكة النفوذ الهولندى فى هذه المجالات .

وكان بعض الانجليز والفرنسيين ممن يعملون لحسابهم الخاص يشتغلون بتجارة الرقيق وبالتهريب ، ولكن بطريقة غير منتظمة منذ

أواخر القرن السادس عشر ، الا أنه لم تكن لهم مستعمرات تمكنهم من ايجاد وضع احتكارى لهم ، واستمرت الحال على ذلك حتى استطاعت هولندا أن تتفوق على الاسبان والبرتغاليين فى هذه التجارة ، ثم استطاعت انجلترا وفرنسا بفضل قوة أسطولهما الحربى ، وتنظيماتهما الاستعمارية الصارمة أن تسيطرا على تجارة مستعمراتهما ، ثم أن تحققا السيادة على تجارة الشرق وتجارة المحيط الأطلنطى بوجه عام .

ولعدم انشغال بريطانيا ، حينئذ ، فى مشكلات القارة الأوربية ، فقد هيأ لها هذا الوضع فرصة تركيز اهتمامها على البحر ، مما مكنها من التفوق البارز فى البحر فى نهاية القرن السابع عشر وأصبحت تلقب منذ ذلك الحين باسم « سيدة البحار » . وتحالف مع انجلترا عدد من قبائل الفانتى المشهورة بتسويق العبيد ، والمقيمين على ساحل الذهب ضد الهولنديين ، كما استطاعت بريطانيا عقد اتفاقيات مع دولتى اليوروبا والداهومى فى المنطقة التى كانت تسمى ساحل العبيد . ومع ذلك فان تجار البرتغال الذين كانوا يسيطرون على غالبية التجارة بين أنجولا والبرازيل قاموا بنقل شحناتهم على سفن بريطانيا ، حليفتهم القديمة .

ولقد حصلت فرنسا على نصيبها من الرقيق من الدول الزنجية المستقلة الواقعة على ساحل العبيد ، ومن الشواطىء الأخرى (مثل سنغامبيا والجابون ... الخ) والتى لم تهتم بها الدول الأخرى . وبعد انشاء مزارع هاييتى الغنية لم تعد فرنسا بحاجة الى العبيد أو الى مزيد من الأراضى لتساعدها على تنفيذ خططها التجارية .

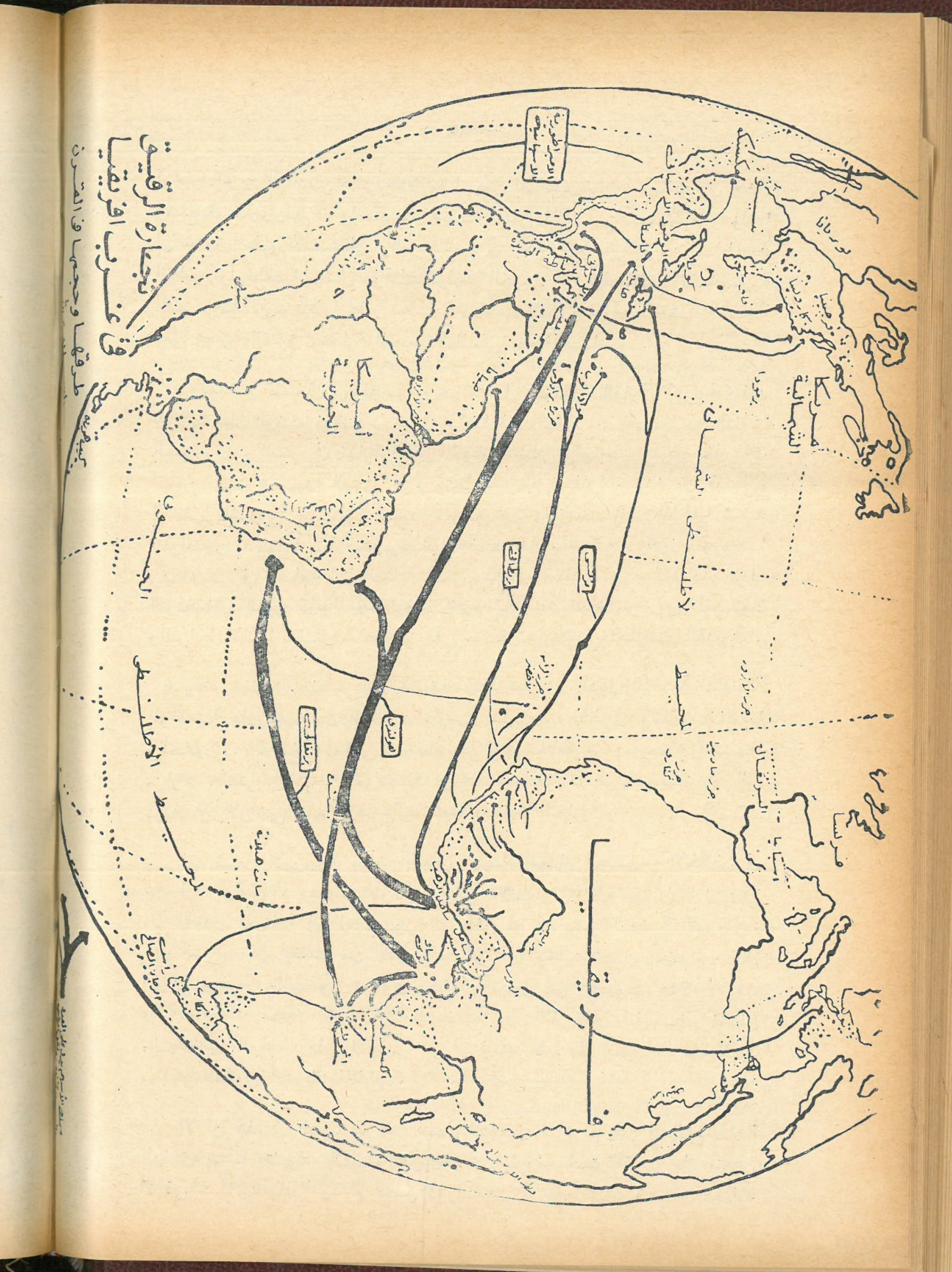
لقد شعر الأوربيون ببعض القلق تجاه انعدام الجانب الأخلاقى فى تجارة الرقيق . وبالرغم من أن حيازة الانسان كملكية خاصة لم تكن من الأمور المعتادة فى العصور الوسطى أو فى عصر النهضة الأوربية ، غير أنها لم تكن أيضا من الأمور المحرمة . وقد قبل معظم رجال الدين ورجال القانون دعاوى تجار الرقيق من أحوال هؤلاء الأرقاء وانه مادامت عملية الرق أمرا طبيعيا بين الأفريقيين أنفسهم فان ما يقتضيه الواجب على الأوربى هو أن يلتزم فقط بأن يكون شراؤه للعبد طبقا للقانون الأفريقى المتبع .

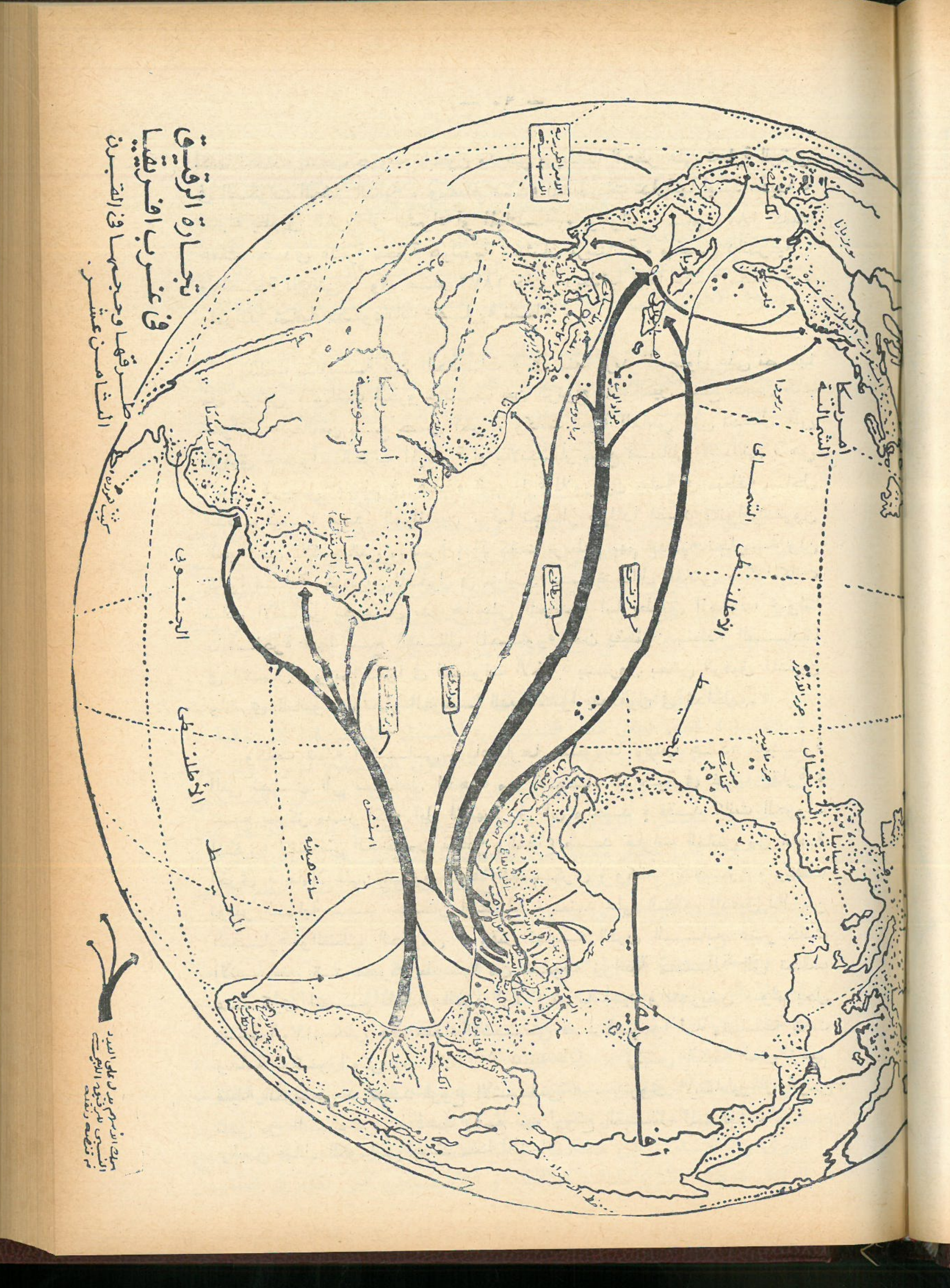
الا أن هذا فى الواقع لم يكن سهل التحقيق ، اذ لم يكن فى الاستطاعة الوثوق بما يقوله العبد عن نفسه وظروف استرقاقه ، فلم يتسن الا فى حالات نادرة — أن يعلم الأوربيون من هم الذين قاموا بعملية

الاسترقاق ، ومن باب أولى يصعب العثور على اسم الذى أسر العبد ، فضلا عن صعوبة فهم التقاليد الأفريقية التى بمقتضاها يمكن القول بأن عملية الاسترقاق قد تمت وفقا للقانون أو العرف الأفريقى . وقد درج تجار الرقيق والوسطاء على الادعاء بأن الاسترقاق كان قانونيا ، بل كان من اليسير التلاعب بالقانون للحصول على مزيد من العبيد .

ولقد ساعد التنافس على هذه التجارة من جانب الأفريقيين أنفسهم على قيام الحروب التى لم تعد تنشب بسبب الدفاع عن الكرامة والشرف فى المقام الأول ، ولم تكن تتحكم فيها المعتقدات الدينية . فتحولت الحروب فى أفريقيا من عملية محلية مرتبطة بالتقاليد والعرف الى عمليات غزو واستحواذ مجردة . حتى انه اذا هزمت قبيلة من القبائل فان هزيمتها لم تكن تعنيها مادامت قد حصلت على أكبر عدد من الأسرى بما يحقق لها كثيرا من الربح . وكان التحول فى دواعى الحرب هذه أكثر وضوحا فى غرب القارة ، حيث كانت طرق الامداد بالعبيد بالغة التعقيد قبل مجىء الأوربيين . وفيما يتعلق بالكنغو وانجولا ، فانه من الصعب فهم الصدام مع الفلاحين والرعاة من البانتو الذين كانوا قد وفدوا حديثا . وفيما عدا بضع اغارات على سنغامبيا ، فى السنوات الأولى من القرن الخامس عشر ، فان الأوربيين لم يكن لهم شأن فى شمال الكنغو بقنص العبيد ، حيث ان ثلثى أو ثلاثة أرباع العبيد الذين استجلبوا من تلك المنطقة تم عن طريق الوسطاء من الأفريقيين ،و كانت هناك عدة وسائل للتبادل فى هذه السلعة.

وقبل نهاية القرن الخامس عشر انتقلت المحطات الرئيسية فى سنغامبيا من الساحل الى الجزائر القريبة من الساحل (جزر الرأس الأخضر للبرتغال ، وجزر جورا Goree القريبة من داكار الحديثة لفرنسا وبريطانيا) . وكان رؤساء القبائل الساحلية يحضرون أو يبيعون الشحنات من الرقيق للأوربيين الذين يفدون من آن لآخر . وبطول ساحل الحبوب والبهار (ساحل ليبريا حاليا) كانت التجارة تمارس عن طريق بعض ربابنة السفن والقبائل المستقرة على الساحل . وكانت فرنسا تمارس هذه التجارة بنفس الأسلوب على ساحل العاج ، باستثناء انه انشىء مركز أوربى مستديم على الساحل . وفى كل هذه الحالات كانت عملية قنص الرقيق تتم اما عن طريق غارات أو حروب تتم على بعد ٥٠٠ ميل من الساحل — غالبا فى منطقة مرتفعات فوتاجالون أو بين قبائل الماندينجو — ثم بعد ذلك يباع الرقيق للوسطاء الموجودين على الساحل . وعلى امتداد ما يقرب من ١٥٠ ميلا على ساحل الذهب ، وعلى كلا





الجانبين من محطة « المينا » — وهى المحطة الأولى التى انشأها البرتغاليون — قام الأوربيون أيضا بانشاء عدد من المستودعات التجاريه اطلقوا عليها بعض الأسماء ، مثل القلاع ، أو المصانع ، أو المحطات ، أو المستعمرات ... الخ ، الا ان هذه المستودعات كانت فى جميع الأحوال محطات للتجارة مسلحة تسليحا خفيفا ويجرى استئجارها بمقتضى معاهدات يتم ابرامها مع قبيلة الفانتى التى تنتمى لجموعة زنوج آكان . وكان ابرام تلك المعاهدات المتعلقة بهذه المحطات يتم بين السلطات المسئولة من الأوربيين والفانتى بالاكراه وباستخدام وسائل القوة كتلك التى لا نزال نلاحظها حتى بين الدول ذات السيادة — فى وقتنا الحالى — لكنها متفاوتة فى الحجم والقوة (أى بين قوتين غير متكافئتين) ، وكانت هذه الاتفاقيات تتضمن عادة اتفاقا للتحالف الحربى واتفاقا بأن يدفع الأوربيون ايجار المحطات ببضائع أوربية ، واستئجار بعض الرجال ممن يعملون على أرصفة الميناء ، واتفاق تجارى بوجه عام يشمل تجارة العبيد .

وبعد عام ١٤٨٢ قامت البرتغال ببناء اربع محطات لها (بما فيها محطة المينا) ، كما قامت ببناء محطة خامسة على بعد بضعة أميال الى الداخل فى عام ١٦٢٣ فى محاولة منها لتنشيط انتاج الذهب . ولكن هذه المحطات كلها آلت الى الهولنديين قبيل عام ١٦٤٢ . وحاولت البرتغال بناء محطة سادسة لكنها اضطرت الى اخلائها فى عام ١٦٨٣ . وقد قام الهولنديون ببناء أول محطة ضمن عشر محطات لهم عام ١٥٩٨ ، واستمرت هذه المحطات حتى عام ١٨٧٢ .

ثم أتى دور بريطانيا فى هذا المضمار فقامت ببناء ثلاث عشرة قلعة فى الفترة ما بين ١٦٣١ و ١٧٨٧ ، وانتهى وجودها فى تلك المنطقة فى ١٩٥٧ . أما السويد فقد أقامت محطة فى عام ١٦٥٢ ، واخرى قبل أن تطردها الدانمرك عام ١٦٥٧ ، التى أضافت بدورها خمس محطات اخرى استمر بقاؤها حتى عام ١٨٥٠ ، أما بروسيا فقد قامت ببناء ثلاث محطات بعد عام ١٦٨٥ ، الا أنها تخلت عنها بعد اربعة عشر عاما من انشائها .

وبالنسبة لفرنسا فقد حاولت بناء محطة حوالى عام ١٦٨٨م ، لكنها تخلت عنها حينما تبين لها عزوف المشترين عن عبيد ساحل الذهب . وتم بناء آخر محطة لفرنسا بواسطة احدى قبائل الفانتى عام ١٧٩٨ ،

لكنها أخفقت بسبب حروب نابليون وفرض بريطانيا الحظر على تجارة الرقيق فى السنوات العشر التالية . ومعظم هـذه المحطـات تداولتها أيـد عديدة ، سواء بطريق الغزو أو الشراء أو المبادلـة . وحوالى عـام ١٨٠٠ كانت هناك احـدى عشرة محطة هولندية ، وثمان بريطانية ، وخمس دانمركية ، وواحـدة للفانتى . وفى عـام ١٨٧٢ كان لبريطانيا اثنتا عشرة محطـة ، ولهولندا ثمانية مستودعات تجـارية نشطة .

وقامت منافسـة بين المحطـات ، كل منها تريد الحصول على نصيبها من الرقيق . وكانت الحروب تنشب بين الزنوج المتحالفين مـع حصن ضد اخوانهم المحالفين مـع حصن آخر . وكانت قبيلة الفانتى التى تحصل على الرقيق ، سواء بالحرب المباشرة أو بالاتجـار مـع قبـائل الاشانتى ، هى المورد الرئيسى المنتظم فى هـذه التجـارة للأوربيين عامة فى منطقة ساحل الذهب فيمـا عـدا الهولنديين . أما تجـار هولندا فقـد كانوا يشترون العبيد من الأشـانتى مباشرة ؛ اذ كانت تربطهم بهم اتفاقية تجاريـة وان كانوا عـادة مضطرين للدخول فى مزايـدة مـع قبـائل الفانتى . كما كانت قبائل الأشانتى تحصـل بدورها على العبيد ، اما بطريق الحروب ، واما بالمتـاجرة فيها مـع القبـائل المجـاورة ممن يقطنون منطقة السـافانا فى الشمال ، وربما كانوا فى السنوات الأخيرة يشترون بعض الرقيق المذنبين وأسرى البانتو من تجار الهوسـا الذين كانوا يتعمقون فى الداخل .

وكانت قبيلة الأشـانتى ، باعتبارها مستودعا لاغلب هـذه التجـارة التى تصـل الى سـاحل الذهب من الأنحـاء الداخلية فى غرب القارة ، تتمتع بمركز متميز لكنه آيل للانهيار فى آن واحـد ؛ فقـد كانت الحروب المتكررة لاقتناص العبيد من ناحية والدفاع ضـد غارات الفانتى من ناحية أخرى ، عاملا على تشجيع نموها العسـكرى ، وكانت التجـارة ، وكذلك توفير الحماية ضـد سـكان السافانا ، تعتمد على التنظيم الدقيق لكل من التجـارة والتنظيم الحكومى . وقبل نهايـة القرن السـابع عشر كانت الأشـانتى قـد تغيرت طبيعتها من شعوب زراعية مسـالمة الى تحالف عسـكرى اتسـع نفوذه بالغزو أولا ، ثم بالتهديد والتحريض ، ولم يحل عـام ١٧٠١م حتى كان حلفاء الأشـانتى قـد أصبحوا أمة متماسكة تحت زعامة اوكمفو أنوكى Okomfo Anokye رئيس الكهنة لدى زعيم قبيلة الكوماسى « أحـد فروع الأشـانتى » . وتروى الأساطير أن أنوكى تلقى من السماء كرسيا ذهبيا يجمع بين أرواح القبـائل المتحالفة ، وأصبح رئيس قبائل الكوماسى حينئذ ملكا للأشانتى .

ولقـد تطورت منازعات الفانتى بالتدريج الى تعاون فيما بينهم ضـد مملكة الأشـانتى التى كانت تسيطر على منطقة الظهير ، وكان فى مقـدور الأشـانتى الاحتفاظ بوضع محصن ، ذلك أن قبائل السـافانا فى الشمال كانت تعتمد اعتمادا كليـا عليها فى الحصـول على الملـح وعلى الأدوات الأوربية الأخرى التى كانت الأشـانتى تحصل عليها بدورها من الفانتى .

ولمـا اشتد طلب أمريكـا على الرقيق فى أواخر القرن الثـامن عشر لجـأت الأشـانتى الى شراء كميات كبيرة من الذخائر والأسلحة من التجار الأوربيين ، وقـد سهلت هـذه الأسـلحة الجـديدة عمليات الغزو مما زاد فى أعـداد الرقيق الذين أمكن اقتناصهم من داخل القارة .

وتظهر السجلات الخاصـة بالرقيق ارتفاعا ملحوظا فى عـدد الأسرى من الرقيق المستجلبين من الداخل . ولقـد حاولت جيوش الأشـانتى بعد عام ١٨٠٥ أن تطرد الفانتى من الساحل لكى تكون علاقاتها مباشرة مع الأوربيين ، واحرزوا نجاحا مع الهولنديين الذين كانت لهم بعض المعاملات المباشرة معهم قبل ذلك . الا أن بريطانيا قامت بحماية الفانتى وتزعمت باقى المحطات الأوربية فى صد الغزاة من الأشانتى .

والى الشرق من منطقـة الفانتى كـانت تدور التجـارة مـع شعب « الجـا » الذى انتقل نحو الشـاطىء ليتصـل بالمحطـات البرتغالية . ولم يتمركز هؤلاء حول أكرا الا فى منتصف القرن السـابع عشر ، ولم يكن باستطاعتهم ايجاد وسيلة للاتصال بالداخل ، كما كان شـأن الأشـانتى والفانتى فى تجـارة الرقيق والملح ، وكان ذلك سببا فى فشل الدانماركيين فى الحصول على تيـار متدفق من العبيد كما كانت حـال بريطانيا وهولندا اللتين اعتمدتا على الفـانتى ، وذلك أن الدانماركيين كـانت معظم قلاعهم فى أرض الجـا الى الشرق من اكرا .

وقـد أسهمت تجـارة البرتغاليين فى منطقة « بنين » فى هبوط صناعة البرونز التى اشتهرت بها « بنين » و « الآيف » (Ife) — الا أن السماح بدخول السلاح النارى الى منطقة « بنين » مكنها من انشـاء امبراطورية ضخمـة تمتـد من لاجوس حتى دلتـا نهر النيجر . وبسـبب أطمـاع البرتغاليين فى الرقيق انسـاقت بنين لعمليـات غزو مستمرة ، وانحدرت خـلال القرن السـادس عشر من المهارة فى الفن ونظـام الحكم المركزى القوى والرخـاء ، الى حالة من اراقة الدماء والدمار الشـامل ، واصبح الرقيق ضحايا نظم وعادات جـديدة ؛ كالآضـاحى التى تقدم فى الطقوس

الدينية ؛ أو التسامى لشهرة الحربية ، هذا بالاضافة الى المنازعات وشهوات السلب التى وجدت تشجيعا وأصبحت القبائل المتجاورة تتحالف للحرب أو يقضى عليها نهائيا .

والى الخلف من (بنين) بالقرب من أبادان الحاليه فى نيجيريا كانت دولة « أويو » (Oyo) حيث تسكن اليوروبا التى كان لها تاريخ حافل فى نحت الأحجار وصناعات الحديد ثم البرونز منذ ما يقرب من ألف سنة مضت . وقد استخدمت الهوسا هنا نظاما متقدما للحكم ، لكن أرض الآيف ظلت مركز العقيدة الدينية خصوصا بعدأن انتقل الحاكم «الافين» (Alafin) الى أويو ، وصار العمل على تكوين نظام دفاعى أمرا هاما لأن دولة سنغاى المسلمة كانت تباشر ضغطا من الشمال ، كما كانت تباشر (بنين) ضغطا من الجنوب مما جعل التنظيم والاتحاد من أهم الأمور فى نهاية القرن السادس عشر . وكان من المعتاد أن يرسل جيش كل سنة ليحارب المناطق المجاورة كرمز للعظمة ولجلب الأسرى والعبيد . وقامت اليوروبا بانشاء عدد من المستعمرات فى الأراضى التى غزتها لتكوين كتله مركزها فى أويو وآيف . أما الدول البعيدة الأخرى مثل الداهومى فى الغرب ، فكانت تستغلها اليوروبا كمناطق للوقاية من خطر الغزو . ولا شك فى أنهم عرفوا الكثير من التنظيم الحكومى .

وقد بلغ الافين أوج قوته فى القرن الثامن عشر مباشرة بعد أن بدأ التجار الأوربيون يبحثون فى ساحل الذهب عن مصادر اضافية للرقيق ، وقام الافين بالاتجار عن طريق لاجوس — التى كانت قد انتزعت من مملكة بنين المنهارة — ولكنه لم يسمح بانشاء محطة دائمة للأوربيين فيها .

لقد بدأت الاتصالات الأولى بين الأوربيين والمنطقة التى تقع شرقى ساحل الذهب فى القرن السابع عشر ، وذلك باستثناء الغزوات الأولى للبرتغاليين . واختلف الوضع عنه فى ساحل الذهب ، فقد كانت هناك سلسلة من الدويلات الصغيرة على طول الساحل ؛ وأهمها عويضا (هوايدا) التى كانت على استعداد لاستئجار المحطات التجارية لتفتح طريقا الى المناطق الداخلية لجلب العبيد . ولكن الوضع يختلف عنه فى حالة الأشانتى ؛ اذ أن المقاطعة الداخلية كانت تحظى بنظام دقيق . وابتدأت الداهومى — التى تدربت على أيدى اليوروبا — فى الاغارة والقنص والمتاجرة بنجاح مع الأوربيين ، وأيقن ملك الداهومى أن الربح الفعلى

يكمن فى السيطرة على المنطقة الساحلية ، ونجح — فيما لم تنجح فيه الأشانتى — فى غزو الساحل ، حتى انه فيما بين ١٧٢٤ و ١٧٢٩ أفلح فى وضع الدول الوسيطة تحت سيطرة أعوانه ، وقام بالغاء سائر المعاهدات السابق ابرامها . وقام الداهوميون بادارة هذه المحطات بأنفسهم وبكفاية حتى ان التجار الأوربيين كانوا يجيئون الى تلك المنطقة بصفتهم تجارا فقط ، بعد أن يحصلوا على موافقة الداهومى ، كما كان تحديد سعر الرقيق يتم من جانب آبومى العاصمة الداخلية ، وكان الأوربيون راضين عن ذلك لما كان يوفره لهم من تكاليف ادارية كبيرة فى الرجال والمال .

وكان ملك الداهومى هو المسيطر المباشر على الاقتصاد مما حقق له ادارة حكومية ناجحة ونظاما للضرائب كان الملك يتولى مراقبته باستمرار حتى لا يستفحل أمره بما يتعارض مع رغبات الملك . وكان كل موظف فى المملكة بما فيهم الملك نفسه تابعا من الوجهة النظرية للملكة الأم التى كان يسود الاعتقاد بأنها هى التى تعطى المشورة ولكنها لم تسيطر على السلطة التنفيذية . وانسحب هذا الوضع بنحو ما على جيوش المملكة أيضا . وكان الداهوميون يعتمدون — فيما يتعلق بالاغارات لطلب الرقيق أو فى الاشتباكات العربية الرئيسية على فيلق من العذارى الأمزونيات ، فقد كن — بعكس الرجال — غير خاضعات لأحد . ومن الناحية الفنية كانت هذه الادارة القوية من جلاب الرقيق تابعة لـ (الافين) فى (أويو) — الذى أثبت أن قوته لا تهزم أبدا — وقد استطاع هذا الجيش من الأمزونيات أن يندفع تجاه الغرب ويواجه الأشانتى ، وفى عام ١٧٥٠ اتفق على خط للحدود بين الفريقين . أما عن المقاطعات الساحلية مثل واهيدا (Whydah) وأردرا الصغيرة (Little Ardra) وبوبو (باواباو Pawpaw) فقد كانت كثيرة الثورة على مستعبديها ، ولم تستطع داهومى أن تقيم اتصالات تجارية ، أو أن تغير على الامارات الاسلامية عبر النيجر ، ولذا فقد كانت تجارتها فى الرقيق أقل من تجارة الأشانتى الواسعة فى ساحل الذهب .

ولم تكن فى دلتا نهر النيجر دولة قوية الى جنوبى ساحل العبيد يمكن التعامل معها . وكان العبيد المستجلبون من هذه المنطقة يجرى بيعهم بأسعار منخفضة لأنهم كانوا لايتمتعون بأية مهارات بخلاف الزراعة ، كما أنهم لم يكونوا مرغوبا فيهم من جانب صغار تجار العبيد ، ولكن كانوا يؤدون المطلوب بالنسبة للمزارع الكبيرة فى البرازيل وفى حزام القطن فى أمريكا .

وبعد اختراع طريقة حلج القطن فى نهاية القرن الثامن عشر ازداد انتاج القطن زيادة سريعة ، واتضح لقباطنة السفن أن فى الامكان تحقيق أرباح من نقل هؤلاء العبيد غير المهرة من دلتا النيجر لازدياد الطلب عليهم . وكانت التجارة فى دلتا النيجر تتم فى بعض الأحيان عن طريق توريط أحد الزعماء الحاكمين ، الذين يقدر عددهم بالمئات ، بدفع مبلغ بسيط له كعربون لشراء عدد قليل من العبيد الذين أسروا فى الحروب المحلية الشائعة فى هذه المنطقة — ويتبع ذلك ان تتحرك سفينة الشحن مصعدة لبضعة أميال فى النهر وتبدأ محادثات جديدة بخصوص صفقة العبيد .

وكانت شحنات الرقيق فى بعض الأحوال تمثل السجناء من الأطراف المعارضة نتيجة حرب بين قبيلتين ، وربما كانت تلك الشحنات تتضمن أيضا بعض الرجال الذين يأسرهم قائد قبيلة ما فى فترة انتظار باخرة الشحن . وغالبا ما كانت المستودعات أو المحطات لا تستوعب الأعداد الكبيرة من العبيد ، فيقوم التجار بشرائهم وتكديسهم فى أماكن أخرى حتى تأتى الباخرة . وكانت الأحوال الصحية سيئة بالنسبة لهم حتى قبل أن تبحر بهم السفينة ، اذ لم يكن هناك نظام للتفتيش قبل ابحارها بمن فيها من الرقيق ، كما كانت تفعل داهومى . وترتب على ذلك بطبيعة الحال ان من وصل من الرقيق الى أمريكا فى تلك الآونة كانوا أقل صلاحية من الناحية الصحية وأقل فائدة من أولئك الذين استجلبوا فى القرون السابقة .

وفى أواخر القرن الثامن عشر كانت هاييتى تعتبر سوقا غير قابلة للاشباع ، وقام التجار من الفرنسيين بمزاولة هذه التجارة على ساحل الجابون مستخدمين نفس الطرق التى كان يستخدمها البريطانيون والبرتغاليون ، كما استطاعوا الحصول على ضحاياهم من البانتو مثلهم فى دلتا نهر النيجر . واستمرت البرتغال فى العمل فى مملكة الكنغو بطريقة غير رسمية ، الا أنها كانت مجزية كما كانت فى الأيام الأخيرة لتجربة المانيكونجو . وربما كانت التجارة الواردة من انجولا ، والتى كانت تخضع للاشراف الرسمى ، هى التى تأتى بأكبر أعداد من الرقيق منها فى باقى القطاعات فيما عدا ساحل الذهب . كما كان نمط هذه التجارة مباشرا وأبسط منه فى اى مكان آخر .

ولقد أمكن للزنوج الذين يجرى فى عروقهم الدم البرتغالى ولرؤساء قبائل البانتو أن يقدموا تيارا مستمرا من « المذنبين » ، سواء أكانوا مذنبين

حقا أم هو مجرد ادعاء ، وبأسرى الحروب الهاربين الذين كانوا يباعون لكل قادم الى المنطقة ، سواء أكان هولنديا أم بريطانيا أم فرنسيا أم برتغاليا ، وأكبر نسبة من عبيد انجولا هى تلك التى ذهبت الى البرازيل — وان كانوا قد انتشروا فى كل أنحاء العالم الجديد — الا أن تجارة البرتغال تغلغلت فى أعماق القارة حتى ٣٠٠ ميل مستنزفة كل انجولا الحالية ومعظم حوض الكنغو الأدنى .

وليست هناك احصائيات يمكن الاعتماد عليها تحدد لنا عدد الأفريقيين الذين تم جلبهم الى أمريكا ، وان كانت هناك بعض التقديرات القائلة بأنهم يتراوحون ما بين ٣ ملايين وما يزيد قليلا على ٢٠ مليونا ، ولربما أسهمت حركة مقاومة الرق التى نشطت فى أثناء القرن التاسع عشر فى ايجاد هذه البلبلة ، فكثير من سجلات بيع الرقيق اما فقدت واما تم اعدامها ، الا أن بعضا منها لا يزال موجودا يعطى تقديرات بالنسب المئوية للعبيد الذين لاقوا حتفهم فى أثناء تلك الرحلة الشاقة عبر المحيط . وكانت هذه النسب كما يلى : ١٢٪ للسفن الفرنسية ، و ١٧٪ للهولندية والبريطانية ، أما الخسائر البرتغالية فى هذا المجال فكانت نحو ١٥٪ .

وفى القرن التاسع عشر ، حينما ارتفع صوت دعاة الغاء تجارة الرقيق ، واقدم التجار على انتهاز آخر فرصة قبل انتهاء هذه التجاره ، ارتفعت هذه النسبة الى ما بين ٢٥ و ٣٠٪ .

وفى سنة ١٨٦٠ ، حينما انتهت معظم تجارة الرقيق ، كان هناك فى شمال أمريكا وجنوبها أعداد من السكان تنتمى الى أصل أفريقى تتراوح ما بين سبعة وثمانية ملايين شخص .

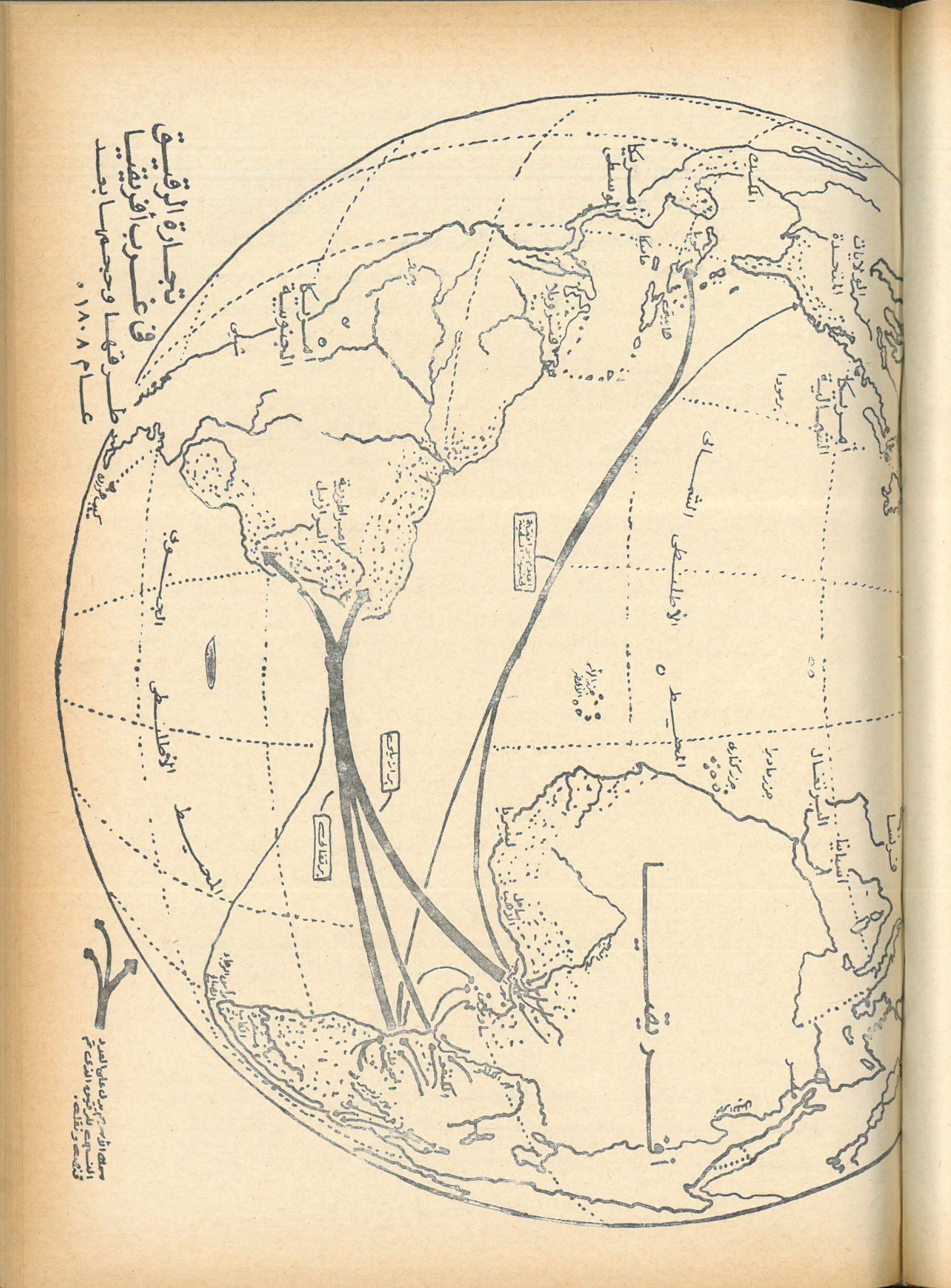
أما المناطق التى كانت توجد فيها احصائيات سكانية ترجع الى الجزء الأول من القرن التاسع عشر فيبدو — وحسب تلك الاحصائيات — أن ما بين ثلث أو نصف هؤلاء السكان كان نتيجة النمو الطبيعى ، وعلى ذلك فان العدد الذى أتى عن طريق أفريقيا كان ما بين ٥ر٣ و ٥ر٥ ملايين نسمة . فاذا ما أضيف أى رقم لمن هلكوا فى الطريق فان العدد

يبلغ من ٤ الى ٦ر٥ ملايين لأولئك الذين حملتهم السفن من أفريقيا فى الفترة ما بين ١٤٤١ و ١٨٨٠م .

ويبلغ عـدد من تم بيعهم فى الثلاث عشرة المستعمرة ٥٠٠ر٠٠٠ نسمة، قضى نصفهم بعض الوقت فى جزر الهند الغربية ، وما يقرب من ٥ر١ الى ٢ مليون وصلوا الى هـذه الجزر ، ولكن الولايات المتحـدة واسبانيا اشترتا ثلثهم . أما البرازيل فربما كانت قـد أخذت مليونا ونصف مليون ، ولكن لا يزيد بحـال من الأحـوال على ٣ ملايين نسمة ، فى حين أخـذت أوربا وجزيرة سـاوتومس وجنوب أفريقيا وعـدد آخر من المستوطنات المتفرقة من ¼ الى ½ مليون ، وهـذا يشير مرة أخرى الى أن ما بين ٣ر٥ و ٥ر٥ ملايين من العبيد الأفريقيين وصلوا الى الأسواق الأجنبية .

وانه لمن العسير الاجابـة عن السـؤال الذى يقول : من اى مكـان فى أفريقيا أتى هؤلاء العبيد ؟ ذلك أن احـدا لم يسـأل ، ولأن السـجلات التى كانوا يحتفظون بها قد أعدمت بواسطة الشركات والحكومات المعنية .
ولربما كان ثلثا الرقيق قـد أتوا من سـاحل الذهب وأنجولا بالتسـاوى ، الا أن هناك جهات أخرى كان لها وضـع خاص مثـل الكنغو فى القرنين السـادس عشر والتاسع عشر ، وسـاحل العبيد فى القرن الثامن عشر ، ودلتـا النيجر فى القرن التاسـع عشر . اما باقى الجهات فكانت موردا للرقيق بصورة متقطعة أو بحجم ضعيف ، وقامت البرتغال بالسيطرة على هـذه التجـارة فى القرنين الخامس عشر والسـادس عشر — أما هولندا فكان ذلك فى ثلاثـة أرباع القرن السـابع عشر ، وبريطانيـا فى السنين ما بين ١٦٧٢ و ١٨٠٨ . ثم بعـد ذلك كان البرتغـاليون بالاشتراك مـع الولايات المتحـدة والبرازيـل والاسبان والفرنسيون هم المسيطرين على تلك التجـارة .

وكان حجم هـذه التجـارة يختلف اختلافا شـديدا من قرن الى آخر الا أنه فى كل الظروف قامت كل من بريطانيا **والبرتغـال** بشحن نحو ٣٢٪ أو ٣٣٪ من مجمل الشحنات . أما هولندا فقـد شحنت نحو ١٨٪ منها ، وفرنسـا نحو ١٢٪ ، والولايات المتحدة (بعـد ١٧٨٣) نحو ٥٪ .



وقبل نهاية القرن الثامن عشر كانت موجة الاحتجاج ضد سوء المعامله والشكوك حول مدى مسايره استرقاق الانسان لمبادىء الأخلاق قد تردد صداها فى كل بلد أوربى ؛ وكان الأثر الناجم عن هذه الصيحه قد خلق وضعا جديدا وموقفا خاصا تجاه افريقيا وتغيرا جذريا أيضا فى الحياه داخل هذه القاره .

٥
محنة العدالة

لقد اعتقد الأوربيون قبل القرن الثامن عشر أن التقاليد الأفريقية ينبغى الحكم عليها طبقا للمقاييس الأفريقية . ولما كان الرقيق وتجارته معروفين من الأفريقيين فى فترات ما قبل التاريخ فقد اعتقد الأوربيون الذين اشتركوا فى تجارة الرقيق أن ما ينبغى لهم مراعاته هو مجرد الالتزام بالتقاليد الأفريقية فى هذا المجال ، ومحاولة نشر المسيحية كلما تسنى لهم ذلك ، وكان الانجيل — من وجهة نظرهم — ليس نظاما أو مبادىء للسلوك الاجتماعى ، لكنه رسالة للخلاص من هذا العالم ، ولذلك فقلما ارتفعت أصوات السخط فى أوربا ضد الرق خلال القرون الثلاثة الأولى للاستعمار . حقيقة ان قلة من الأوربيين هم الذين تهيأت لهم فرصة أن يروا عبدا ، أو أن يدركوا ما تتضمنه تلك التجارة بالنسبة الى الأفريقيين الأرقاء ، هذا باستثناء تجار الرقيق وما كانوا هم أنفسهم يملكون رقيقا .

لقد كان الاعتراض على تجارة الرقيق موجودا دائما،بل أن الكاثوليكيين البرتغاليين كثيرا ما احتجوا خلال ٤٥٠ سنة — هى عمر هذا النوع من التجارة — وارتفعت بعض الأصوات الشجاعة من آن لآخر ، فى انجلترا وبعض البلدان الأخرى.لكن قلة من الذين سمعوا هذه الأصوات كانوا يدركون كنه المشكلة . وحاولت كل يد أوربية من جانبها أن تنظم تجارة الرقيق أو أن تتأكد من عدالة ممارستها . فقد كان يفترض أن الرقيق يتم استجلابه طبقا للقانون الأفريقى ، بمعنى أن يتم جلب العبيد فى حرب « عادلة » من ناحية ، أو من ناحية أخرى يثبت أنهم كانوا مذنبين ، وأن يتم شراؤهم بعد ذلك بطريقة شرعية . ولأن رؤساء القبائل كانوا يميلون الى تضخيم قائمة المذنبين ، فكانوا يقومون باغارات لاداعى لها للحصول على الرقيق ، لم يكن لدى الأوربيين حينذاك وسيلة للتحقق ممن تم استرقاقهم بطريقة عادلة من غيرهم . وكان الخطأ أن تبسط النفوذ على اقليم تابع لأناس آخرين أو أن تحاول تطبيق الثقافة والقوانين الأوربية على المجتمعات البدائية . وكان ابرام المعاهدات يتم مع بعض القبائل التى تتحالف مع الأوربيين بقصد ضمان حمايتهم من الاسترقاق ،

وكذلك ضمان شرائهم للرقيق الذى تكون تلك القبائل قد حصلت عليه عن طريق الحرب أو التجارة مع جيرانها .

وقد أسهم هذا الوضع بطريقة مباشرة فى تنمية تجارة الرقيق ؛ ذلك أن الأوربيين كانوا يعتقدون أنهم يفعلون خيرا بشراء هؤلاء العبيد ، حيث كان فى اعتقادهم أن سادتهم الجدد من المسيحيين أكثر عدالة فى معاملتهم من ملاكهم الوثنيين ، كما أن العبد الذى يعتنق المسيحية كانت تضمن له حرية كاملة فضلا عن المساواة فى الحياة الأخرى ، وكان من المعتقد أن الأفريقى سوف يتعلم بمرور الوقت القيم الأخلاقية للعمل من خلال اسهامه فى بناء مجد المسيحية .

وكانت اسبانيا من دون كل القوى المسيحية تنظر الى تجارة الرقيق على أنها عملية غير مشروعة ، ولم تكن تسمح لسفنها أن تشترك فيها كما طبقت قوانينها بتحريم هذه التجارة بطريقة صارمة (هذا فيما عدا حالتين استثنائيتين هما قيام كريستوفر كولومبس باسترقاق بعض الهنود وحوكم على ذلك وسجن عام ١٥٠٠ ، والواقعة الأخرى الخاصة بمهربى القرن التاسع عشر عندما كان الأسطول الاسبانى من الضعف بالدرجة التى لم تمكنه من وقف تلك العمليات) وعلى كل حال فان امتلاك الرقيق كان مسموحا به ، بل ويجرى تشجيعه على أساس أنه يعود بالفائدة على كل من الأفريقيين والاسبان ، لكن سفن البرتغاليين والانجليز والهولنديين كانت هى التى تقوم بالدور الأكبر فى نقل الرقيق وتجارته .

وكانت محاولات الأوربيين لاحترام التقاليد الأفريقية سليمة من الناحية النظرية ، الا أنها كانت وخيمة العواقب من الناحية العملية ، لأنها خدمت الأوربيين دون أن تؤدى أية خدمة للاقتصاد الأفريقى . ولم يكن الاسترقاق الدائم أو اعتبار العبيد ملكية شخصية دون قيود وأنهم بند من بنود تجارة الجملة ، من التقاليد الأفريقية فى شىء ، كما أنه لم يكن من عادة الأوربيين من جهة أخرى أن يتملكوا بشرا أو يستغلوهم لفائدتهم الشخصية ، اذ أن مفهوم الملكية لديهم يعنى الحرية الكاملة فى التصرف فى الشىء المملوك . وهكذا حدث خلط بين تقاليد الأفريقيين

المتعلقة بالرق وبين مفهوم الملكية عند الأوربيين . وكان هذا الخلط فى المفهومات بين وجهتى النظر الأوربية والأفريقية سببا فى خلق جو من الارتباك والفساد والانحراف .

ولقد تزايد الهجوم على نظام الرق خلال القرن الثامن عشر نظرا لمناداة بعض الكتاب « التنويريين » مثل جون لوك وفولتير وجان جاك روسو بوجود قانون عالمى واحد ، وأن ما يعتبر عملا غير أخلاقى فى منطقة ما من العالم لابد أن يعتبر خطأ أيضا فى كل مكان آخر ، حيث أن كل البشر يخضعون لمنطق العقل ويمتلكون نفس الحقوق الطبيعية . وانتشرت الكتابات والتقارير عن الرق فى كل مكان وعلى صفحات الجرائد . لكن حركات النهضة الدينية ، وخاصة الحركات الجماهيرية التى انبعثت من جديد كحركة الميثوديين (*) فى انجلترا أعطت دفعة للحركة الانسانية . غير أن التجار وملاك الرقيق — حين وجدوا منطقهم القديم عاجزا عن اقناع أحد به — صاروا يركزون على حقوق الملكية والضرورات التجارية ، وحماية الاستثمارات ، الا أنه كلما زاد الجدل من أنصار النظرة المادية زاد رد الفعل من جانب المحبين للانسانية .

وفى عام ١٧٢٧ كان « مجتمع الأصدقاء » أول من أدان الرق ، وابتدأت جماعة الـ (Quakers) (**) فى انجلترا وبنسلفانيا فى تحرير ما لديها من الزنوج . وأثرت حركة جون وسلى — الميثوديين ومناداته بالمبادىء الأخلاقية — فى وليم ويلبرفورس السياسى البريطانى . وظهرت حركة « المجتمع المعادى للرق » Anti-Slavery Society فى انجلترا عام ١٧٦٥ بقيادة ويلبرفورس وأخذت على عاتقها اقناع البرلمان بأن من الخطأ امتلاك البشر فى أى مكان فى العالم ، واستطاعت هذه الحركة اقناع اللورد مانسفيلد (Mansfield) رئيس القضاة فى عام

(*) هى الحركة الدينية الاصلاحية التى قادها فى أكسفورد عام ١٧٢٩ تشارلز وجون وسلى فى محاولة للنهوض بالكنيسة الانجليزية . (المراجع) .

(**) طائفة نادت بالصداقة الانسانية ومقاومة الحرب والبساطة فى الملبس وكره الطقوس الخارجية . وكان يطلق عليها لفظ (طائفة الأصحاب أو الأصدقاء) . (المراجع) .

١٧٧٢ بأن القانون العام يحمى الحرية لكل الناس ، وعلى ذلك أصبحت انجلترا أول بلد يلغى الرق . وترتب على ذلك أن أصحاب المزارع فى مزارع جزر الهند الغربية لم يتمكنوا من أن يحضروا معهم عبيدهم الشخصيين الى انجلترا . لكن هذا القانون لم يطبق خارج نطاق الجزر البريطانية . وبقى بعد ذلك اقناع البرلمان البريطانى بأن هناك مستوى أخلاقيا موحدا ينبغى مراعاته فى شتى أرجاء الامبراطورية البريطانية .

وبصدور قانون سنة ١٨٠٧ صارت تجارة الرقيق فى المياه البريطانية وحركة التجارة بين جميع المستعمرات البريطانية محرمة ، وصار الأسطول الملكى البريطانى مسئولا عن مراقبة السفن البريطانية ، الا أن الحروب ضد نابليون حالت دون تنفيذ ذلك لعدة سنوات .

وكانت عدة سفن بريطانية لاتزال تعمل مستقرة تحت العلم الأمريكى رغم أن بحارتها من البريطانيين لتتمتع بالحصانة اذا ما فاجأتها دوريات الأسطول البريطانى . ولمنع هذا التحايل بدأت انجلترا تفتش السفن الأمريكية ، ولم تكن هناك طريقة مؤكدة للدلالة على أن هذه السفن الأمريكية تستغل للتجارة المعتادة أم تخص تاجر رقيق بريطانيا متهربا من القانون . ولذا فقد تعرضت بعض السفن التى تعمل بصفة مشروعة ، للتفتيش والبحث عن تجار الرقيق أو لاسباب أخرى مما أدى الى احتجاج أمريكا على ذلك ، وما ترتب عليه من قيام حرب عام ١٨١٢ (وتجدر الاشارة الى أن دستور الولايات المتحدة الذى وضع عام ١٧٨٧ يقضى بأن تقوم السفن الأمريكية بوقف التجارة فى الرقيق اعتبارا من ١٨٠٨ ، لكن هذه الفقرة من الدستور لم تنفذ حتى الحرب الأهلية) .

ولقد كانت هناك ثغرتان خطيرتان فى القانون البريطانى ، هما : أنه بمجرد أن يصل العبيد الى مستعمرات بريطانيا فان وضعهم القانونى يعتبر غير مخالف للقانون ، والثغرة الثانية هى استمرار مشروعية الرقيق فى الدول الأخرى . وكانت السبيل الوحيدة لمنع عمليات التهريب هى الغاء حوافزه . وعلى ذلك ففى عام ١٨٣٤ قام البرلمان البريطانى باصدار التعليمات اللازمة بتحرير كل العبيد الموجودين فى الامبراطورية ، لكن — بحكم النظرة القديمة لحقوق الملكية — خصص مبلغ ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه

استرلينى كتعويض لملاكهم السابقين . وكانت البرتغال من بين أكبر القوى الأجنبية التى تهتم بتجارة الرقيق . لكنها اتفقت فى عام ١٨١٥ على ألا تقوم بأى عمليات فى تجارة العبيد شمال خط الاستواء ، غير أنها نقضت اتفاقها لتشترى الرقيق بحرية من دلتا نهر النيجر وتقوم ببيعه فى جزر الهند الغربية . وفى عام ١٨١٨ أمكن لبريطانيا الحصول على حق تفتيش السفن الفرنسية والاستيلاء على ما تحمله من رقيق ، واضطرت البرتغال تدريجيا أن تخضع لذلك أيضا بالنسبة لسفنها . وكان نشاط البرتغاليين والبرازيليين المهربين مازال شديدا فى هذه التجارة مع قبائل اليوروبا عام ١٨٦١ ، واستمرت حركة التجارة بين أنجولا والبرازيل تسير بطريقة مشروعة ودون قيود حتى عام ١٨٧٨ . واستمرت هذه التجارة غير المشروعة قائمة لعقد آخر من الزمان ، الا أنها خبت بعد أن قامت البرازيل عام ١٨٨٨ بالغاء تجارة الرقيق ، ونشطت الدوريات البريطانية فى مطاردة الرق حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وكانت آخر واقعة تهريب قام الأسطول البريطانى باكتشافها عام ١٩٠١ .

ولقد ذهب بعض النقاد فى الآونة الأخيرة الى اتهام بريطانيا بأنها كانت تجبر الدول الأخرى على ترك تجارة الرقيق من أجل تحطيم اقتصادياتها وليس لدواعى الانسانية . ولا يمكن انكار أن بريطانيا كانت ترمى الى السيطرة على التجارة العالمية فى القرن التاسع عشر ، الا أنه من ناحية أخرى يبدو من العسير الاجابة على السؤال : لماذا تقوم بريطانيا بالعمل على انهيار تجارة الرق المربحة والتى كانت تحتكرها هى من الوجهة الفعلية .

ولم تنته مسئولية دعاة المبادىء الانسانية بالغاء تجارة الرقيق والحد من ملاك الرقيق ، فقد استمروا فى تحمل تلك المسئولية الانسانية وطالبوا الأوربيين بالاهتمام بالأرقاء المحررين فى أمريكا ، بل بأشكال الرق التقليدية الموجودة فى المجتمعات الأفريقية ، كذلك وجهت بريطانيا والولايات المتحدة جهودهما الى رقيق أمريكا السابقين . وكمنت المشكلة فى كيفية ايجاد وسيلة لاستيعاب هذا العنصر الجديد فى مجتمع البيض المغاير لمجتمعهم وعلى مستوى اقتصادى متفاوت . وجاء الحل باقتراح « محبى الانسانية »

ان يعاد الزنوج الى قارتهم الأم . ثم تبين للأوربيين بعد ذلك ان مشكلة المشكلات تكمن فى صعوبة ملائمة الرقيق المحررين مع التقاليد الأفريقية الأصلية .

ولقد واجهت بريطانيا مشكلة الزنوج المحررين لأول مرة فى نهاية الثورة الأمريكية ، ولقد حصل الزنوج — الهاربون من المستعمرات الأمريكية المتمردة الى نوفا سكوتيا Nova Scotia — على حريتهم مقابل ولائهم للتاج ، كما تم الاعتراف بحرية بعض آخر من الزنوج وتم ترحيلهم من جزيرة جاميكا ، عقب ثورة جماعية للرقيق ، الى كندا ، وأدى ذلك الى زيادة عدد الرقيق السابقين بها . أما الزنوج الذين كانوا فى انجلترا وتم تحريرهم بواسطة اللورد مانسفيلد عام ١٧٧٢م والزنوج الآخرون ممن تم الاستيلاء عليهم من قبل دوريات الأسطول الملكى من سفن نقل الرقيق فى الأطلنطى فقد أسهموا جميعا فى أزدياد حجم المشكلة .

وانتهى الرأى أمام هذه المشكلة الى الاعتقاد بأن الحل الوحيد هو اعادة هؤلاء الأفريقيين الى أوطانهم . الا أن عدم تفهم الأوربيين للفوارق القبلية فى أفريقيا حدا بهم الى الظن بأن العبيد المحررين سوف يكونون أكثر سعادة فى أى مكان فى قارتهم مما لو عاشوا فى مجتمعات أوربية غريبة عنهم . وفى هذا الاعتقاد تجاهل لحقيقة أن كثيرين من هؤلاء العبيد قد مارسوا وتشربوا الثقافة الأوربية والنظم الأوربية .

ولقد كانت أولى المشكلات عند اعادة توطين هؤلاء الزنوج هى تحديد الأماكن التى يحسن توطينهم فيها ، ولم يكن بالاستطاعة مثلا ارسالهم الى دولة منظمة مثل : الداهومى ، أو اليوروبا ، أو الأشانتى ، حيث كان ينتظرهم اما الفناء واما الاسترقاق مرة أخرى .

ولم تكن المناطق التى يسيطر عليها تجار الرقيق من البرتغاليين مثل : دلتا نهر النيجر ، وانجولا ، أو الكنغو ، من المناطق التى وقع عليها الاختيار ، كذلك فان قبائل الفانتى كانت ستعارض هذا التوطين — فلم يبق اذن الا المنطقة ما بين السنغال وساحل العاج ، فقد كانت لا تتمتع بأى تنظيم ، كما أنها كانت متناثرة السكان ، ومن ثم كان يمكن الحصول بسهولة على الأرض اللازمة ، وبالتالى تفادى استعباد من يجرى توطينهم مرة أخرى .

واحتارت بريطانيا وبعض من سموا بـ « محبى البشرية » من الأمريكيين مناطق من هذه المساحة فيما يعرف الآن بسيراليون وليبيريا ، ووصلت أول دفعة من المستوطنين من نوفا سكوتيا وانجلترا الى سيراليون تحت رعاية انجلترا سنة ١٧٨٧م ، ولقد اتسمت هذه الفكرة بالنبل وان لم يساندها لدى التطبيق تخطيط واقعى ، اذ رفضت القبائل الأصلية بيع الأرض لهذا الغرض ، فقد اعتبروا الدخلاء الجدد متطفلين عليهم . ففى أحسن الأوضاع يمكنهم استئجار منطقة صغيرة محدودة ، وعلى ذلك كان على المستوطنين الجدد أن يحصلوا على وظائف عند تجار الرقيق ويعملوا كوكلاء فى الميناء مع شركات الهند الغربية ، ولكن أحلامهم تبخرت تحت وطأة الأمراض المنتشرة هناك ، ثم اخيرا بهجوم ساحق عليهم من القبائل الأصلية عام ١٧٩٠ .

اما المحاولة الثانية لتوطينهم فكانت فى عام ١٧٩١ ، وقامت بها شركة سيراليون . والغريب ان الشركة عندما أرادت نقل هؤلاء المستوطنين الجدد من المحررين من نوفا سكوتيا اعتمدت فى تلك العملية على قنص وبيع الرقيق من سكان البلاد الأصليين لتغطية نفقات نقل وتوطين المستوطنين الجدد ودفع نفقات الادارة !! مما دعا البرلمان البريطانى فى عام ١٨٠٠ الى منح الشركة اعانة مالية ، كما منحها حق استخدام قوة بوليسية ، وبعد ثمانية أعوام استولت الحكومة على الشركة ثم صارت سيراليون مستعمرة تحت التاج البريطانى . ولما كانت التقاليد القبلية تقضى بأن تعتبر أرض تلك المنطقة ملكا لورثة من يزرعها ولا يمكن بيعها ، فقد اضطر المستوطنون الى استئجار أماكن للمدن التى يقيمون فيها وأراض أخرى للقيام بزراعتها . ولقد عارض المكتب الاستعمارى بشدة اى اتصال يجرى بين هؤلاء المستوطنين الجدد والقبائل الأصلية ، الا أنه لم يكن يدرك أن المستوطنين الجدد اذا لم يوفقوا فى التفاوض مع السكان الأصليين ليحصلوا على الأرض فانهم سوف يضطرون للحرب فى سبيلها أو يواجهون الهلاك جوعا .

وبعد اربعة عشر عاما من الجدل ، كان المستوطنون الجدد يعتمدون خلالها كلية على الهبات المقدمة من البرلمان وممن سموا أنصار الانسانية

(Philanthropists) ، سمح لهم بالمفاوضات الخاصة بالمعاهدات لتأجير أرض القبائل ، ولم يتسن لأحد من المهاجرين أن يشترى أراضى حتى نهاية القرن حين صدر قانون نقل الملكية البريطانى ليحل محل القوانين التقليدية ، وحين جعلت وسائل التكنولوجيا الحديثة بالامكان زراعة مساحات من المستنقعات لم يكن من المتيسر استغلالها من قبل . وأخذ هؤلاء الزنوج المستوردون بالنمط الأوربى فى ثقافتهم ونظرتهم الى الأمور وأسلوب معيشتهم بكيفية تختلف بوضوح عن المجتمع الأصلى الذى يعيشون بين ظهرانيه . ولم يتعد التأثير البريطانى الشريط الساحلى الذى احتله المستوطنون حتى القرن العشرين .

وكان أهتمام الولايات المتحدة بليبيريا ــ الذى تزايد بعد جيل تال لما سمى خطة سيراليون ــ مشروعا خاصا رغم أن بعض الشخصيات الرسمية فى الحكومة الفيدرالية كانوا يولون هذا الموضوع اهتمامهم كذلك . وقد رخص لجمعية الاستعمار الأمريكية The American Colonization Society فى عام ١٨١٦ بنقل الرقيق المحررين من المجتمع الأمريكى لتخليصه منهم ، وليس على أساس أنها حركة ضد الرقيق . وعلى الرغم من أن بعض أهل الولايات الجنوبية خلقوا بعض الاضطرابات باعلانهم أن الجمعية تستهدف استغلال الزنوج المتحررين ، فقد لقيت الجمعية معاونة ومساندة من أصحاب الرقيق والبيض الجنوبيين مثلما وجدتها من أتباع المذهب الانسانى فى الشمال . وقد تضمن تقرير تلك الجمعية فى سنة ١٨١٩ الآتى :

«ان أشكال الحكم الجديدة التى تسير على هدى أولئك الذين يمثلون الفخر والاعتزاز لأمريكا سوف تشهد مدى عمق التزاماتهم تجاه سادتهم السابقين ولسوف تغنى جموع الأجراء فى أثناء سفرها على شواطىء الكنغو بلغة تسجل الدستور والقانون والتاريخ الأمريكى ويرددون تراتيل الثناء لخالق الجنس البشرى كله » .

وبعد مرور سنتين تم شراء بعض الأراضى فى جنوب سيراليون ، وكانت باكورة الاقامة فى (منروفيا) التى سميت باسم رئيس الجمهورية الأمريكية الرئيس منرو ، وأصبحت عاصمة لبلاد مونسيرادو

(Monserrado) ، وساعدت سفن البحرية الأمريكية هؤلاء المستوطنين على الدفاع عن أنفسهم ضد هجمات أهل البلاد الأصليين . ولقد منحت شركة الاستعمار الأمريكى منطقة مونسيرادو وعاصمتها منروفيا دستورا بعد مرور أربع سنوات ، كما قامت هيئتان أخريان بانشاء مستوطنات لها الى الجنوب على الشاطىء (جمعية بنسلفانيا والميسيسبى للاستعمار)، (وجمعيه مريلاند) . وكانت كل من الجمعيتين متميزة عن الأخرى مما جعل كلا منهما منفصلة عن جيرانها . ولم يكن تحت حوزة هذه الشركات أكثر من ١٥٫٠٠٠ من العبيد السابقين ونحو ٥٫٠٠٠ من الزنوج الذين تم تحريرهم فى عرض البحر بواسطة الأسطول البريطانى .

وسرعان ما اتضح أن موارد البر والاحسان المحدودة ، ورفض معظم الرقيق المحررين الهجرة سوف يقف حائلا فى وجه اعادة توطينهم ، وبالتالى حل مشكلة أمريكا الاجتماعية . وقبل حلول عام ١٨٣٤ كانت « جمعية الاستعمار الأمريكية » قد ضمت اليها مستعمرتى بنسلفانيا والميسيسبى واندمجت المستعمرتان تحت اسم (ليبيريا) ، وتمكنت مدرسة القانون فى جامعة هارفارد من اعداد دستور نموذجى يقضى بوجود حاكم يعاونه مجلس مكون من عشرة من المستوطنين ، فى حين يحتفظ هو بحق الاعتراض « الفيتو » . لكن الليبيريين قاوموا هذه الخطة الى أن تنازلت « شركة الاستعمار الأمريكية » عن هذا الامتياز بعد مرور خمس سنوات من المفاوضات . واستقبلت ليبيريا أول حاكم زنجى لها عام ١٨٤١ ، وكان ذلك يعنى حصولها على نوع من الحكم الذاتى . وقد طالبت ليبيريا باستقلالها بعد عام ١٨٤٧ ، ولم تعارض شركة الاستعمار الأمريكية ولا الحكومة الأمريكية هذا الاتجاه ، ولكنها احتفظت بالاعتراف الرسمى بالاستقلال حتى تنتهى الحرب الأهلية . واستمرت السفن الأمريكية فى أثناء تلك الفترة فى حماية المستوطنين من الهجمات . أما مريلاند فقد استمرت منفصلة حتى تم ضمها الى ليبيريا باتفاق متبادل سنة ١٨٥٧ .

واستمرت الحكومة فى يد الليبيريين ــ « الأمريكيين » وأحفادهم ، وكانت هناك طبقة هشة من الحضارة تعتبر نسخة من المجتمع الزراعى لولايات الجنوب فى أمريكا ، حتى فى بعض الأحيان فى تقليد هذا المجتمع

فى عملية الاسترقاق . ولم يجرؤ هؤلاء المستوطنون على التوغل فى الداخل الى أبعد من نطاق مدفعية الأسطول الأمريكى الى أن تم حل الصراع بينهم وبين قبائل السكان الأصليين فى القرن العشرين .

ولم تقدم عملية اعادة التوطين على النحو المتقدم أى حل لمشكلة الزنوج فى الولايات المتحدة ولا فى جامايكا البريطانية ، وقد ساعد على خلق مشكلة استعمارية فى أفريقيا أن من أعيد توطينهم من الزنوج كانوا قد تأثروا بالبيئة الأوربية بدرجة جعلت من الصعب ادماجهم فى السكان الأصليين . ففى سيراليون كان على بريطانيا أن توائم بين مجتمعين من الزنوج بينهما قدر كبير من عدم التجانس ، كذلك الموجود من رعاياها البيض بين الزنوج الأصليين فى ممتلكاتها المتعددة الأجناس فى أفريقيا . أما ليبيريا فلم تصبح « نموذجا » يحتذى به وانما صارت بقوة متأثرة بالأسلوب الأوربى تقوم بالسيطرة على عناصر الزنوج المقيمين داخل المنطقة .

أما الى الشرق من هذه المنطقة بمحاذاة ساحل الذهب وساحل العبيد وشواطىء النيجر وفى منطقة السافانا حيث كانت تجارة الرقيق منتشرة بدرجة أكبر ، فان الغاء تجارة الرقيق خلق مشكلة جعلت القوى الأوربية تشعر بمسئوليتها فى ايجاد حل لها ، اذ أن استجلاب الرقيق من هذه المنطقة من أجل السوق الأمريكية استنزف السكان رغم أنها كانت من أكثر المناطق تركزا سكانيا . كما تسبب فى تشجيع أهل المنطقة على الحروب والتناحر ، وبالتالى فى اضمحلال التجارة والزراعة المشروعة فى الوقت الذى لم يقدم فيه الأوربيون أى شىء من الحضارة الأوربية سوى البضائع ، وأصبح التعليم المسيحى مجرد مظاهر سطحية حتى بين القبائل التى كانت تتعاطف مع الأوربيين .

وفى الوقت الذى كانت فيه أوربا — فى فترة تجارتها فى الرقيق — تمر بتغيرات اقتصاديه واجتماعية وثقافية أدت الى حضارتها الحديثة فقد كان يرجى للملكات الأفريقية أن تتجاوب مع هذه المؤثرات وتمتحن مدى خصبها واستعدادها للتطور . وبدلا من ذلك فقد تم توجيهها نحو نوع من التجارة لا يتضمن أى مؤثرات فكرية . وبعد ما يقرب من ٤٠٠ سنة ،

وحين تغيرت وجهة نظر الأوربيين وقاموا بوقف التجارة فى الرقيق ، شعرت كثير من الدول الأفريقية التى قامت اقتصادياتها على أساس هذه التجارة بالمرارة نتيجة لفقدان أسواقها . ولقد تسبب التهريب من ناحية ، وضغط أوربا لوقف الاسترقاق من ناحية أخرى فى نشوء موجة من الحروب اليائسة . وهبوط القوة الشرائية للقطاعات الاقتصادية التى تقوم على تجارة الرقيق أدى الى انتشار الفوضى والاضطرابات فى داخل القارة .

وقد صار من الواضح أن أوربا اذا كانت راغبة فى وقف هذه التجارة عبر الأطلنطى ، فان الأمر كان يقتضى منها أن تعمل على وقف الاسترقاق من منابعه أيضا لأن الحصار البحرى لم يستطع منع التهريب . ولجعل الاسترقاق عملا غير شرعى فى أفريقيا كان الأمر يقتضى تطبيق الفكرة الأوربية التى كانت تنادى بأن هناك قانونا ينبغى سريانه على العالم كله ، وأن تعلو هذه الفكرة على مستوى القانون الأفريقى الذى يجيز الاسترقاق .

وكانت فرصة الأوربيين لتطبيق ذلك مواتية على ساحل الذهب . وقد حاول الأوربيون من خلال القلاع والمحطات الدائمة التى كانوا يمتلكونها بمقتضى معاهدات مع قبائل الفانتى أن يدخلوا نوعا من التجارة المشروعة لتحل محل تجارة الرقيق . وادعى الأوربيون أن هذه المعاهدات لا يمكن أبطالها اذ كانت تتضمن التزاما من جانبهم بحماية قبائل الفانتى ضد اغارات قبائل الأشانتى فى الداخل . ففى عام ١٨٠٦ كان البريطانيون قد ساعدوا على صد مثل تلك الهجمات .

وحينما انتهت عمليات الاسترقاق كانت قبائل الأشانتى التى تلعب دور الوسيط فى هذه التجارة قد كررت هجماتها على الساحل . لكن البريطانيين والهولنديين والدانمركيين كانوا عند التزامهم ازاء صد هذه الهجمات التى استمرت من وقت تحريم هذه التجارة فى عام ١٨٠٧ حتى حل السلام فى المنطقة بعد انقضاء تسع سنوات . وخلال تلك الحروب استطاع الأشانتى الاستيلاء على أوراق هذه المعاهدات أو ما سمى « المذكرات » من قبائل الفانتى ، وكان المعمول به طبقا للتقاليد

ان مجرد الاستيلاء على هـذه المـذكرات يعنى أن يقوم الأوربيون بدفـع ايجـار هـذه المحطات للأشانتى .

وبعد حلول سلام سنة ١٨١٦ بدأ الصراع بين القوى الأوربية — لكى تحظى كل منها بالتجارة المشروعـة فى المنطقة — مشابها لذلك الصراع الذى كان دائرا بين الأشانتى والفانتى ، وسرعان ما تفوقت بريطانيا لأنها كانت لديها القدرة على أن تبيع فى هـذه المنطقة بدرجة أكبر بسبب تقدمها فى الصناعة ، وعلى ذلك صـارت لها السيطرة على سـاحل الذهب .

ودفعت كـل من بريطانيـا والدانيمرك وهولندا حلفاءها من الفـانتى للعمل ضـد الحلفاء الآخرين ، واتجهت كل قوة منها الى أن تفرض كيفية التصرف على الفـانتى فى محاولة لمنعهـا من الاتجـار بالرقيق . ولم يكن هـذا التصرف من جانب الأوربيين تصرفا شرعيا لأنهم لم يكونوا سـوى مستأجرين فى المنطقة ، لكن المظاهر السيئة التى احاطت بتجـارة الرقيق كانت فيما يبدو تبريرا لهذا التدخل من جانبهم . وكررت بريطانيـا اعـلان نيتها على ترك هـذه القلاع بمجرد أن تتخلى الفـانتى عن هـذه التجـارة وتتصـالح مع الأشانتى .

وقامت الأشـانتى بشن الهجمات مرة أخرى عـام ١٨٢٥ مما اضطر بريطانيا للبقـاء لمسـاعدة الفانتى ، وأسفر الوضـع عن أن بريطانيا بدلا من أن تصـد هجمات الأشانتى ، تمهيدا للانسحاب ، قامت بالاستيلاء على المعاهدات أو « المذكرات » من العدو ، وكان ذلك — طبقا للقانون المحلى — يعنى أن تصبح بريطانيا مالكة لتلك القـلاع . أما « مذكرات » الدانمركيين فقـد تم ارسالها الى كوبنهاجن كنوع من المجاملة لها من جانب بريطانيا . الا أن الأشـانتى احتفظت فى نفس الوقت بالمذكرات الهولندية . وصـار واضحا أن بريطانيا تورطت بدرجـة أكبر من السـابق فى المنطقة ، الا أن الحكومـة البريطانية أعلنت باستمرار عن نيتها فى ترك السـاحل ، وتم تنفيذ ذلك بعد ثلاث سنوات أخرى ، وتحولت المحطة الى لجنة لتجار لندن وانسحب الممثلون البريطانيون الرسميون من تلك المنطقة .

ولم تكن هناك مصالح أوربية شمالى نهر الكنغو فيما عـدا سيراليون وليبيريا ومستوطنة زراعية فرنسية فى السنغال . وحينما توقفت تجـارة الرقيـق انقطعت سـبل الاتصـال التجارى والحكومى مـع الداهومى

والجابون . أما البرتغال فقـد قصرت اتصالها الرسمى على أنجولا حيث ظلت التجارة مستمرة فى الرقيق بصفة شرعية خـلال معظم القرن التاسع عشر . وتدهورت أحوال الداهومى بسرعة سواء فى ثروتها أم فى أهميتها على الرغم من أن نظامها الملكى المطلق ونظامها الادارى والعسـكرى ظل قويا . أما دولة اليوروبا فقد تفككت الى مجموعات من الوحدات المتنافسة فيما بينها لمحاولة الاتصال ولو بطريقة متقطعة بتجار البرازيل والبرتغال . كذلك اضمحلت امبراطورية « بنين » . أمـا جزيرة لاجوس الرمليـة التى

كانت تتحكم فى الميناء على ساحل العبيد فقد احتفظت باستقلالها ، وذلك عن طريق الايقاع بين جيرانها بالتلويح بايجاد مدخل لمهربى الرقيق ، أو لاستيراد الملح والبضائع الأخرى .

اما الى الشرق من ساحل العبيد ، حيث دلتا النيجر — التى لم يكن بها أية محطة أوربية ولا دولة أفريقية تشتغل بالتجارة — فانه حين تم الغاء الرقيق لم تكن هناك مساحة من الأراضى يمكن الاستغناء عنها ولا اتفاقية معقودة للنظر فى وقف مفعولها ، وتم تشجيع التجارة فى زيت النخيل والعاج ليحل ذلك محل تجارة الرقيق ، الا أن المسألة التى كانت تشغل الأذهان هى كيفية طرد المهربين ، وكانت الوحدات القبلية من الصغر والضآلة بحيث لا يمكنها عقد معاهدات ضد تجارة الرقيق أو الدخول فى اتفاقيات لها قيمتها ، وكان الاعتقاد السائد هو ان دلتا نهر النيجر لا تتصل بالداخل ؛ ذلك أن مصاب هذا النهر المتعددة كان ينظر اليها ليس كدلتا نهر من الأنهار ولكن كمنطقة للخيرات عرفت باسم (أنهار الزيت) ، وكانت كلها تنبع من جبل هائل من الجرانيت يمتد فى كل الاقليم الى مسافة ما يقرب من مائة ميل . وكان المجرى الذى يتخذه النهر الأدنى والطريق الذى ينتهى اليها غير معروف حتى للمستكشفين الأوائل من الأوربيين الذين كانوا لا يعرفون الا الجزء الأعلى من النهر الذى يمر بمنطقة السافانا . وكانت الحكومة البريطانية تحاول أن تتنصل من مصالحها على الساحل كما لم يكن لها اهتمام مباشر بمنطقة انهار الزيت (Oil Rivers) الا انها كانت فى نفس الوقت تشجع الاستكشافات الجغرافية فى الداخل . وتمكن منجو بارك (*) من استكشاف مناطق كثيرة من نهر النيجر الأعلى

(*) جراح اسكتلندى كان يهوى الرحلات،وقد قام بجولتين لكشف مجرى النيجروبدأ رحلتيه من غرب القارة الأفريقية(من غمبيا)، وقد حقق فى رحلته منابع نهرى السنغال وغمبيا.كما اثبت أن النيجر يجرى للشرق،ومذكراته عن رحلاته منشورة.انظر :

— Park, Travels in the Interior of Africa (1799)

— Park, The Journal of a mission to the interior of Africa in 1805. (المراجع)

والأوسط وقد توفى فى بعض شلالاته الى جوار منطقة الهوسا عام ١٨٠٥ . أما هنريش بارث فقد استؤجر من المانيا ليعبر الصحراء لتقديم تقرير عن الأحوال الجغرافية والسياسية عن تلك المنطقة بعد ذلك بقليل (*) .

وفى عام ١٨٣٠ تمكن المستر كلابرتون ولاندر من عبور الصحراء وانزال قارب فى نهر النيجر ، وحين وصلا دلتا النيجر اثارا الدهشة حيث تقابلا مع التجار البريطانيين (**) . ولم تتابع الحكومة هذا الحدث ، الا أن التجار بدأوا منذ ذلك يستخدمون هذا النهر ، وبذلك خلقوا عداء لدى القبائل القاطنة عند مصبه ، كما استطاعوا أن ينجحوا فى تقليل حجم تيار العبيد الذى كان يأتى به المهربون الى دلتا النيجر ، وحلت التجارة المشروعة محل تجارة الرقيق (لم يكن المهربون يجرؤون على الدخول الى المياه التى توجد فيها السفن البريطانية) . على أن التجارة المشروعة كانت تحل محل تجارة الرقيق عن طريق المنافسة وبطريق المصادقة ، الا ان التجار لم يكونوا يتمتعون بأية مزايا كما لم يكن لهم فى تلك الأرجاء أية مستودعات لتجارتهم . وبعد حلول سنة ١٨٤٠ استطاع هؤلاء التجار وتلك القبائل التى كانت تقطن دلتا النهر أن يتبادلوا زيت النخيل مقابل المنتجات الأوربية .

وأمتدت آثار تجارة الرقيق الى الشمال وفى الداخل ؛ اذ انهار الاستقرار

(*) وصل بارث الى تونس ضمن حملة انجليزية لكشف وسائل تنشيط التجارة عبر الصحراء كوسيلة للقضاء على تجارة الرقيق ، وقد وصل الى (تمبكتو) ،ومشاهداته منشورة فى خمسة مجلدات،انظر :

Barth, H., Travels and Discoveries in North & Central : Africa (1849—1855). (المراجع)

(**) قام كلابرتون ولاندر برحلتهما هذه (١٨٢٥ — ١٨٢٧) أى انها سابقةعلى رحلة بارث.ولذا كان يجدر بالكاتب أن يراعى هذا الترتيب التاريخى فى ذكر هذه الرحلات.وقد مات كلابرتون فى هذه الرحلة فى ١٣ أبريل سنة ١٨٢٧، فالتاريخ الذى ذكره المؤلف بأعلاه يحتاج الى تصحيح . أنظر :

Clapperton, Narrative of a second expedition into the interior of Africa (1820). (المراجع)

السياسى والأزدهار الاقتصادى بسرعة منذ القرن السادس عشر . ثم كان اتجاه البرتغال الى ترك تجارة الذهب والملح ، مضافا الى قيام المغرب بغزواته الطامعة واتجاه القبائل الموجودة فى الغابات من المتاجرة شمالا مع نطاق السافانا الى المتاجرة باتجاه الشاطىء — كل ذلك أسهم فى هذا الأنهيار ، وكانت الهوسا أقل تلك المناطق تأثرا ، فقد كانت حكومتها المنظمة واحدة من الحكومات التى تتمتع بحكم ذاتى ، فلم تكن مثل حضارات السافانا التى كان اعتمادها الرئيسى على التجارة ، فقد كانت الهوسا تعتمد على الصناعة ، وبالأخص صنع الأقمشة والصلب .

وكان الاسلام قد دخل أرض الهوسا فى أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وتأثرت بدخوله نظم الحكم وآداب الهوسا ، الا أن التأثير الاسلامى كعقيدة دينية كان مجرد مظهر سطحى ، ولربما كان الاستقرار الذى تتمتع به الهوسا والأزدهار الاقتصادى سببا من أسباب اجتذاب قبائل الفولانى الرحل الذين كانوا لا يحبون الاسلام . واستمر الاسلام ينتشر ببطء فى القرون التالية حتى استطاع أن ينفذ الى أعماق الفولانى الرحل ، كما استطاع النفاذ الى أغوار مضيفيهم الهوسا من قبل .

وكان عثمان دان فوديو زعيم الفولانى ، على خلاف ما كان عليه معظم أتباعه الرعاة ، يعيش بين سكان الحضر مع الهوسا ، وعندما عاد من الحج عام ١٨٠٢ شرع فى الدعوة الى تنقية الاسلام مما ألم به من الشوائب ، ونهضت تحت امرته قبائل الفولانى المتعبدة للجهاد ، أو للحرب المقدسة . وفيما بين ١٨٠٤ — ١٨١٠ سقطت الدولة تلو الدولة ، بالاضافة الى أجزاء من أرض اليوروبا المجاورة ، وما تبقى من دولة سنغاى القديمة أمام توسع امبراطورية عثمان دان فوديو ، ودارت رحى الحرب ، وسرت موجة من الاضطراب ، وكانت الحرب سببا فى تدمير كثير من المخلفات — غير الاسلامية — التى تتعلق بحضارة الهوسا والتى يفتقدها الدارسون بشدة فى الوقت الحالى . أما النظام السياسى للدولة فلم يمسسه سوء لكونه يتبع التعاليم القرآنية . وكانت أمارات الهوسا تتبع الحاكم أو الامبراطور فى سوكوتو ، لكن عمل عثمان فوديو على أن يضع على رأس كل دولة من دول الهوسا أميرا فولانيا ، وعلى ذلك صار حكم امبراطورية

دان فوديويدار بواسطة زمرة صغيرة من الفولانى الذين فرضوا أنفسهم على نظام الهوسا القديم ، وصارت كل دولة من دول الهوسا تسير كما كانت عليه حالها منذ قرون .

وتم تطبيق الشريعة الاسلامية فى الدولة فى المنطقة التى تعرف حاليا باسم شمال نيجيريا . واتجه الفولانى الغازيون الى الاغارة لاقتناص العبيد ، خصوصا فى منطقة الجنوب الشرقى قرب مرتفعات الكميرون حيث اعتادت دول الهوسا على استجلاب الرقيق من قبل .

ولكن هؤلاء الرقيق لم يجدوا سوقا ، حيث كان طريق الأشانتى قد تم اغلاقه حين قامت بريطانيا بمنع التجارة فيه على الساحل ، كما أن الاتصال بالمهربين فى لاجوس أيضا كان مستحيلا حيث كانت دولة اليوروبا قد تفتتت الى شيع متنازعة .

ويبدو أن الطاقة البشرية للفولانى كانت عاجزة عن السيطرة على الهوسا الى ما لا نهاية ، وعندما خفت غلواء التعصب الدينى تسرب الفساد الى هذه الطبقة الحاكمة من الفولانى التى صارت أكثر تحيزا لأتباعها . وتحدت نظم الهوسا العتيقة وتقاليدها الراسخة سلطة الفولانى ، وأصبح ينظر الى الزعامة على أنها زعامة دينية فحسب . وفى أواخر القرن التاسع عشر ظهرت عدة دول تنزع الى الحكم الذاتى .

وقبل أن ينتهى جهاد عثمان دان فوديو قام قائد جيوشه المسمى أحمدو لوبو (Ahmadu Lobo) (*) بنقل حماسته الى أقليات الفولانى التى كانت تشكل أقليات متناثرة خلال منطقة السافانا . وباستثناء أرض الهوسا كانت أقوى جماعات الفولانى تعيش وسط قبائل الماندنجو الذين يسكنون المنطقة بين نهرى النيجر والسنغال الى الداخل قليلا من السنغال الفرنسى . وقلد أحمدو لوبو سلفه فى الاطاحة بمضيفيه من القبائل الأخرى ، الا أن حكمه الذى امتد ما بين ١٨١٠ و ١٨٤٤ كان غير ذى أهمية

(*) ادعى المهدية وأنه مبعوث العناية لانقاذ المجتمع الاسلامى فى هذا الجزء من أفريقيا . وقد انتشرت دعوته فى (ماسنه) وصادفت قبولا عظيما من الفولانيين ، ووجه أحمدو لوبو الكتب الى المسلمين فى أفريقيا كلها للاعتراف بمهديته ، وخلفه فى دعوته ابنه أحمدو شيخو . (المترجم) .

تاريخية مقارنا بردود الفعل التى أحدثها عند جيرانه . وقلده سمر الذى حكم منطقة فوتاجالون بعد سنة ١٨٣٨ وساموری (Samory) أحد غزاة قبائل الماندنجو فى السبعينيات من القرن التاسع عشر ، فقد وضع هؤلاء الرجال نهاية لحالة الفوضى والعزلة فى منطقة السافانا لأن توسعهم السريع جعلهم على صلة مباشرة بالأوربيين الذين تمكنوا فى ذلك الوقت من السيطرة على الداخل . وكانت القوى الأوربية تحس أن مسئوليتها لا تمتد الا الى الدول المتحالفة معها على طول الساحل ، وعلى ذلك فلم يكن يعنيها ما يجرى من أمور الى الداخل من الساحل ، كما كانت لا ترتبط بدول تلك المناطق الداخلية بروابط التجارة .

وقد كان من المفترض أن التجارة الحرة المشروعة تسهم فى رفاهية كل من البائع والمشترى ، وكانت حماية التجارة تدخل فى نطاق مسئولية وزارة الخارجية البريطانية لكنها لم تصنع شيئا فى هذا المجال سوى مطاردة سفن الرقيق . الا أن التجار البريطانيين أمكنهم طرد جميع العناصر الأوربية الأخرى بطريقة سلمية ؛ ذلك أن انجلترا كانت تنتج سلعا أكثر وتبيع بأسعار أرخص . وكانت بريطانيا تؤمن بالمنافسة الحرة . وقد اكتشفت أن ذلك كان لصالحها فى المقام الأول ، ورغم أن القوى الأخرى قبلت هذه الفكرة الا انه كان ينقصها توافر منتجاتها الصناعية والرغبة فى أن تزيح بريطانيا من المنطقة .

وكان من الأمور المنطقية لذلك أن ينسحب الوجود الرسمى البريطانى من ساحل الذهب عام ١٩٢٨ ولا يتبقى لبريطانيا أى اهتمام بتجارة دلتا النيجر ، وكان من المعتقد أنه ما دام السلام سائدا على الساحل فان « القوانين الطبيعية » التى تعمل وفق الضروريات الاقتصادية سوف تتحكم فى الظروف بما يحقق منفعة الأوربيين والأفريقيين على السواء . وبعد أن غادر البريطانيون ساحل العاج أنيطت الشئون البريطانية الدبلوماسية والتجارية بالمختصين الرسميين فى سيراليون ، أو كانت هذه الشئون تحال مباشرة الى لندن . واحتل التجار المحطات فى منطقة الفانتى وقاموا بمزاولة أعمالهم الخاصة فى دلتا النيجر باستقلال تام .

وتولت أمر تجارة ساحل الذهب لجنة خاصة من تجار لندن

(Committee of London Merchants) واختاروا جورج ماكلين (George Maclean) الذى كان يعمل ضابطا بالجيش ليتولى بحث موضوع اقامة سلام مع الأشانتى . ومن أجل حماية طريق تجارة الأشانتى التى كانت ضرورية — للصفقات التجارية — عين ماكلين نفسه حكما فى كل المنازعات التى تثور بين القبائل . لكن الحكومة البريطانية حذرت هذه اللجنة من أن الاستمرارفى عملها يعنى أن هناك ادارة أوربية فى المنطقة، وان هذا هو ما تحاول بريطانيا تفاديه ، ولكن ماكلين استمر فى سياسته لاعتقاده بأن التجارة لن تزدهر هنالك الا بأجراء تنظيم بين القبائل .

ولقد أدت صرامة ماكلين وتفانيه فى مهمته وصبره غير المحدود الى ايجاد جو من الهدوء والتعاون على ساحل الذهب لم يكن سائدا من قبل ، ووثق الأفريقيون فى أحكامه ، وكانت لديه المقدرة على تحمل الكلام الحاد والمفاوضات القبلية المطولة . وكان مستعدا للتنقل فى الداخل من غير حراسة عسكرية بعكس سياسة الحكومة البريطانية . واستطاع ان يطبق القانون الأوربى كأداة مكملة للعادات المحلية . ونتيجة لذلك انتشر نفوذه وصار محل احترام كل من الأشانتى والفانتى على السواء .

وفى عام ١٨٤٣ ابتدأت بريطانيا فى ابعاد رجال التجارة البريطانيين مخافة تورطها فى الشئون الوطنية ، واستأنف البريطانيون الرسميون الحكم المباشر على القلاع لذلك الغرض ، واتخذت الاجراءات لانقاص عدد من الارتباطات السياسية للتجار .

وقد تمكن ماكلين أيضا من ابرام هدنة بين الفانتى والأشانتى فى عام ١٨٣١ ، وقامت الحكومة البريطانية بالمحافظة عليها حتى عام ١٨٧١ ، لكن فى أغلب المسائل الأخرى كانت هناك حيرة مستمرة . وبعد الصلح مع الأشانتى بحلول الحكم البريطانى المباشر بدأ رجال الحكومة البريطانية يوجهون عنايتهم نحو المشكلات الفرعية التى كانت تفرق بين قبائل الفانتى من اجل نشر السلام والاستقرار على الساحل . وليسود السلام فى المنطقة الساحلية تم ابرام اتفاق جديد مع الفانتى عام ١٨٤٤ يقضى بحل المنازعات القبلية عن طريق التحكيم البريطانى .

ويمكن القول بأن هذا الاتفاق قد تم من أجل تدعيم مركز التجارة

البريطانية ويمكن النظر اليه أيضا على أنه خطة لتوفير الاستقرار في المنطقة قبل انسحاب الحكومة البريطانية منها ، وقد طالبت المعارضة البرلمانية بالانسحاب لتقليل النفقات ، الا أن الهدوء لم يتحقق ليمهد لذلك الانسحاب . ولقد شكلت تكاليف ادارة هذه المستعمرة مشكلة دائمة لأن دافعى الضرائب من البريطانيين كانوا يمقتون تلك التكاليف ، وكان التجار — وليست الحكومة — هم الذين يجنون أرباح تلك التجارة . ولم يكن من السهل فى ذات الوقت فرض تلك الضرائب عليهم ، لأن ذلك كان يتضمن السماح للمحطات الهولندية والدانمركية أن تبيع بضائعها بسعر أقل من مثيلاتها البريطانية . كما أن فرض مثل تلك العوائد يتنافى مع مبدأ حرية التجارة . وكان الحل الوحيد لهذا الوضع هو وضع اليد على المحطات الأجنبية التى كانت تحرض الفانتى على عدم الوحدة ، وبالتالى يمكن تحصيل العوائد من جميع قبائل الفانتى مباشرة .

وفى عام ١٨٥٠ قامت الدانيمرك ببيع متعلقاتها بمحض اختيارها واستردت بريطانيا أوراق الاتفاق التى كانت تعتبر بمثابة سند للملكية الدانمركية ، وبذلك خفت حدة الفوضى الناجمة من المنافسة ، وتمت الاستعانة بزعماء الفانتى فى جباية الضرائب من اتباعهم . وتذرعت بريطانيا بقانون سنة ١٨٤٤ لتبرير تدخلها فى المنطقة وأصدرت قانونا لفرض ضريبة الرأس (Head Tax) الا أنه لم يتم تحصيلها ، لأن زعماء الفانتى لم يستطيعوا جمع هذه الضريبة دون موافقة مواطنيهم .

وظلت المحطات الخاصة بالهولنديين متناثرة وسط المحطات البريطانية على طول ساحل الذهب ، وصارت قبائل الفانتى تتحالف مع قوة أوربية لتضرب قبائل أخرى تتحالف مع قوى أوربية أخرى ، وظلت الحال كذلك حتى اتفقت القوى الغربية فيما بينها فى عام ١٨٦٧ على تبادل المحطات أو القلاع بحيث أصبح النطاق الغربى من الساحل يتبع هولندا ، فى حين انتقل النطاق الشرقى منه الى بريطانيا ، وكان المأمول أن يسود السلام والوحدة بين القسمين ، وكان يمكن فرض (تعريفة) بسيطة لسد نفقات الادارة (وليس للأغراض الدفاعية) ، الا أنه مع ذلك حدث سوء تقدير حال دون انتشار السلام فى المنطقة ،

اذ شعرت قبائل الفانتى أن حلفاءها البريطانيين قد غدورا بهم بتسليمهم الى اعدائهم الهولنديين ، الا أن بريطانيا أخطرت الفانتى — سواء منهم من كان فى الشرق أم فى الغرب — أنها سوف تنسحب الى محطاتها ، وأنها سوف لا تحاول منذ ذلك الوقت حماية الفانتى ، وسوف لا تحاول أن تجعل من نفسها حكما فى شئونهم . وبدء تبادل المحطات بين الانجليز والهولنديين بمثابة انسحاب . واعتقد الفانتى أن هذا سوف يجعلهم فى حل من اتفاق عام ١٨٤٤ . ولا ندرى ماذا كانت وجهة نظر البريطانيين فى ذلك الوقت من ناحية هذا الاتفاق .

وأعلن أحد زعماء الفانتى نفسه ملكا باسم جون أجريج وأعلن أن المحاكم البريطانية لم تعد لها قوة قضائية على شعبه ، وقام بانشاء جيش وطنى . وانبرى فريق آخر من الفانتى ليوحدوا أنفسهم للدفاع عن كيانهم ضد الهولنديين وحلفائهم من الأشانتى الى الغرب والى الشمال .

وتبلور تحالف الفانتى فى ايجاد دولة لهم وصدور دستور ملكى عام ١٨٧١ (*) الذى نص على ملكية رياسية انتخابية وجمعية وطنية ، وهيئة قضائية دائمة ، وهيئة للتعليم العام . وسلمت نسخة من هذا الدستور بالطرق الدبلوماسية السليمة الى المحطات البريطانية ليحيطها علما به .

وقد هال بريطانيا تأثير ما فعله الفانتى فى اتفاقهم مع الهولنديين ، فتصرفت بطريقة أذهلت الفانتى ، اذ طلبت بريطانيا حق الاعتراض (Veto) على الدستور الملكى الذى اشتمت منه أن الفانتى يضمرون طرد الأوربيين بتحالفهم . وتزايدت العداوة بين الفانتى والأشانتى بسرعة ، الا أن الأوربيين كانوا يعتقدون أن الفانتى يتحالفون مع الأشانتى ، وأن على بريطانيا فى حالة تحول الحكم الذاتى الذى أقامته الفانتى الى نوع من الفوضى أن تعود مرة أخرى الى اقرار السلام فى المنطقة ، باعتبار أن الزنوج لم يصلوا الى الدرجة من الحضارة التى تسمح لهم بحكم أنفسهم — هذا على أن بريطانيا أدركت أن النظام

---

* Mankesim Constitution

الادارى الذى اقامته الفانتى سوف يكون أكثر صعوبة فى التعامل معه من معاملة زعماء القبائل التقليديين ، وبذا لا يتحقق السلام الذى تسعى اليه بريطانيا . وعلى ذلك تمكنت بريطانيا من استخدام حق الأعتراض على الدستور وقامت باحياء اتفاق سنة ١٨٤٤ مرة أخرى .

ولم تكن هولندا ترغب فى استخدام الشدة مع قبائل الفانتى ، فقد كانت تجارتها تعتمد على سهولة الاتصال بقبائل الاشانتى . وقد تأثرت تجارتها كثيرا برد فعل الفانتى ازاء تبادل القلاع بين كل من هولندا وبريطانيا ، ونظرا لضآلة حجم تجارة هولندا فقد رات فى عام ١٨٧٢ أن أفضل الحلول بالنسبة اليها هو بيع ممتلكاتها لبريطانيا . ولقد بدا لأول وهلة أن ذلك حل معقول لكثير من مشكلات ساحل الذهب — الا أنه أثار مشكلة كبرى .

فمنذ عام ١٨٢٥ كانت ملكية بريطانيا والدانيمرك لقلاعهما فى المنطقة تستند الى « المعاهدات » التى تم الحصول عليها من الأشانتى — أما المعاهدات الخاصة بهولندا فلم يتيسر الاستيلاء عليها ، وعلى ذلك ظلت محطاتهم مملوكة للأشانتى بما يستتبع ذلك من دفع ايجارها لهم . فعندما تم تبادل هذه المحطات مع بريطانيا عام ١٨٦٧ استمرت هولندا فى ارسال بعض الهدايا الى قبائل الاشانتى ، الا أن انجلترا لم تكن تدرك الآثار التى تترتب على ذلك حينما اشترت ممتلكات الهولنديين بعد خمس سنوات . وكانت انجلترا تنظر الى هذه الهدايا على أنها وسيلة لتشجيع التجارة التى كانت فى طريقها الى الاضمحلال .

ونظرا لأن الأشانتى كانت تعتبر هذه الهدايا بمثابة الايجار ، لكن بريطانيا تنكرت له واحتجت على ذلك وشفعته بهجوم على المناطق الساحلية . واعتقدت بريطانيا أنها بتطبيق أحكام الاتفاق الذى يجعل لها حق السلطة القضائية على كل الساحل يمكنها اقرار السلام والاستقرار فى المنطقة دون التورط فى الداخل وما يتضمنه ذلك من نفقات كبيرة . الا أن ما حدث فعلا كان هو توغلها فى الداخل على نطاق لم يسبق له مثيل مما استدعى قيامها بمراجعة ضرورية لسياستها سوف نعطيها مزيدا من العناية وبتفصيل أوسع فى الفصل السادس عشر .

ولم تتأثر الأحوال الاقتصادية فى دلتا النيجر بهذه الأزمات ، اذ تزايد حجم التجارة بسرعة لا سيما بعد استكشاف النهر ، حتى ان وزارة الخارجية البريطانية بعثت قنصلا لها بعد عام ١٨٤٩ اقام فى جزيرة فرناندو بو بعيدا عن الشاطىء لكن وضعه كان يسمح له بتقديم العون للتجار فى مفاوضاتهم مع رؤساء القبائل الموجودين فى دلتا النهر ، وقد خلق عدم التنظيم القبلى فى بعض الأحيان مشكلات خطيرة .

وكان التجار يطلبون من القنصل البريطانى بين الحين والآخر ان يقدم لهم المساندة بالطريق الدبلوماسى ، الا أن وزارة الخارجية البريطانية كانت ترفض ، باصرار ، التدخل فى هذه الشئون حتى عام ١٨٧٢ حينما صرح للقنصل بأن يقوم بفض المنازعات عن طريق التحكيم فى القضايا المتعلقة بالعقود ، كما صرح له بالعمل على تنظيم ارسال الحملات التأديبية مما استدعى بالتالى انتقاله الى كالابار (Calabar) على الساحل ، لكن الأمور كانت تحسم فى نطاق العلاقات الأجنبية وليس فى نطاق التنظيم السياسى .

ولم تكن لبريطانيا على ساحل العبيد سوى مصالح ضئيلة الأهمية ، لكن دوريات الأسطول البريطانى استمرت فى اعتراض عدد من سفن نقل الرقيق التى كانت تعمل بصفة غير شرعية بين لاجوس والبرازيل ، وبلغت المنافسة بين القبائل درجة كبيرة فى عام ١٨٥١ للسيطرة على عمليات تهريب الرقيق فى المنطقة . وسعت قبائل الداهومى الى السيطرة على الميناء وجهزت لذلك قوة بلغ عددها ١٨٫٠٠٠ مقاتل من قبائل الأمزون التى لا تقهر ، ولكن جنود قبائل لاجوس استطاعوا كسب المعركة ، كما تمكنوا بعد ذلك من قطع طريق التجارة المشروعة الى داهومى وأجزاء من اراضى اليوروبا .

وقامت بعد ذلك حرب أهلية بسبب النزاع على الحكم ، وانزعج اتباع المبدأ الانسانى فى انجلترا للفوضى التى حلت بهذه المنطقة ، وانتهى الأمر باحتلال ميناء لاجوس فقط من دون الأراضى المجاورة فى عام ١٨٦١ الأمر الذى أدى الى فرار تجار الرقيق من البرازيليين ، وأعيد فتح طرق التجارة مرة أخرى .

لقد اهتمت بريطانيا منفردة الى حد ما بغرب القارة خلال الثلاثة الأرباع الأولى من القرن التاسع عشر ، وحاولت دائما أن تقلل اهتمامها بتلك المنطقة،الا أنها وجدت أن حرية التجارة لن يكتب لها النجاح بدون التدخل المباشر للحكومة البريطانية . ولكن بحلول منتصف القرن التاسع عشر نجد أن المجال انفتح للغزو الاستعمارى والتنافس الدولى على تجزئة غرب أفريقيا وحكمها حكما استعماريا .

٦

من بلاد بونت إلى مدن " الزنج

لقد عاش الأقزام حول البحيرات العظمى منذ أزمنة سحيقة تعود الى ما قبل التاريخ ، لكن البوشمن كانوا يشكلون العنصر السكانى الغالب فى شرق وجنوب أفريقيا ، وحتى الآن لا تزال هناك مناطق يعيش فيها كل من العنصرين ، ويرجع الانتشار السكانى فى أفريقيا الى سلسلة من الموجات السكانية المتتابعة فى نظام بدأ يتضح للدارسين . ويبدو أن أول سلسلة من هذه الموجات البشرية كانت ضئيلة الحجم ، لا تزيد على كونها مجموعات متناثرة من الكوشيين الأفروآسيويين أو شعوب السيدامو الذين انتشروا من مرتفعات الحبشة نحو الجنوب منذ عدة قرون قبل ميلاد السيد المسيح .

ويعتقد علماء الآثار أن هؤلاء القوم الزراعيين قد ادخلوا معهم زراعة المدرجات الجبلية ، ونظام البناء بالأحجار المنحوتة ، كما ادخلوا معهم مجموعة من المحصولات الزراعية الجديدة ، ويبدو أنهم قد أبادوا فى طريقهم من صادفهم من الأقزام الذين كانوا يقطنون حول بحيرة فيكتوريا . والى الجنوب من هؤلاء الكوشيين كانت توجد اقوام من المتحدثين بلغة « الخواسان » الذين يبدو أنهم علموهم مبادىء صناعة الحديد ، وكان لهؤلاء الكوشيين رغم قلة أعدادهم ، أثر واضح فى المنطقة ، رغم قلة المخلفات التى تركوها .

لقد ذكر قدماء المصريين فى بعض نقوشهم ، الساحل الشمالى الشرقى لأفريقيا الذى كانوا يطلقون عليه اسم بلاد بونت . الا أن أهل سبأ الوافدين من بلاد اليمن كانوا أصحاب أول هجرة ذات أهمية وفدت الى المنطقة وأمكن اثباتها ، وكانت التجارة بين منتجات العرب والهنود وشرق أفريقيا تتم تحت اشرافهم . وكانت هناك بعض المراكز للتجارة فى المحصولات الاستوائية فى عصر الرومان بالقرب من خط الاستواء ، ولكن من المشكوك فيه أن تكون هناك أعداد كبيرة من الهنود ، أو حتى أى عدد منهم ، أو من الاندونيسيين ضمن سكان تلك المراكز فى ذلك الوقت . وعلى الرغم من أن طريقة صنع السفن كانت تتم على النمط الشرقى ،

وكذلك المحصولات المستخدمة ، الا انه يمكن القول بأن هذه الأشياء قد دخلت عن طريق اهل سبأ من خلال تجارتهم مع ساحل شرق افريقيا ولم تصل المنطقة بطريقة مباشرة .

ولم يكن الزنوج بين من يسكنون شرق افريقيا الى أن وفدت الطلائع الأولى من المتحدثين بلغة البانتو من الغابة بالقرب من البحيرات العظمى بين ٥٠٠ و ٨٠٠ ق.م. ورغم انهم كانوا يعرفون التنظيم العسكرى بشكل مبسط فى أثناء هجرتهم من الكميرون ، فمن المعتقد أن البانتو لاقوا صعوبة فى اثناء مرورهم بالدول الموجودة حينئذ على ساحل البحيرة والتى كان يسكنها عناصر الكوشيين المشتغلين بالزراعة . وأغلب الظن أن هؤلاء الزنوج نجحوا فى الاطاحة بتلك الدول بسبب تفوقهم العددى على الكوشيين ، وقاموا بعد ذلك بتقليد حضارتهم .

وهكذا ظهرت لنا الممالك الزنجية على شواطىء البحيرات العظمى ، فوجدنا مملكة البوجندا حول بحيرة فيكتوريا ، والبورنيورو على سواحل بحيرة البرت ، ورواندا واوروندى شمال بحيرة تنجانيقا ، وسادت لغة البانتوبين هذه الشعوب . أما الأقزام فى رواندا واوروندى الذين نجوا من غزوة الكوشيين « السيدامو » فقد اشتغلوا بالصيد والالتقاط ، وقد سادت بينهم انماط النظام ، وطريقة بناء المساكن ، والزراعة الكوشية . واندفعت موجة أخرى من زنوج البانتو ، ربما بعد ذلك بوقت قليل ، قادمة من الكنغو ، واستمر اندفاعها حتى المنطقة التى تسمى فى الوقت الحالى بتنزانيا ، ثم الى كينيا . وبعد أن تم احتلال منطقة البحيرات تبعت موجة أخرى شاطىء البحيرة للوصول الى الروديسيتين ونياسالاند . ويبدو أن البوشمن — على عكس الأقزام — قد هربوا نحو الجنوب أمام هذه الموجات المتتابعة ، كما يحتمل ايضا أن يكون الزنوج قد تمكنوا من ابادة بعضهم .

وقبيل الميلاد قرر التجار السبأيون أن ينتقلوا من اليمن وشبه الجزيرة العربية الى مرتفعات اثيوبيا لانها كانت أكثر خصبا ، واستطاعت بعض البعثات التبشيرية المسيحية أن تجعلهم يعتنقون الدين المسيحى فى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد — الا أن المنازعات فى المنطقة

حرمتهم من الملاحة ومن استعمار المنطقة . وكان صدامهم المتكرر مع سكان منطقة البحيرات واضح الأثر ، ولذا نجد أن العرب والفرس احتلوا مكانهم فى السيطرة على تجارة الساحل .

أما الزنوج السودانيون الذين يعيشون فى منطقة نهر النيل الأعلى فقد تأثروا لقرون عدة بالحضارة واللغة الكوشية من اثيوبيا التى تجاورهم . وقد وصلت الماشية الى الوادى عن طريق هذا الاتصال ، وعندما غزا السبأيون مرتفعات الحبشة فان كثيرا من الكوشيين هربوا الى الغرب طلبا للمأوى وسط الزنوج . وكان النيليون الذين يعتبرون خليطا من زنوج الكنغو واللغات الأفروآسيوية هم محصلة هذا الاختلاط .

وبدأ النيليون الرحل فى الانتشار تجاه البحيرات العظمى ، فاصطدموا بممالك البانتو هناك ، وفى النهاية سكن معظمهم مرتفعات كينيا وتنجانيقا ، الا أن مجموعتين منهم استطاعت أن تبقى فى بوغندا وبونيورو ورواندا — اورندى . ولخلو منطقة البحيرات من ذبابة تسى تسى ، فان قطعان النيليين قد أضافت عاملا جديدا الى اقتصاد البانتو فى هذه المنطقة ، ثم انتشر فن تربية الماشية الى الجنوب فى المرتفعات التى لا توجد فيها هذه الذبابة التى تسبب المرض المميت للماشية .

واستطاع النيليون الرعاة أن يصبحوا طبقة ممتازة فى بونيورو وبوجندا أكثر ممالك البحيرة تطرفا نحو الشمال . أما فى رواندا واوروندى فقد نجح هؤلاء النيليون فى شق طريقهم ولو بالقوة الى السلطان الفعلى ، وتولى الحكم . ومن بين هذه الممالك الجنوبية كونت قبائل الباتوسى النيلية (الواتوتسى Watutsi) ، ارستقراطية خاصة تحكمت فى باقى القبائل من جموع البانتو ، واتصفوا بخصائص عنصرية بارزة مثل ارتفاع القامة واحترامهم لأوقات العمل وأوقات الفراغ على حد سواء . ولعل الانسان كان يتوقع أن يجد هذه الصفات المميزة فى مجموعة مغايرة فى طريق التكوين حين تعود لقدرتها العسكرية ، والتى تنظر الى حرفة الرعى نظرة اشمئزاز . ورغم أن لغة البانتو قد حلت محل اللغة النيلية الا أن تربية الماشية ظلت هى أساس الاقتصاد .

ولقد اسهم النيليون فى بونيورو وبوجندا فى مساعدة رؤساء

القبائل من البانتو الذين منحوهم مزايا خاصة حتى صاروا يشبهون الملوك ذوى السلطة المطلقة . وأمكن السيطرة على هذه المناطق الشاسعة بنظام حكم مستقر دائم يتألف من سلطة قضائية وأخرى تنفيذية . وانتشر نفوذ البونيورو بسرعة عن طريق الغزو فى أثناء القرن الثامن عشر ، وقسمت الأراضى الى أحياء تحت ادارة زعماء القبائل الموالية لهم . وكان الملك يسافر بانتظام ليشرف على القطعان المتناثرة فى أرجاء المملكة ، وليشرف على شئون زعماء القبائل . ولذا لم يكن هناك مقر دائم للملك أو بهرجة فى الملبس أو غيره . ولم يظهر شأن مملكة بوجندا الا بعد أن بسطت بونيورو سلطانها أكثر من اللازم . وفى مستهل القرن التاسع عشر انطلقت ثورة فى منطقة التورو وكانت عاملا من عوامل تفتيت مملكة البونيورو .

وظهرت حينئذ بوجندا كقوة مسيطرة على بحيرة فيكتوريا . وكان الرعى فى المرتبة التالية لزراعة الذرة الرفيعة التى ازدهرت حول البحيرة . وكانت فرص التوسع أمام هذا المجتمع ضئيلة . لكن لأن بوجندا لم تكن تبدى مظاهر عدوانية لأحد ، فقد طلبت عدة قبائل مجاورة لها حمايتها ، وبدأت تدفع لها اتاوة منتظمة مقابل هذه الحماية . وكان رئيسهم ، ويدعى الكاباكا ، يقيم فى عاصمة دائمة ، يجلب له النيليون الدروع ويقدمون اليه القرابين وعدة مئات من المحاربين والقوارب الحربية ليتمكن من حماية حلفائه أو ليجبرهم على دفع الجزية . ورغم أن الكاباكا اعتمد فى تقلده مناصب الحكم على النيليين ، فان رعاياه كانوا يفضلون الزراعة المستقرة على الغزو . وكانت القبائل التى تدفع الجزية تتحول بعد مدة الى رعايا مساندين للكاباكا حيث كان يولى عليهم رؤساء من بينهم ممن يضع فيهم ثقته بدلا من احتلاله لأراضيهم بقوات من الباجندا أو الحكم الذين قد يسببون استياءهم (١) . وكان

---

(١) فى لغة البانتو يشتق من الاسم عدة اشتقاقات عن طريق تغيير الأداة فى بدء الكلمة الأصلية ، فمثلا كلمة Ganda يشتق منها :

Buganda = land of Ganda

Baganda = people of Ganda — Luganda = language of Ganda.

وبالمثل اشتقاق Bunyoro — Banyoro — Lunyoro من أصل الكلمة (Nyoro)

الكاباكا يسند الى هؤلاء الرؤساء المحليين شئون القضاء وجمع الضرائب . وبهذا وجد نوع من الحكم الذاتى بالاضافة الى الولاء للكاباكا .

ولم يكن هناك صراع بين السلطتين حتى عام ١٨٦٩ حين بدأت مملكة البونيورو فى التوسع من جديد واتصلت بالشعوب التى كانت تدفع الجزية للباجندا ، فنشأ صراع شديد ، الا أن وصول الأوربيين فى العقد التالى حال دون استمراره . وكان الأوربيون يعتقدون فى البداية أن الكاباكا أكثر لطفا وأكبر مرونة فى التفكير من نظيره ملك البونيورو كما كانت تقارير الرحالة تؤكد انسجام مجالس القضاء وأهمية الزراعة ودقة التنظيم الذى يتمتع به المحاربون والبحارة فى مملكة الباجندا ، فى الوقت الذى كانت فيه مقار اقامة ملك البونيورو غير منظمة وغير مجهزة ، الا أنه تبين أن ذلك كان راجعا بدرجة كبيرة الى أن مجالس البلاد فى البونيورو لم تكن لها صفة الدوام وأن الحكومة تقوم بادارة منطقة أكثر اتساعا واعتمادها على تبادل المنافع أقل من تلك التى توجد فى نظام البوجندا .

والى الجنوب الغربى من بوجندا وتورو وبونيورو توجد ممالك رواندا وأوروندى (رواندى) ، وهذه الممالك الخمس تتشابه جميعا فى كثير من المظاهر ، لكن رغم وجود بعض الخلافات فانها تتميز جميعها بتأثرها بحضارة النيليين . ولم تتأثر رواندا أورندى بموجة الكوشيين الأولى الا بمقدار ضئيل ، وعلى ذلك فان الأقزام فى هذه المنطقة ظلوا على قيد الحياة — ذلك أن الكوشيين كانوا عادة ممن يبيدون جماعات الأقزام التى تعترض طريقهم — كما أن البانتو فى هذه المنطقة كانوا أقل تنظيما حينما حل النيليون بأراضيهم ؛ اذ لم تصل اليهم مؤثرات « السيدامو » ليقلدوها . وكانت النتيجة أن هؤلاء الغزاة من النيليين لم يقتصر أثرهم على نقلهم حضارة السيدامو الى هؤلاء البانتو ، بل أصبحوا كذلك طبقة متميزة لهم السيطرة السياسية والاجتماعية .

ولم تكن لرواندا أورندى عواصم ثابتة ، اذ أن الحكام من الباتوتسى أقاموا بلاطا ملكيا متكاملا لكنه متنقل ويشبه النظام الاقطاعى . أما «الباهوتو» الذين كانوا يتحدثون لغة البانتو وهم يشكلون السكان القدامى

للمنطقة ، فقد انحط وضعهم الاجتماعى فصاروا مزارعين ، ولم يسمح لهم بالحرب أو بامتلاك الأراضى ، أى أصبحوا عبيدا ، وأصبح حق ملكية الأرض وحق تحصيل نسبة مئوية من منتجاتها مقصورا على ملك « الباتوتسى » الذى كان يجمع بين يديه السلطة المطلقة . أما الأقزام الموجودون فى تلك المنطقة ، والذين كان يطلق عليهم اسم باتو (Batwa) فكانت حرفتهم الصيد والحراسة والعمل كخدم شخصيين للملك ومن هم حوله من الطبقة الأرستقراطية . أما مهنة الرعى فكانت تعتبر من الامتيازات ، وعلى ذلك فقد كانت مقصورة على قبائل الباتوتسى الذين كانوا أيضا من المحاربين ملاك القطعان ، وكانت الطبقة الحاكمة تتمتع بالسلطة القضائية والهيمنة الاقتصادية فى كل اقليم .

أما قبائل البانتو التى هاجرت من منطقة البحيرات العظمى نحو الشرق فقد تعلموا فن تربية الماشية من قبائل الجلا من شعوب الكوشيين فى جنوب أثيوبيا ومرتفعات كينيا . ولم تتطلب المجتمعات القاطنة بين البحيرات العظمى والمحيط الهندى من البانتو أى تنظيم متكامل ، الا أنهم نقلوا بعض القوانين والتقاليد وبعض المراسم من جيرانهم من السيدامو الكوشيين والنيليين .

وفى أوائل القرن العاشر انتشرت قبائل البانتو على طول البحيرات العظمى حتى وصلت الى الشاطىء الجنوبى من نهر الزمبيزى ، وكان هؤلاء قد اكتسبوا مهارات فى صنع الحديد ، واستطاعوا أن يضيفوا اليها قطع الأحجار الذى تعلموه من الكوشيين المتناثرين بين قبائل البوشمن فى شرق القارة . وسار هؤلاء البانتو على طريقتهم المعتادة باستيعاب أو مطاردة أو ابادة من يعترض طريقهم من البوشمن . واستغل البانتو الرواسب الطينية الغنية بالمعادن الواقعة على مسافة ٢٠٠ ميل على جانبى الزمبيزى ، واهتموا بالزراعة فازدهرت ، وهكذا تمكنوا من اقامة تجارة رابحة مع العرب على طول ساحل المحيط الهندى فيما قبل عام ١٢٠٠م .

وكان الكوشيون قد قاموا ببعض صناعات التعدين والتجارة فى مستهل القرن السابع ، الا أن التجارة لم تزدهر الا بعد أن وصلت

أعداد كبيرة من قبائل البانتو الأولى التى أسمت نفسها بـ « السوزو » (Sotho) . وبعد أن حكم السوزو حوالى مائتى عام اجتاحتهم قبائل من البانتو تسمى « الشونا » الذين يبدو أنهم أتوا معهم بالماشية من خلال الممر الخالى من الأمراض والممتد من البحيرات العظمى . وفى عام ١٤٥٠م كانت الشونا قد أقامت مملكة وأعطت لحاكمها لقب المونوموتابا (Monomotapa) وبدأوا فى الاستقرار فى قرى صغيرة أحيطت بجدران من الحجر .

وكانت أعجب واكثر هذه المناطق اتساعا هى مدينة زمبابوى (*) حيث كانت هناك قرى مقامة من الخشب والطين منذ بداية الاشتغال بالتعدين فى القرن السابع . وكان الحجر قد تم استخدامه لبناء أماكن الاحتفالات منذ مدة طويلة ، الا أن صناعة الأحجار أمكن تحديد تاريخها حاليا بوجود امبراطورية الشونا التى حكمها المونوماتابا . وكان النظام السياسى للدولة يعتمد على الجزية المفروضة على القبائل المجاورة ، ولربما كانت واحدة من بين هذه القبائل هى التى أطاحت بالمونوماتابا حوالى عام ١٦٠٠م . واحتلت المدن المشيدة من الأحجار ثم اضافت اليها بعضا آخر من المبانى .

وبعد عام ١٦٩٣م أمكن لقبائل الروزوى Rozwi من البانتو أن تستولى على تلك المنطقة وتعيد بناء كثير من المبانى ، وتوسعت فى تشييد المبانى المصنوعة من الحجر فى جهات أخرى من جنوب روديسيا .

وفى عام ١٨٣٤م أمكن لقبائل الزولو الوافدة من الجنوب تحطيم الروزوى فعجل ذلك بنهاية عصر المبانى المصنوعة من الحجر . وليس من شك فى أن زنوج البانتو قد تعلموا وتأثروا بأفكار وفنون زمبابوى بدليل أنه فى زمن قريب نسبيا ، ربما فى الأربعينيات من

(*) ترتبط حضارة زمبابوى فى ذهن الروديسيين الأفريقيين بتاريخهم القومى ، فهى ترمز الى ماضيهم المجيد ، وبالتالى المستقبل المرتقب . ولعل هذا هو السبب فى أنه حتى الأحزاب الوطنية اليوم حرصت على أن تنتسب الى هذا الاسم العريق ، فقام اتحاد شعوب زمبابوى الأفريقية (زابو) . واتحاد زمبابوى الأفريقى القومى (زانو) .

القرن التاسع عشر ، كان يمكن مشاهدة بعض البنائين من قبائل البانتو يبنون بالأحجار بجوار شلالات بحيرة فيكتوريا ، كما كان يمكن مشاهدتهم أيضا فى العشرينيات من نفس القرن فى اقليم الترنسفال .

وهناك وجه شبه بين هذه المبانى الحجرية ومثيلاتها فى أثيوبيا مما يشير الى الأصول الكوشية الواحدة لهذا الفن . الا أن بعض النقوش كان يمكن أرجاعها الى البانتو فى حوض الكنغو ، وكانت التصميمات وطرق الاحتفالات تمثل قمة الفكر الوافد من مرتفعات الكميرون .

ولقد ورد فى تقارير العرب وصف عن تطور مملكة زمبابوى وبعض المبانى الأخرى للمونوموتابا ، كما قامت البعثات التبشيرية البرتغالية بزيارات لتلك المناطق عدة مرات وكتبت كثيرا عنها ، وقد أمكن باستخدام الكربون المشع ، وبفحص العظام ، والدراسات المتقدمة من قبائل البانتو ايضاح تاريخ هذه المدن المشيدة من الحجر .

ويرجع الغموض الذى اكتنف مملكة زمبابوى الى ثلاثة عوامل : هى ان احدا من المستكشفين الأوائل لم يقم بفحص هذه المخلفات من قبل ، والعامل الثانى أن البحث كان يتوقف لأن بعض المستكشفين الذين وصلوا الى هذه المخلفات كانوا يعبثون بها قبل أن يكون الباحثون قد تمكنوا من دراستها . لذلك لزم كثير من التنقيب والحفر ومزيد من الصبر قبل الوصول الى كنه هذه المعضلة . أما العامل الثالث فيرجع الى أن كثيرا من الزائرين لمملكة زمبابوى كانوا يستنتجون نظريات خيالية تفترض أن الزنوج لم يكونوا على مستوى من الحضارة يرقى الى درجة استخدام الحجر فى البناء .

وكثير مما قيل عن زمبابوى ليس محققا الا أن الأطار العام واضح للجميع . فهناك اختلافات طفيفة فى المعالم الرئيسية للحضارة بين المتخصصين الذين قاموا بفحص موقع زمبابوى (١) .

---

(١) تعتبر المصادر الآتية اهم ما كتب عن زمبابوى :

(أ)

Gertrude Caton Thompson, The Zimbabwe Culture, Ruins and Reactions (London, 1931).

(ب) ملاحظات حديثة للكاتب ديسموند كلارك فى مؤلفه :

J. Desmond Clark, The Prehistory of South Africa, Harmonds-
= words, 1959, pp. 289 - 313.

ومن المعلوم أن ساحل شرق أفريقيا يتميز بأنه عبارة عن شريط ضيق رملى يعوق التوغل منه الى الداخل للغابات والمرتفعات ، وترتب على ذلك انه لم يكن هناك،حتى القرن التاسع عشر،توغل الى الداخل الافى حالات نادرة . ولقد أمكن للعرب من اهل سبأ اقامة تجارة ضئيلة الحجم مع الكوشيين الموجودين فى شرق أفريقيا ، الا أن هذه التجارة اضمحلت حين انصرف السبأيون الى غزو أثيوبيا فى أوائل العصر المسيحى . ولربما كانت هناك مستوطنات على الساحل الا أنها لم تكن ذات أثر واضح على ساحل شرق أفريقيا ، ولقد أنشأ بعض العرب الذين حلوا محلهم على الساحل الشرقى تجارة غير منتظمة مع الكوشيين من المشتغلين بالتعدين فى وادى نهر الزمبيزى — الا أن التطور العميق لم يتم الا بعد أن وصلت قبائل البانتو الى المنطقة ، وكان التنظيم العربى قد اكتمل بنيانه .

ورغم أن الاسلام كان قد انتشر بين شتى القبائل العربية فى شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع ، الا أن الوحدة السياسية لم يكن قد اكتمل تحقيقها ، وبقى البدو فى عمان على الطرف الشرقى من شبه الجزيرة مستقلين ، لأنهم كانوا يتجهون باهتمامهم فى شئون معيشتهم نحو البحر اكثر مما كانوا يتجهون الى الداخل نحو الصحراء . ولم يكن لهم خرج سوى ميناء (مسقط) ، واستطاعوا ايجاد حكم مركزى لهم متمثلا فى امامة عمان نتيجة تأثرهم بنظرية الحكم فى الاسلام حو عام ٧٥٠م .

ولم يكن لدى قبائل عمان الذين يقطنون الصحراء منتجات ذات قيمة يمكن لهم المتاجرة فيها ، لذلك وجدوا أن الأرباح المغرية تكمن بالنسبة لهم فى أعمال القرصنة والقيام بنقل بضائع الآخرين . لذلك نجدهم ينشئون مستودعات فى الهند وبلاد فارس وشرق أفريقيا ، وكانت تلك

= (جـ) ملخص للجدل الذى أثير حول زمبابوى للكاتب بازل ديفدسون فى مؤلفه :

Basil Davidson, Old Africa Rediscovered (London, 1960), pp. 199 - 230.

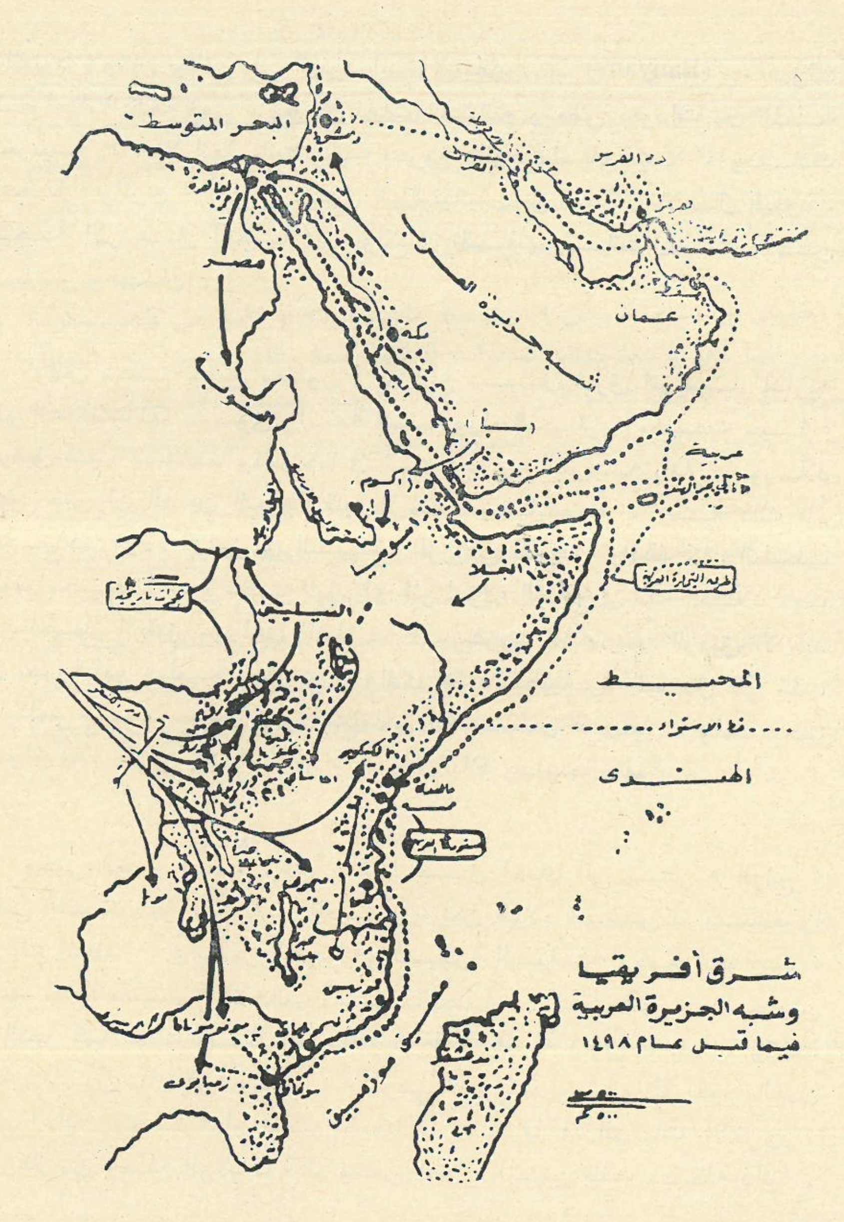
التجـارة تقوم على تبـادل الذهب والرقيق من أفريقيا مقابل الأقمشــة والأدوات المنزلية التى كانت تنتجها كل من الهند وفارس .

وكان السبئيون فى أثيوبيا يهاجمون بعض الســودانيين من النيليين والزنوج ويأسرونهم لبيعهم فى أسـواق الرقيق فى فارس الا أن الجـادلات العقائدية والتنـازع على النفوذ وثورات العبيـد اخلت بالسلام والازدهار فى بـلاد فارس فى القرن التاسـع ، وتمكن المرتزقة من الأتراك من انتزاع سـلطة الخليفـة وطالب الأشراف من أهـل فارس بالسيطرة السياسية والقيـام بمراجعـة تعاليم الاسـلام ، وهلك بسبب ذلك قوم كثيرون وفر آخرون لطلب المـأوى مستخدمين سـفن العمانيين . وقـد أمكن نقـل هؤلاء الى سـاحل شرق أفريقيـا حيث سـاعدهم تجـار عمـان علـى انشـاء « مهـاجر » دائمـة ، وأصبحت عمان هى التى تتولى الحمايـة والوصاية عليهم . الا أن المـدن كانت تأخذ الطراز الفارسى ولكنها لا تدين بالتبعية السياسية لأى جهـة .

وكانت المهاجر المتـدة من الزمبيزى الى ما يسمى حاليـا بالصومال تسمى فى مجموعها بالزنوج Zenj ، وهى الكلمة العربيـة المرادفة لكلمة الحبش (*) . لكن هـذه المهاجر لم يكن يجمعها تنظيم مركزى ، وكانت كل مدينـة على هيئـة ولاية تبنى فوق جزيرة من الجزر لتكون فى مأمن من الهجوم ومن مواطن المرض فى الوقت ذاته ، وذلك فيما عـدا التجـارة التى بدأت فى القرن التالى تتطور وتنمو مع داخل القـارة بعـد وصول قبـائل البانتو ، وذلك بايجـاد نوع من الاتصـال مـع داخل أفريقيا . وانشئت المزارع لزراعـة النخيـل على الجزر فى البدايـة ثم امتـدت على الشريط السـاحلى . وقـد أمكن الحصـول على الرقيق للعمل فى هـذه المزارع بسهولة حيث لم يكن البانتو الذين وصـلوا الى السـاحل يتمتعون بتنظيم قوى ، وكلمـا اسـتقر من سموا بالزنج فى مهاجرهم تزايدت التجـارة

(*) يطلق بعض الكتاب على تلك المهاجر اسم ممالك الطراز نظرا لأنها كانت تأخذ شكل الطراز الاسلامى فى مبانيها ونظمها . (المترجم) .

— أنظر: المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام — نشره الدكتور رنك . (المراجع) .



بسرعة ، ولما وجـد رجـال الأعمـال من الهنود الفرص المغرية على السـاحل بدأوا السيطرة على الملاحـة واعمـال البنوك ونواحى النشاط الزراعى المختلفة . وأصبح العمانيون والعرب القادمون من فارس طبقـة حاكمـة مرفهة . وابتدأت الثقافة السواحيلية المختلفة فى الظهور بفعـل مختلف الفئات الذين عملوا على السـاحل من قبـائل البانتو ومن العرب

والهنود (وكان يطلق على الهنود اسم البنيانيين) (Banyans) . « وأما السواحيلية كلغة فهى مزيج من لغات البانتو وبعض مفردات من اللغة العربية » ، الا أنها كانت تكتب بحروف الهجاء العربية . وسادت التجارة وأثرى الحكام المسلمون ، والبنيانيون من رجال الأعمال الهنود ، نتيجة الازدهار التجارى ، ولكن ثقافتهم كانت مستمدة من فارس وعمان .

وكان معظم الرقيق يعملون فى مزارع ساحل شرق أفريقيا المدارية ولو أنه كانت لهم سوق واسعة فيما وراء البحار . وأضحت حيازة الرقيق شيئا مستحدثا ومستدبا فى شبه الجزيرة العربية وفارس وبلاد الهند حتى ان الصين اشترت قليلا منهم فيما بعد . ومع ذلك فلم يستخدم هؤلاء الرقيق فى النشاط الزراعى المعقد ، ولذلك كان الطلب عليهم محدودا ، ولا نجد اليوم أى أثر لهؤلاء الزنوج فى تلك البلاد حيث كان تجار الرقيق من أهل المنطقة لا يصدرون الذكور من الرقيق الا بعد أن يجروا لهم عملية تعقيم . وأدى هذا بطبيعة الحال الى وقف تناسلهم ، كما ساعد على استئناس الخدم من الرقيق ، وأصبحت أسواق بلاد الزنج كفيلة بامداد هذه البلاد بحاجتها منهم .

وحتى القرن الخامس عشر كانت تصل أحيانا الى مدن « الزنج » بعض السفن من كانتون فى الصين ، لكن هؤلاء الصينيين لم يستقروا فى تلك المنطقة . واستمر العرب فى السيطرة السياسية وجمع العوائد ، لكنهم كانوا يسمحون للأجانب بالعمل بالتجارة ، فعمل الهنود والصينيون فى البحر كما عملت قبائل البانتو داخل منطقة شرق أفريقيا . وكانت بعض المدن مثل كلوة وممبسة تفرض الضرائب لحسابها أو تقوم بالعمل على اعاقة التجارة أو تباشر ضغطا عسكريا فى الولايات الأخرى . لكن كلا من هذه الولايات ، أو بمعنى آخر ، المدن ظلت مستقلة ذاتيا .

والواقع أن كل مدينة فى تلك المنطقة التى سميت كما أسلفنا مدن الزنج (Zenj Cities) كانت تختلف فيما بينها تماما . فقد كانت مالندى وممبسة على ساحل كينيا مشهورتين بالمزارع الواسعة مع قيام ممبسة بالسيطرة على تصدير الرقيق . أما كلوة فى الساحل

الجنوبى لما يسمى الآن باسم تنزانيا فقد تخصصت فى تجارة الرقيق أيضا ، هذا فى حين كانت تجارة الذهب الآتية من زمبابوى تمر خلال ميناء (سوفالا) على مصب الزمبيزى . أما مدينة موزمبيق فنظرا لعدم وجود تجارة لها مع الداخل فقد اعتمدت بصفة أساسية على السيطرة على طريق موزمبيق التجارى وبعض المزارع .

وكان وضع المدن لا يرتبط بالزراعة أو النواحى العسكرية فقط ، وانما كان يرتبط كذلك بهجرات البانتو اليها والتى لم يكن من السهل التحكم فيها . فقد كانت الزراعة وتجارة الرقيق يصيبها الاضمحلال لو أن الزنوج غادروا المنطقة أو عز الحصول عليهم بأجور أو أثمان مناسبة .

أما ازدهار العرب من الوجهة التجارية والسياسية الذى دعمه فيض من القوة العاملة من قبائل البانتو من ناحية ، وورود مزيد من المنتجات التعدينية من الداخل من ناحية أخرى — فلم يلبث أن حلت به كارثة فى القرن الخامس عشر . ففى ذلك الوقت ذهب فاسكودا جاما الى المنطقة آتيا من رأس الرجاء الصالح حاملا معه العلم البرتغالى واستولى الأوربيون على تلك المنطقة المسماة بولايات الزنج التى كان العرب قد برعوا فى انشائها وأخذوا فى ادارتها .

٧

إمبراطوريات ساحل أفريقيا الشرق

كانت كلوة فى نهاية القرن الخامس عشر تسيطر على باقى المدن العربية فى الجزء الجنوبى من ساحل شرق أفريقيا ، فى حين كانت ممبسة تسيطر على المدن التى تقع فى الجزء الشمالى من الساحل . وحينما شق أسطول فاسكودا جاما طريقه الى ساحل شرق أفريقيا فى مارس ١٤٩٨ كانت موزمبيق أول ميناء تم اكتشافه فى تلك المنطقة . ولقد ظن العرب فى أول الأمر أن السفن البرتغالية تقل تجارا جددا من المسلمين، كما اعتقد البرتغاليون أنه قد تم لهم اكتشاف المملكة المسيحية المنشودة، مملكة القديس يوحنا (Prester John) .

ولكن سرعان ما تبددت هذه الظنون وقام فاسكودا جاما بمهاجمة مدينة بعد أخرى والاستيلاء عليها ، حتى المدن التى كانت تبدى تعاطفها مع البرتغاليين . وليس واضحا سبب هذا الموقف الذى اتخذه فاسكودا جاما من تلك المدن ، هل كانت الحماسة الدينية هى التى تدفعه الى ذلك ، أم الخوف من قوة العرب والعمل على كسر شوكتهم وقتل روحهم المعنوية . وكانت مالندى فقط من بين مدن تلك المنطقة كلها هى الوحيدة التى تغاضت عن سلوك فاسكودا جاما وأسمت نفسها « صديقة البرتغاليين » .

ولقد كانت الهند وجزر الهند الشرقية هى الهدف النهائى للبرتغاليين .. ففى ١٥٠٩ — ١٥١٠ أرسلت حملة عسكرية برتغالية بقيادة ألفونسو البوكيرك Alfonso d'Albuquerque كان هدفها هو السيطرة على طرق التجارة الخارجة من المراكز التجارية العربية والهندية والملاوية (١) ، وصارت موزمبيق فى أفريقيا وهرمس فى بلاد فارس وملقا فى مضايق

(١) نسبة الى شبه جزيرة الملايو . (المراجع) .

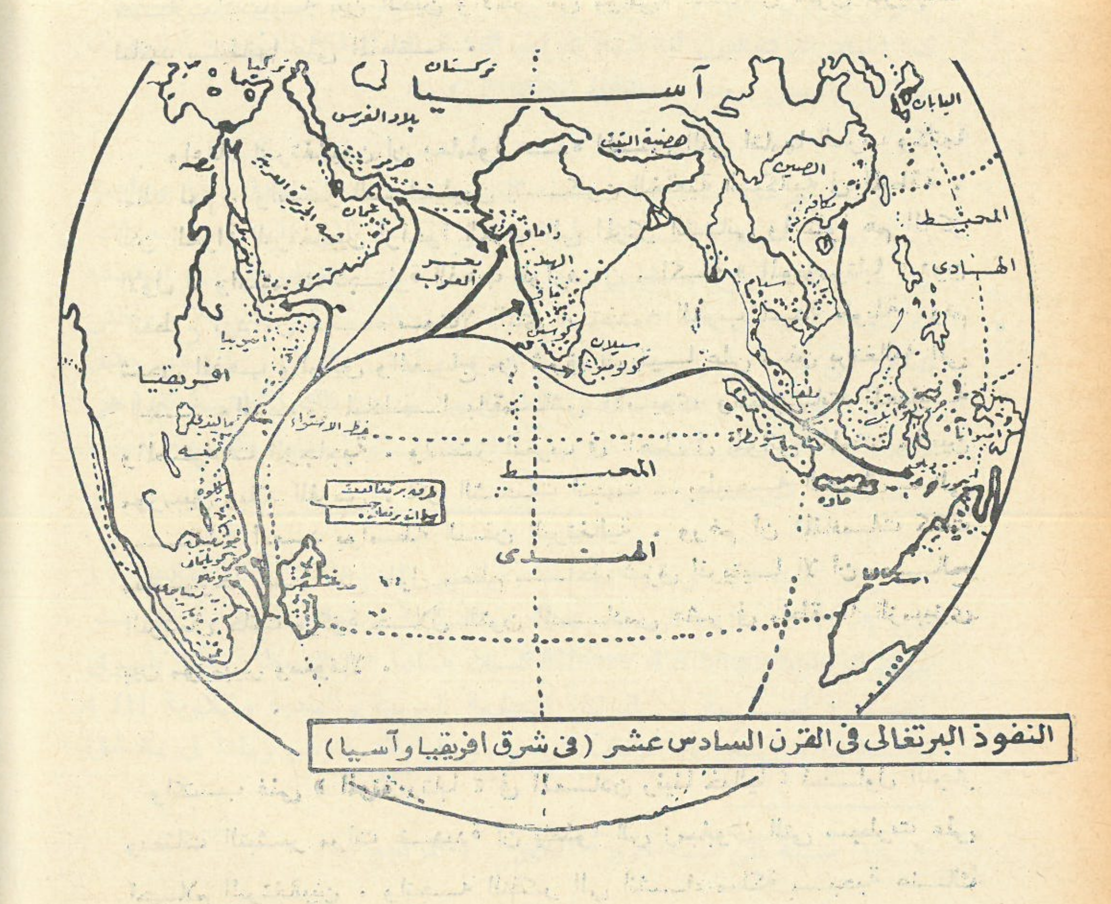
الملايو ، وجوا فى شبه القارة الهندية هى أحجار الزاوية للامبراطورية البرتغالية الناشئة . وقامت البرتغال بادارة الطرق التجارية بين القارات عن طريق سفنها التجارية ، ولكنها كانت ترخص أيضا للسفن الهندية والعربية ببعض المهام التجارية الفرعية على طول السواحل الأفريقية والآسيوية . ولما لم تتوافر للبرتغال الطاقة البشرية الكافية للحكم والتجارة فى كل مكان ، فقد كانت صلتهم بالموانى ذات الأهمية الفرعية تقوم على تحصيل الضرائب منها بطريقة متقطعة (أى غير منتظمة) . وبين الحين والآخر كانت معظم مدن ساحل الزنج تحاول تفادى دفع الجزية والتهرب من القيود المفروضة على التجارة . وكانت أكثر هذه المناطق تحديا للبرتغال هى مدينة ممبسة ، وكانت البرتغال ترسل حملات تأديبية بين الحين والآخر الى موانىء ساحل شرق أفريقيا لتأكيد سلطانها على المنطقة .

واعتاد البرتغاليون أن يعاملوا هذه المدن التى أقامها العرب وكأنها ملك لهم . واستمر السواحيليون يشكلون الغالبية السكانية فى المنطقة . لكن الغزاة البرتغاليين أزاحوا العرب الى المركز الثانى واحتلوا هم المركز الأول . واستمرت تجارة الذهب الوارد من مملكة « المونوموتابا » دون انقطاع ترد من ميناء سوفالا الذى استخدمه العرب لمدة طويلة. وتم شحن الذهب والرقيق والعاج من شرق أفريقيا على سفن برتغالية الى الهند والشرق لمبادلتها بالقماش الآسيوى والمنتجات المعدنية والمصنوعات الزجاجية . واستمر العرب فى العمل فى الموانىء الممتدة ما بين موزمبيق وبلاد الفرس . لكن الشحنات اتجهت — بطبيعة الحال — الى مسافات أبعد بواسطة السفن البرتغالية . ورغم أن المنافسات كانت مسموحا بها على طول معظم ساحل شرق أفريقيا الا أن مصالح البرتغال كانت مركزة خلال القرن السادس عشر فى منطقة الزمبيزى بين موزمبيق وسوفالا .

واكتسب غنى « الموتوموتابا » فى المعادن رنينا خياليا ، فحاول التجار وبعثات التبشير مرات عديدة أن ينفذوا الى زمبابوى التى سيطرت على احلام البرتغاليين . واتجه التفكير الى انشاء مملكة مسيحية هناك

تكون أكثر نجاحا من تجربة الكنغو السابقة ، وساد الاعتقاد بوجود كميات كبيرة من الفضة تفوق تلك التى تمتلكها اسبانيا فى أمريكا .

وحاول أنطونيو كيادو الذى كان أول برتغالى يعمل فى البلاط الملكى فى المونوموتابا — والذى استمر فى عمله هذا لعدة سنوات — التفاوض لتوقيع اتفاقيات تجارية والتمهيد لزيارات يقوم بها التجار ورجال الارساليات الى تلك المنطقة . الا أنه لم يستطع الوصول الى مناجم البانتو الا نادرا ، وان كان قد سمح بدخول عدد من الزوار البرتغاليين الى منطقة زمبابوى وبعض المراكز الأخرى المجاورة . ولكن المناجم الموجودة هناك لم تحقق ما كان يأمله التجار ، ولم يكن التبشير أوفر



النفوذ البرتغالى فى القرن السادس عشر (فى شرق افريقيا وآسيا)

حظا ، لأن البرتغال لم تستطع توفير الأعداد الكافية من القسس لاحداث الأثر المطلوب .

ونادرا ما كان يسمح لنساء الأوربيين بالذهاب الى المستعمرات ، وعلى ذلك فقد اعتمد الحكم الأوربى فى استتبابه على الاندماج بالتزاوج مع الأجناس الأخرى ، وانتقلت التجارة البرتغالية تدريجيا خلال القرن السادس عشر الى أيدى هؤلاء الذين تجرى فى عروقهم دماء مختلطة بالدم البرتغالى . وظل يطلق على التجار الهنود اسم البنيانيين (Panyan) كما كان الوضع خلال سيطرة العرب على هذه المناطق ، لكن من اعتنق منهم المسيحية ، ومن اختلطت دماؤهم بالبرتغاليين المستعمرين أطلق عليهم اسم الجوان (Joans) حيث ترجع أصولهم الى جاو التى كانت بمثابة المركز الاستعمارى الرئيسى على ساحل الملبار بالهند .

لقد كان التوغل الى داخل شرق أفريقيا باهظ التكاليف دائما ، سواء من ناحية الأرواح أو الأموال ، ورغم المعاهدات التى أبرمها كيادو فان مملكة المونوموتابا لم تتمكن أن تفرض نفوذها على قبائل البانتو . وقد شجعت البرتغال المغامرين من الجوان والبرتغاليين على الاستقرار على شواطىء الزمبيزى الأعلى بهدف احكام سيطرة البرتغال على « الأرض الموعودة » بالداخل ، ومنح هؤلاء المزارع الواسعة التى تماثل تلك التى نجحت فى البرازيل (*) . ولتشجيع هؤلاء المغامرين على ادارة وتنمية تلك المزارع فقد سمح لهم باستجلاب الرقيق لاستخدامهم كقوة عاملة أو تكوين جيش خاص منهم . واختفت الثقافة البرتغالية والدم الأبيض الصرف ، كما ضعف الولاء للتاج بسرعة كبيرة . لكن أصحاب هذه المزارع — فخورين بالسلوك

(*) نمت بالتدريج هذه الطبقة من الاقطاعيين فى المستعمرات البرتغالية ، وكان هذا النظام الاقطاعى الذى أطلق عليه بعض الكتاب اسم (النظام البربرى) من أسباب التدهور الاقتصادى والسياسى والاجتماعى الذى أصاب المستعمرات البرتغالية فى شرق أفريقيا .
— وللدراسة المستفيضة لهذا النظام ، أنظر :
جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى أفريقيا (مترجم — القاهرة ، ١٩٦٣) ، ص ٩٩ . (المراجع) .

الاقطاعى وبأصلهم الأوربى — استمروا فى السيطرة على اقطاعياتهم الواسعة التى كانت تتخذ الطابع شبه العسكرى بالاكتفاء اكتفاء ذاتيا مع الاعتماد على الرقيق كقوة عاملة .

ولم تكن أفريقيا بالنسبة الى البرتغال فى أهمية جوا أو جزر التوابل الا فيما يختص بتجارة الذهب بين سوفالا والموتوماتابا . وصارت « جوا » المستودع الرئيسى والمدخل الرئيسى الى ثروة الشرق . وكان الغرض من احتلال شرق أفريقيا هو حماية الطرق الملاحية بين الهند والوطن الأم فى البرتغال ، ومنع القوى الأخرى من تهديد الاحتكارات البرتغالية باتخاذ موطىء قدم فى الطريق التجارى المؤدى للقارة .

المحيط الهندى ١٦٥٠ - ١٨٢٠

ولم تكن للبرتغال مصلحة ، كما لم تكن تتوافر لديها القوة البشرية اللازمة لاحتلال كل منطقة الزمبيزى احتلالا كاملا ، وكل ما استطاعت قوة البرتغال الحربية أن تفعله هو أن تحول دون انبعاث قوة العرب الاقتصادية والسياسية المناهضة لهم من جديد بطول الساحل الأفريقى ، وقد ثارت كل من ممبسة ، وماللندى ، وكلوة ، تحت زعامة قادتها العرب السابقين ، على الاتاوات التى فرضت عليها بالقوة وعلى القيود الخانقة التى قضت على كل ما كانت تجنيه من قبل من ثروة .

ولما ورث فيليب الثانى الاسبانى عرش البرتغال عام ١٥٨٠ ، فقدت البرتغال نتيجة لذلك عميلها الأساسى — هولندا — التى كانت تحاول على مدى ثمان سنوات أن تطيح بالملك فيليب من فوق عرشها . وبدلا من التجارة مع البرتغال ، أو امدادها بما يلزمها من الطاقة البشرية اللازمة لمشروعاتها ، فقد بدأت هولندا فى ارسال أساطيلها الى الهند . وقد كان الملك فيليب مهتما بالفضة فى أمريكا ، وبثورة الهولنديين والأرمادا ضد انجلترا،أكثر من اهتمامه بالمسائل الاستعمارية البرتغالية .

وسقطت بعض الجزر الشرقية الهامة الواحدة تلو الأخرى ، كما سقطت المحطات التجارية فى الهند أو فقدت هى الأخرى . وتحول الأمراء والتجار الذين كانوا يتعاملون مع البرتغال الى التعامل مع السادة الجدد فى المنطقة . وفى نفس الوقت فان السفن البرتغالية — حتى لو استطاعت أن تتجنب السفن الحربية الهولندية — فانها كانت تواجه بفقدان الارتباطات التجارية القديمة . وتمكنت المدن العربية على الساحل فى هذه الآونة من التحلل من الالتزامات والقيود التى كانت البرتغال قد فرضتها على المنطقة .

وقد ذاعت شهرة شرق أفريقيا لدى الأوربيين بأنها مناطق فقيرة وغير صحية . ولم تهتم هولندا حينئذ بالمسائل التجارية أو المطالبة بالجزية،واكتشف القباطنة الهولنديون رياحا أقوى وأكثر أمنا من التى تهب على ساحل شرق أفريقيا . فقد وجدوا أنه باتجاههم من رأس الرجاء الصالح نحو الشرق مباشرة يمكنهم تجنب الرياح الموسمية غير المأمونة العواقب ، كما أمكنهم تجنب المخاطر الملاحية التى كانت تصادفهم

فى خليج موزمبيق . ولم يكن من السهل حينئذ السفر بحرا نحو الشرق ، اذ كان يعتمد على الحدس فى تحديد خطوط الطول الى أن أمكن ادخال الكرونوميتر فى القرن الثامن عشر ، الا انه كان يمكن لأى قبطان ماهر أن يتخذ طريقه نحو الهند أو جاوة ، وبذا يحقق كسبا محققا . (وقد حدث أن بعض الملاحين الهولنديين الذين أساءوا تقدير المسافة اكتشفوا قارة أستراليا ونيوزيلندا قبل أن يتمكنوا من ايجاد طريقهم الى جزر التوابل فى الشرق) . ولقد تجنبت كل من بريطانيا وفرنسا — اللتين ورثتا هولندا بعد ذلك فى تجارة الهند — أيضا الساحل الشرقى من أفريقيا .

وعندما بدأ اضمحلال الوجود البرتغالى تمزقت بالتالى أوصال مملكة المونوموتابا ، واجتاحت قبائل النجونى ومجموعات من قبائل السوزو مناطق التعدين فى طريقهم نحو الجنوب عام ١٥٩٠ وعام ١٦٢٠ متسببين فى تحرير كثير من القبائل من دفع الاتاوة للمونوموتابا وانهيار التجارة فى الداخل . وتدخلت البرتغال بالاشتراك مع بعض الجنود من الهنود « الجوان » وأيدت أحد زعماء الفئات المتمردة كحاكم جديد على المونوموتابا ونجحت فى اقناع خليفته باعتناق الدين المسيحى . لكن كان الوقت قد وصل الى درجة كبيرة من التعقيد ، فلم يستطع هذا الحاكم المسيحى الضعيف ، ولا الموارد البرتغالية المحدودة ، اعادة الاستقرار والازدهار التجارى للمنطقة .

وحتى قبل أن تخف وطأة الاضطرابات فى العشرينات من القرن السابع عشر استطاع العرب أن يعيدوا سلطانهم للمنطقة مرة أخرى . وفى عام ١٦٩٣ قامت قبائل الروزوى من البانتو — والتى كانت قد قدمت من منطقة بحيرة تنجانيقا — باخضاع المونوموتابا حيث كان اهتمام أوربا ونشاطها فى مناجم الذهب والمدن المشيدة من الحجر قد تلاشى .

وابتدأت عمان فى شبه الجزيرة العربية فى عام ١٦٢٢ فى مساعدة مسلمى شرق أفريقيا لطرد البرتغاليين . وحين حل عام ١٦٥٠ كان معظم الساحل عربيا خالصا ، الا أن البرتغاليين استطاعوا تجميع قواهم والاحتفاظ بموقع أو اثنين لعدة سنوات أخرى . كما أصبحت

عمان ، لقدرتها على محاربة البرتغاليين ، فى وضع أحسن مما كانت عليه قبل عام ١٤٩٨ من حيث تمتعها بولاء أهل هذه المدن .

وتكررت محاولات البرتغاليين لاستعادة هذه المدن التى تقع شمال موزمبيق ، وكانت آخر هذه المحاولات فى ممبسة فى الفترة بين ١٧٢٨ و ١٧٣٠ ، ولكن فى النهاية أصبح راس دلجادو ، بين موزمبيق وكلوة ، يمثل الحد الفاصل بين نفوذ كل من العمانيين والبرتغاليين ، فالى الجنوب منه كان نفوذ أصحاب الاقطاعيات الذين كانوا يمارسون تجارة الرقيق التى ازدهرت بعد عام ١٦٤٥ ، بينما وقف العمانيون فى الشمال فى وجه الأطماع البرتغالية . وتركت القوى الأوربية الأخرى البرتغال وحدها ، لأنه لم يكن لديها الاهتمام الكافى بهذه المنطقة فيما عدا بريطانيا التى قدمت لها عونا بطريق غير مباشر بمقتضى التحالف التقليدى بين لندن ولشبونة بالاضافة الى معاهدة التحالف المبرمة بينهما فى عام ١٦٦١ . أما الى الشمال من راس دلجادو فقد كان العمانيون موضع ترحيب باعتبارهم حماة للمدن الساحلية المسلمة . ولم يأت عام ١٧٤٠ حتى كان الأمر قد استقر لامام عمان فى بلاده مما مكنه من التفرغ لمنطقة ساحل شرق أفريقيا .

وكانت الهند هى العميل الأول لتجارة الرقيق فى شرق أفريقيا ، لأنها كانت تدفع أثمانا أكثر ارتفاعا من كل من فارس وشبه الجزيرة العربية ، كما كانت الأقمشة والأدوات الهندية تباع بأعلى الأسعار فى تلك المنطقة . وقد أسهم نزاع الأوربيين بعضهم مع بعض حول الهند فى ازدياد النفوذ العمانى فى شرق القارة .

وعلى كل فقد قامت بريطانيا بازاحة فرنسا من المنطقة فى عام ١٧٦٣ ، كما أمكن هزيمة آخر صديق للفرنسيين وهو الأمير « تيبو صاحب » (Tipoo Sahib) فى عام ١٧٩٩ . وصارت بريطانيا هى المتحكمة فى الطريق بين الهند وعمان وان لم تقدم على احتلال أملاك الأمير . ولما لم ينطبق القانون الصادر فى ١٨٠٧ بمنع تجارة الرقيق على أسواق عمان ، مارست وزارة الخارجية البريطانية جهودا دبلوماسية مع السلطان سعيد حاكم عمان . وبمقتضى معاهدة مورسبى فى عام

١٨٢٢ وافق السلطان سعيد على فرض القيود على تجارة الرقيق فى امبراطوريته فى شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا ، كما سمح للبحرية البريطانية بالتفتيش على ذلك . ولكن التهريب استمر رغم ذلك وفقدت الموانىء ازدهارها التجارى الذى اشتهرت به .

وقامت ثورة فى ممبسة — التى كانت تعتبر حينئذ أكبر تلك الموانىء — ضد السلطان ، وطالبت أحد رجال البحرية الملكية وهو الكابتن وليام أوين (William Owen) باعلان الحماية عليها ، مما جعل العرب يظنون أنه يمكن احياء تجارة الهند لو أمكنهم انتزاع ممبسة وضمها للامبراطورية . وكان مجلس الوزراء البريطانى فى ذلك الحين يعتزم الابتعاد عن شرق أفريقيا كما كان الشأن فى موقفه من ساحل الذهب . وبعد سنتين من اعلان أوين الحماية البريطانية عادت ممبسة رسميا الى السلطان سعيد عام ١٨٢٦ .

وقد رفضت ممبسة العودة الى حوزة امبراطورية عمان المنهارة فى ذلك الوقت . لكن فى عام ١٨٣٥ استطاع الامام سعيد أن يخضع تمردا فى ممبسة . وفى أثناء الحصار الذى دام تسع سنوات استطاع السلطان سعيد اقامة قواعد متقدمة على جزيرة زنجبار التى اشتهرت بالخضرة والطقس البارد . وبعد انتهاء الحرب عاد السلطان سعيد الى عاصمة امبراطوريته فى مسقط فى شبه الجزيرة العربية .

ولما كانت مسقط تقع فى منطقة يغلب عليها الجفاف والحرارة . فقد بدت زنجبار فى نظر السلطان سعيد أكثر أمنا وأدعى للبهجة من مسقط الميناء الصحراوى . كما كانت من ناحية أخرى أكثر ملاءمة كمركز يمكن أن يشرف منه على ادارة وتنمية ثروة شرق أفريقيا . وعلى ذلك نقل السلطان عاصمة ملكه من مسقط الى زنجبار عام ١٨٤٠ .

واستطاع سعيد الوصول الى السلطة المطلقة بقتل منافسيه عام ١٨٠٦ ، واشتهر بأنه كان دائم التقرب للدبلوماسيين الأوربيين المشهورين وأنه لم يكن يستعمل قواته الا فى الضرورة القصوى بعد استنفاد جميع الوسائل الأخرى . كما كان مشهورا بالاقتصاد وعدم البذخ — رغم الزيادة الملموسة للثروة الملكية — وكذلك كان شأن البلاط المحيط به

حتى ان زوار السلطان سعيد كانوا يعتقدون أنه طيب القلب خير ونبيل ولا يحب التباهى .

وبمجرد أن نقل سعيد عاصمته الى زنجبار قام بانشاء نظام ادارى لتطوير ممتلكاته فى شرق أفريقيا وعمل على انتشار زراعة الكاكاو ونخيل الزيت . كما استجلب أشجار القرنفل من أندونيسيا وقام بزراعتها فى زنجبار .

وفيما عدا المراكز التجارية والدفاعية على طول خطوط القوافل لم يقم حكام المنطقة من أتباع السلطان سعيد بضم أى من الأراضى المجاورة كما لم يخضعوا لسلطانهم أية قبائل من البانتو فى تلك المناطق . ولم تكن الأسلحة النارية موجودة الا لدى العرب فى تلك المناطق الداخلية .

لقد ظل العرب قرب الساحل مدة تقارب الألف سنة حتى عام ١٨٤٠ ، ولكن فى مدى الثمانية عشر عاما التالية كانت قوافلهم ومراكزهم المسلحة وعملاؤهم قد توغلت الى نهر الكنغو الأعلى فى منتصف القارة تقريبا . واستطاع التجار ادخال اللغة السواحيلية الى اعماق القارة حتى صارت هذه هى اللغة السائدة فى شرق ووسط أفريقيا .

واستطاعت زنجبار تحت حكم السلطان سعيد المطلق أن تسيطر تماما على الساحل من موزمبيق الى الصومال ، كما كانت تسيطر على عمان وبعض الموانىء فى بلاد فارس وبلوخستان . وكانت مناطق كثيرة من داخل القارة الأفريقية تشكو من الاضطراب والفوضى . واستطاعت زنجبار أن تحتكر تجارة القرنفل فى العالم بفضل عنايتها بزراعته على نطاق واسع ، وتضاعفت تجارة منطقة ساحل شرق أفريقيا عشر مرات فى مدى عشرين عاما .

وقد نصت معاهدة هامرتون فى عام ١٨٤٧ على تحريم تصدير الرقيق من أفريقيا ، وفقدت عمان تبعا لذلك مواردها من الأيدى العاملة . ورغم هذه المعاهدة فان سفن الرقيق كانت لا تزال مسموحا بمرورها على سواحل شرق أفريقيا ، ولم تتمكن دوريات البحرية البريطانية فى أعالى البحار أن تميز بين تجار الرقيق الشرعيين على

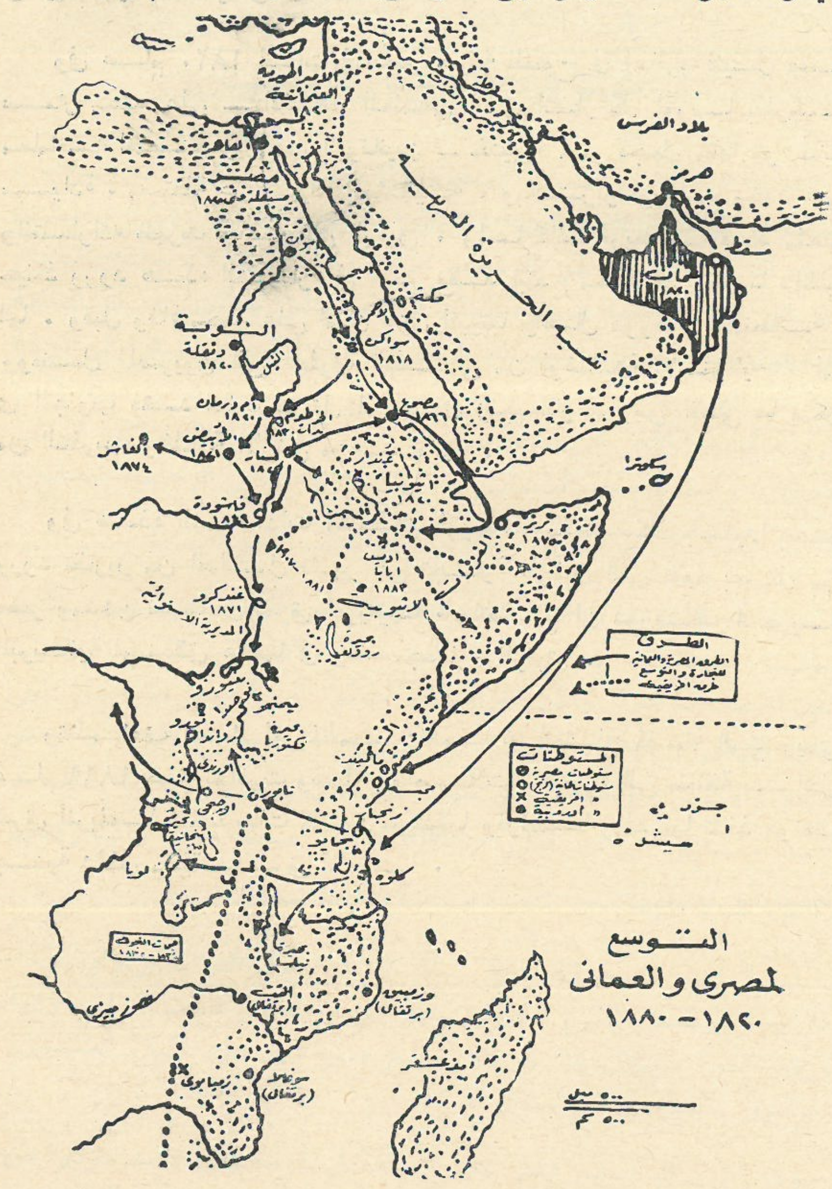
طول ســاحل شرق أفريقيـا وبين مهربى الرقيق غير الشرعيين . وبعـد عـام ١٨٦١ كان من المفروض الا ينقل الرقيق على أية سفينة من السفن ، لكن كان القباطنـة من العمانيين يحـاولون مماطلة البريطانيين عن طريق الادعـاء بأن ما تحملـه سفنهم من الرقيق ليسـوا الا العمال الـذين يستخدمونهم فى التجـديف .

وتوفى السـلطان سـعيد عـام ١٨٥٦ ، واشتعلت عمـان بالغضبه لفقـد مواردها من العبيد وانحسـار دورهـا وتقلصـه فى امبراطوريـة شرق افريقيـا ، مما ادى الى قيـام ثورة بها بعـد وفاة السـلطان سعيد بخمس سـنوات . وأيدت بريطانيا طلبها بالاستقلال على أمل أن يؤدى ذلك الى تجنب نقص أحكام معـاهدات تحريم الرقيق . واضطر السلطان مجيـد ـ الذى خلف السـلطان سـعيد فى زنجبـار ـ أن يقبـل هـذا التقسيم ، وبذلك أصبح لامام عمـان نظـام حكم منفصـل عن السـلطان فى شرق افريقيـا . ولم تنتـه تجـارة الـرقيق رغم ذلك ممـا اضـطر بريطانيـا الى ارسـال السير بارتل فرير عـام ١٨٧٣ للمفاوضـة علـى عقـد اتفاقية لتحرير الرقيق .

ورغم ان سـوق الـرقيق أغلقت ، فان قوانين تحرير الرقيق لم تطبق الا فى عـام ١٨٩٧ بالنسبة لزنجبـار نفسها ، وفى عـام ١٩٠٧ فى كينيـا ، وفى عـام ١٩١٩ بالنسبة لتنجانيقـا . وفى اثناء الفترة التى توسـع فيها السـلطان سـعيد فى تجارة الرقيق وصـلت بعض فروع القوافـل الى الشـمال حتى الحـدود الجنوبيـة لبوجندة ، والى الحـدود الشرقيـة لرواندا أوروندى ، وفى نفس الوقت كانت هنـاك مجموعات مـن تجـار الرقيق قـد وصـلت الى المشـارف الشمالية لبوجندة ، وكانت تنطـلق من بعض القواعـد فى مصر .

وكانت مصر لعـدة قرون تخضـع للسيادة الاسمية للدولة العثمانية فى القسطنطينية ، وكـان الرقيق يتم تصـديره عـن طريق وادى النيـل منـذ ازمان بعيدة . وكان من نتيجـة الفتح الأسـلامى لمصر أن انعزلت عـدة ممالك مسـيحية فى أواسـط وادى النيـل . واستمرت عمليـة الاسترقاق لكن ضـاق نطاق تجـارة الرقيق . وما بين القرن الحـادى

عشر والخـامس عشر تم التغلغل ـ فى الممالك المسيحية فى اواسط وادى النيـل ـ من الداخـل وانتهى الأمر الى انتشـار الاسـلام بينها (*) .



(*) المقصود هنا ممالك النوبة المسيحية ـ وقد كانت بالنوبة ثلاث ممالك مسيحية ـ وقد انتهى أمر هذه الممالك نهائيا فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى وان كان قد انتابها الضعف قبل ذلك بقرون . (المراجع) .

لكنها كانت فى أثناء فترة الاضطرابات من الضعف لدرجة أنها لم تسهم فى أية عمليات استرقاق فى المنطقة .

وفى عام ١٨٢٠ ابتدأت فى مصر حركة للفتوح فى أعالى النيل فقد صار محمد على ـ القائد العثمانى الذى أثار كل أوربا بطريقة معاملته للمسيحيين من اليونانيين ـ خديويا لمصر فجعل منها قوة ذات سيادة ، مستقلة عن الدولة العثمانية ، وباستمرار توسع محمد على وانتصاراته ظهرت حاجته الى الرقيق . ولما كانت بريطانيا قد منعت حينئذ ورود هذه التجارة فى البحر فقد ابتدع محمد على طريقا داخليا لها . وقبل وفاة محمد على أمكن عزل أثيوبيا وأهمال دورها فى المنطقة ، ووصل المصريون الى الطرف الشمالى من أوغندة الاستوائية . أما فى الجنوب فقد كانت قوافل الرقيق فى زنجبار تمارس أقصى ما يمكن من التخريب وخلخلة الأرض من سكانها .

وفى هذه الحقبة بدأت أهتمامات أوربا تأخذ شكلا جديدا بعد ورود تقارير من الداخل تشير الى تجارة الرقيق التى تقوم بها كل من مصر ومدن ساحل شرق أفريقيا ، واتضح أن دوريات البحرية البريطانية لم تحقق هدفها فى وقف تجارة الرقيق .

وتضاعف أهتمام أوربا بمصر عندما تم افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ حيث توافرت وسيلة مواصلات مختصرة الى منطقة ساحل شرق أفريقيا ، كما بدأت كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا تتخذ مواقف جدية داخل منطقة شرق أفريقيا .

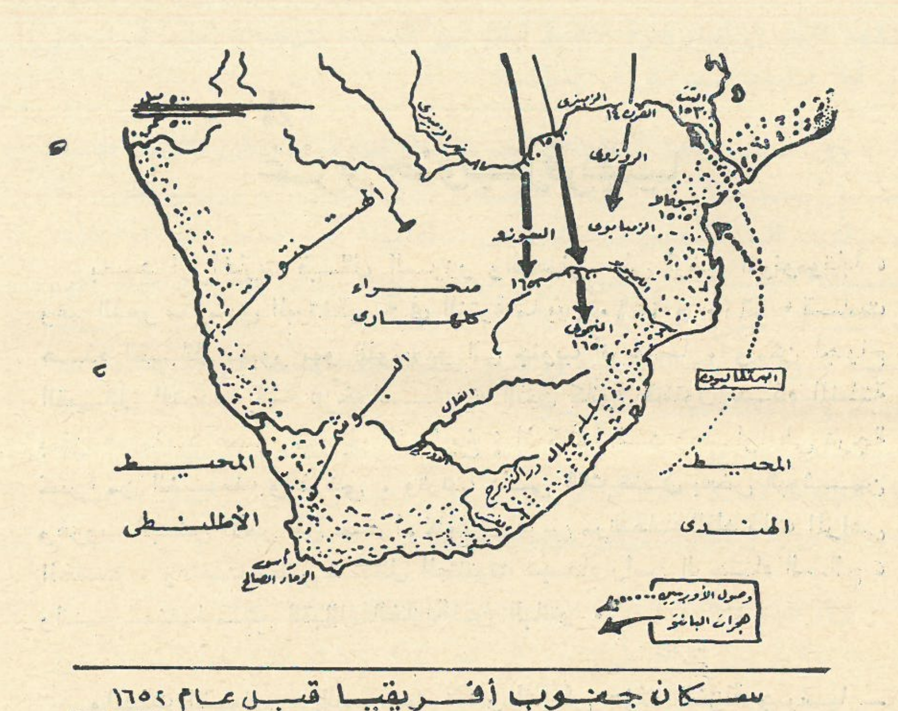
٨
غزو جنوب إفريقيا

بعد أن أغارت قبائل السوزو والنجونى على أرض المونوموتابا ، وعم الذعر موزمبيق البرتغالية فى الفترة ما بين ١٥٩٠ و ١٦٢٠ ، قامت هذه القبائل بعبور نهو اللومبوبو الى جنوب أفريقيا . وأمكن اجتياح القبائل المتحدثة بلغة « خواسان » الذين كانوا يقطنون هذه المنطقة بمفردهم منذ عصور ما قبل التاريخ ؛ اذ كانوا قد وصلوا الى درجة كبيرة من الضعف والفوضى . وترتب على ذلك قتل بعض البوشمن وهروب البعض الآخر الى صحراء كلهارى غربى مرتفعات الفلد ذات المراعى الخصبة ، وانتقلت بعض قبائل الهتنتوت تجاه رأس الرجاء الصالح ، واندمج بعضها مع القبائل الغازية من البانتو .

واحتلت النجونى ـ التى كانت تعتبر أشرس هؤلاء الغزاة جميعا ـ المنطقة الساحلية شبه المدارية التى تسمى الآن باقليم الناتال . وحينما صعدوا جبال دراكنزبرج من الترنسفال انشقوا الى أربع مجموعات لكى يحتلوا الأرض الجديدة : سوازى فى الشمال الشرقى ، ثم الزولو والبوندو والتمبو والاكهوزا (Xosa) على طول الساحل تجاه منطقة الكاب . وعندما وصلوا الى نهر الكى (Kei River) عام ١٧٠٠ كانت رغبتهم فى الغزو قد فترت .

أما السوزو فقد ظلوا الى الداخل بين جبال الدراكنزبرج وصحراء كلهارى . ووصل الفرع الجنوبى منهم الى ما يسمى حديثا باسم ولاية الأورنج الحرة خلال القرن السابع عشر ، فى حين ظل السوزو الشماليون مقيمين فى الترنسفال .

وفى القرن السابع عشر كان كل أهل خواسان قد طردوا من معظم أفريقيا فيما عدا صحراء كلهارى وما يسمى الآن باقليم جنوب غرب أفريقيا ومديرية الكاب واعتمد البوشمن على الصيد ، فى حين كان الهتنتوت فى أغلبهم رعاة للماشية .



سكان جنوب أفريقيا قبل عام ١٦٥٢

لقد كان البرتغاليون — فى طريقهم بين أوربا والشرق — فى القرن السادس عشر يتوقفون مرتين — فى البرازيل أو غرب أفريقيا ، وأيضا فى موزمبيق — ولم يكن رأس الرجاء الصالح مناسبا لهم داخل هذا النظام . ولكن لما حلت سفن هولندا وانجلترا محل سفن البرتغاليين كان الملاحون الجدد يفضلون الطريق المفتوح الى الشرق من منطقة الرأس ، وعلى ذلك فقد عملوا على ايجاد مركز لامداد السفن على الساحل لتلك الرحلة الطويلة بين المحيطين الهندى والأطلنطى ، واحتلت شركة الهند الشرقية الهولندية « سانت هيلانة » بين عام ١٦١٧ وعام ١٦٤٥ ، على حين كانت السفن البريطانية تتوقف : اما على المحطات الهولندية ، واما بمفردها فى جنوب أفريقيا بحثا عن المياه ، واللحوم ، وربما لتدريب بحارتها أيضا .

وعلى كل حال فلم تكن جزيرة سانت هيلانة موقعا مناسبا لأنها تقع فى نطاق نفوذ شركة الهند الغربية الهولندية ، كما كانت من

الصغر بحيث لم تستطع تقديم كل ما كان مطلوبا فى هذا السبيل ، كما كانت بعيدة عن طريق أية سفينة تحاول اجتياز أنسب الطرق من ناحية ملاءمة الرياح لسيرها . وبعد أن استطاع أحد البحارة التى تحطمت سفينتهم بالقرب من الكاب أن يمضى شتاء عام ١٦٤٧/١٦٤٨ فى جنوب أفريقيا ، قررت شركة الهند الشرقية نقل المحطة من الجزيرة الى ساحل القارة نفسها . وفى ٦ أبريل سنة ١٦٥٢ وصلت الى خليج تيل ثلاث سفن بحمولتها من المستوطنين .

وفى ٦ أبريل سنة ١٦٥٢ عين جان فان رايبيك حاكما عاما للمنطقة ، فقام بتأسيس مدينة الكاب ، وشرع فى التخطيط لزراعة الحدائق وتربية القطعان وأعمال التبشير . ولم يكن ينظر الى مدينة رأس الرجاء الصالح كمستعمرة استيطانية ، ولا كقاعدة انطلاق للغزو ، وانما كانت مجرد محطة خدمة ملحقة بالمشروعات الواسعة المتمركزة فى جزر الهند الشرقية .

ولما كانت هولندا فى ذلك الحين تتكون من اتحاد كونفدرالى من عدة ولايات مستقلة ، استطاعت الحصول على استقلالها من اسبانيا منذ أربع سنوات ، فقد كان مركز الحاكم العام للولايات فى هولندا ضعيفا ، اذ لم يكن باستطاعته اتخاذ أى قرار دون الحصول على موافقة جماعية من جميع الولايات . وقد وافقت كل الولايات بالاجماع على الترخيص للشركة فى عام ١٦٠٢ بالعمل كممثل لها فى تجارة الهند الشرقية وفى النواحى الدبلوماسية والحربية . ومن الجدير بالذكر أن حكومة الاتحاد الهولندى على مدى ٢٠٠ سنة كانت لا تتمتع بنفوذ يعادل ما تتمتع به شركة الهند الشرقية التى كانت تدير شئونها من أمستردام هيئة « السبعة عشر » مديرا . وأضحت بتافيا — على جزيرة جاوة — مركزا للعمليات التجارية فى الشرق ، كما كانت هناك محطات تجارية فى اليابان والهند والملايو وفرموزا وسيام ومزارع واسعة فى كل من سيلان واندونيسيا . حتى ان مدينة الكاب التى كانت تقوم بخدمة السفن التى كانت تربط هذه المراكز بأوربا صارت هى الأخرى تجرى ادارتها من بتافيا . ولم يصادف المستكشفون الأوربيون فى مستهل حركاتهم الكشفية لأفريقيا أناسا أغرب ولا أدعى للرثاء من البوشمن .

فقد وجدوهم لا يفهمون من التنظيم الاجتماعى أكثر من حدود الأسرة ؛ ولم يستطيعوا استيعاب الأفكار الدينية أو التجارية الأوربية . وقد أثار البوشمن والهتنتوت مشكلة كبرى ، حيث بدأت رحى الحرب تدور بعد مرور أربعة أيام فقط ، ولم تفلح المحاولات التى بذلت لتلقينهم مبادىء المسيحية ، كما ساد التوتر بينهم وبين الأوربيين من البداية ، حيث لم يستطيعوا فهم دوافع وجود الأوربيين فى جنوب أفريقيا .

وبالرغم من رغبة فان رايبيك فى الحصول على قطعان الماشية ، فان الهتنتوت لم يشتغلوا بتجارتها الا فى أوقات متقطعة،ولم يكن فى الامكان الاعتماد على الهتنتوت فى ذلك الا بعد عدة أجيال حين تم اختلاطهم بالهولنديين .

وكان على الشركة أن تقوم بتربية قطعان الماشية لسد حاجة الهنود العابرين بهذه الجهات ، فى حين لم تزدهر المحصولات الزراعية كما كان مأمولا ، حيث لم يكن الجنود الأوربيون والمشتغلون بالزراعة الذين استجلبوا للعمل بطريق التعاقد — يلمون بفنون الزراعة : وحاولت الشركة زراعة المحصولات الأوربية لكنها لم تتناسب مع الأحوال المناخية فى الكاب . ولجأت الشركة — لكى تصحح كل هذه الأوضاع — الى استخدام الرقيق ، فاستجلبت بعض الزنوج من ساحل الذهب وبعض الملاويين من بتافيا .

ورغم أن الشركة كانت حريصة على أن تحتفظ بالمستعمرة فى أضيق نطاق ممكن فان الزراع « الأحرار » (الذين كان يطلق عليهم البوير باللغة الهولندية) بدأوا فى التحرك نحو الداخل للبحث عن أراض أكثر صلاحية للزراعة ومناطق غنية للرعى ، وكانت الشركة تخشى أن تتسبب هذه الهجرات فى جعل المستعمرة أكثر عبئا بالنسبة لها من ناحية ، وأن يصعب الدفاع عنها من ناحية أخرى ، الا أن المهاجرين لم يعيروا التعليمات الرسمية فى هذا المجال أى التفات ؛ اذ فضلوا البحث عن احتياجاتهم الفعلية على أن يدفعوا للشركة العوائد المرتفعة التى تفرضها . على أن كيبتون ظلت السوق الرئيسية لمنتجاتهم .

وكانت هذه الهجرات أيسر عليهم وأقل كلفة من استثمار رأس المال ؛

فقد كانت كلفة نقل منتجات الحدائق من الداخل تشكل عبئا باهظا فى الوقت الذى يسهل فيه سوق قطعان الماشية لمسافات طويلة الى موانىء التصدير ، وكانت هناك تحقق أسعارا مجزية . وعلى ذلك صارت عملية الهجرة للداخل أمرا مربحا ، اذ صارت اقامة المزارع على الحدود لا تتطلب كثيرا من رؤوس الأموال ، كما كان من المستطاع تفادى الأحكام الصارمة التى تفرضها الشركة ، وهكذا سرت موجة من التوسع فى مناطق الحدود .

ولم يكن كثير من المستوطنين الهولنديين يدركون المقصود من الاستعمار ، وكانوا بالطبع راغبين فى المتاجرة فى الأماكن التى يتوافر فيها الطلب على منتجاتهم ، لكن لم يكونوا يشعرون بأى التزام للخضوع لتشريعات الشركة ؛ اذ كان معظمهم وافدا من المقاطعات الداخلية فى هولندا من الأقليات البروتستانت فى المناطق الريفية فى جنوب هولندا الذين تعودوا المعيشة وسط أغلبية كاثوليكية ، قليلون منهم هم الذين كانوا يدركون — أو حتى اهتموا بمعرفة — عمليات الشركة التجارية المعقدة . وكان هؤلاء قد اعتادوا الاعتماد على النفس والخضوع للسلطات التى تتبع لها أقلياتهم أكثر من خضوعهم للموظفين الرسميين ، والبعد عن مجال التجارة . كما كان بعضهم قد اختطف وغرر به ، حتى ان بعضا منهم كان يعتقد أنه تعاقد للذهاب الى جزر الهند للحصول على الثروة السريعة ، مما جعلهم يشعرون بالمرارة بعد أن جىء بهم الى رأس الرجاء الصالح حيث يرغمون على الاعتماد على الاحتكارات التجارية التى مارستها الشركة . وعلى ذلك فقد اتجهوا الى الهجرة الى الداخل (Trekking) لتخفيف صدمتهم .

لقد أثرت الخلفية التاريخية وحياة الهجرة التى مارسها البوير فى تكوين شخصية متميزة لهم ، فقد اعتادوا فى حياتهم على الحدود الاعتماد على أنفسهم دون تعقيد . وقد أقام البوير لأنفسهم نظمهم الادارية المستقلة عن الشركة ؛ فقد كان على رأس الأسرة التقليدية (الأب) ، وكان يشترك فى اختيار الموظفين فى المقاطعة (وهم الحاكم المدنى للمقاطعة ، ونافخ البوق أو قائد الفرق الذى يمكن أن تستجير به أية أسرة ، والأمناء أو

الأوصياء ويختار منهم ستة أفراد لمعاونة الحاكم فى ادارة شئون المنطقة) . وبالتدريج أخذت الشركة تتقبل هذا النظام لأنه كان فعالا واقتصاديا فى نفس الوقت .

وكانت جميع الأراضى من الوجهة الفنية ملكا للشركة ، كما كان باستطاعة المهاجرين المشتغلين بالزراعة أن يستأجروها نظير دفع عشرة دولارات فى السنة ، ثم يتحول هذا الاستئجار الى استئجار دائم بعد انقضاء خمس سنوات . وكانت المساحة المعتاد حيازتها تقدر بنحو ٦ر٠٠٠ فدان انجليزى (*) ، أى نحو ٩ر٥ أميال مربعة على اعتبار أن هذه هى المساحة الكافية لاستيعاب القطعان التى يمكن لأية أسرة مهاجرة أن تمتلكها .

ولما لم تكن الكاب فى نظر الشركة الا موقعا متقدما صغيرا ضمن تخطيط واسع ، فقد عملت بصفة رسمية على التضييق على الهجرات الى الداخل ، ولذا كان رجال الدين وكذا المدرسون من الصعب توافرهم ، واندمجت اللغة الهولندية الريفية مع اللغات الأخرى ، كما وردت مؤثرات هامة عن طريق التجار الذين كانوا يمرون فى تلك المنطقة ، فضلا عما دخل على اللغة من كلمات جديدة من الوطنيين الذين يتحدثون لغة « خواسان » ومن عبيد الملايو . ووجدت لهجة خاصة بهذه المنطقة أطلق عليها التال (Taal) ، لكن لم يوجد مدرسون لتدريسها ، كما اختفت تأثيرات الثقافة الخارجية ، وقواعد اللغة وهجاء الكلمات . وكانت الديانة تتركز فى نطاق الأسر فقط ؛ فقد كان لدى رب الأسرة انجيل للأسرة مطبوع بحروف هولندية كبيرة . ولكن بمرور الوقت وتغير اللهجات وهبوط مستوى القراءة والكتابة صعب على رب الأسرة قراءة ذلك الانجيل . ولعدم توافر رجال الدين المدربين فى الداخل ، أصبحت نظرة الجماهير لتعاليم المسيحية بالتدريج سطحية ، وعلى أنها عقائد لا تقبل النقاش . وبينما كانت العقيدة الدينية لأى شعب ريفى فى أوربا فى القرن السابع عشر بسيطة خشنة ، كانت عقيدة البوير — على غير المعتاد — صارمة ، حتى قبل تركهم لبلادهم الأصلية هولندا . وباعتبارهم قلة فى مقاطعاتهم الأصلية كانوا الى حد كبير مستقلين عن

(*) يساوى ٤٨٤٠ ياردة مربعة أو نحو أربعة آلاف متر مربع . (المراجع) .

التيارات الثقافية الجديدة ، وكانوا من أتباع كلفن (Calvinists) (*) ، لكنهم فى الوقت نفسه كانوا يميلون الى قلة خاصة لها تفسيرها المعين لهذا المذهب .

ويرجع فرع من هذه العقيدة الفريدة فى الأصل الى الجدل الذى أثاره الأرمن فى هولندا فى أوائل القرن السابع عشر . وكان جون كالفن ، مؤسس هذا المذهب الاصلاحى ، قد حذر من وضع الانسان ثقته الزائدة فى نفسه فيما يتعلق بالخلاص ، فقد جاء فى أقواله :

«فاذا كنا قد اخترنا من المسيح .. فان هذا الاختيار لايرجع الفضل فيه الى شيء في أنفسنا . . فان من ظن فى نفسه أنه قائم فليحذر لئلا يسقط»(١) .

وقد ذكر يعقوب الأرمنى (Jacob Arminius) بعد ذلك أن كل المؤمنين بالله سوف يخلصون ، لكن المجلس الكنسى (السنودس) الذى عقد فى دوردت (Dordt) فى عام ١٦١٩ فند هذه الأقوال وقرر أن عددا محدودا فقط من المسيحيين هم الذين سيخلصون وليس كل من أطلق عليه لفظ مسيحى . وذكر هذا المجلس أن هذه الفئة المخلصة ستعرف أنها الفئة المختارة . واذا كانت سلطة (السنودس) لم تدم فى أوربا ، فانها ظلت باقية بين الفلاحين (المزارعين) الذين هاجروا الى مدينة الكاب بعد ذلك بسنوات قليلة . وفى جنوب أفريقيا ساد الاعتقاد أن هذه الصفوة المختارة تتمثل فى الذين بقوا على ولائهم للديانة التقليدية وللأسرة والانجيل الهولندى . وبالطبع كانت هذه الفئة تتضمن كل البوير — لكن أبعد منها البوشمن والهتنتوت الذين كان من الصعب أن يتحولوا الى العقيدة الجديدة .

واربما لعب سوء الحظ دورا بارزا ، فان اتصالات الأوربيين الأولى بجنوب أفريقيا فى فترة التكوين الأولى كانت فى معظمها مع قبائل

(*) جون كلفن أحد زعماء حركة الاصلاح الدينى التى بدأت فى أوربا منذ أوائل القرن السادس عشر وبرز من زعمائها مارتن لوثر فى ألمانيا . وكلفن فرنسى المولد ، وقد انتقل بعد اعتناقه المذهب اللوثرى الى سويسرا بعيدا عن اضطهاد البروتستانت فى فرنسا واستقر به المقام فى (جنيف) حيث نشر مذهبه . (المترجم) .

(١) John Calvin, Institutes of Christian Religion, 2 Vols. Grand Rapids, 1949, Vol. II, pp. 223, 225.

البوشمن والهتنتوت حيث يختلف العنصر الأول فى طبيعته عنهم ، أما العنصر الثانى فهم ممن لا يجيدون التجارة ، فلم تتوافر فرصة للتبادل الثقافى أو تطوير الأفكار العقائدية لديهم . وكانت قطعان الهتنتوت هى المصدر الرئيسى للحوم فى منطقة الكاب . ومع ذلك فقد أجبرت القبائل على المشاركة فى العمليات التجارية . ورغم اعتقاد البوير من أول الأمر أن قدر الأوربيين هو أن يظلوا منفصلين عن سكان البلاد الأصليين لأنهم أعلى منهم مرتبة ، الا أن البوير الزراع لم يمكنهم الاستغناء عن استعمال المنتجات الوطنية أو العمل الوطنى .

وهكذا صارت هناك عدة عناصر بشرية تتمثل فى مجتمع جنوب أفريقيا. أما بالنسبة لعناصر الملاويين فقد عملوا كخدم فى المنازل ، ونادرا ما كانوا يغادرون الكاب ، وواصلوا ممارسة شعائرهم الاسلامية التى كان ينظر اليها البوير كعقيدة لا تتناسب الا مع أناس من هذا الصنف . ولقد ظل الملاويون متميزين عن كل المجموعات السكانية فى جنوب أفريقيا .

وبعد سنوات قليلة كان الرقيق من الزنوج يتساوون فى العدد مع الأوربيين ، وكان قد تم استجلاب هؤلاء الرقيق جميعا من ساحل الذهب ومن موزمبيق ، وقد أرسل عدد كبير منهم الى منطقة الحدود بينما ظل ملاك الرقيق الكبار بالقرب من مدينة الكاب . وظل البوشمن والهتنتوت أحرارا رغم أنهم كانوا يمثلون المجموعات الدخيلة على المجتمع الجديد لجنوب أفريقيا . وتكررت الاتصالات الجنسية بين الأوربيين والوطنيين ؛ اذ كانت نسبة الرجال اكبر من النساء فى المجتمع الأوربى ، وبالتالى لم يكن هناك عيب فى الاساءة الى الوطنيين على اعتبار أنهم أقل مرتبة .

ونشأ مجتمع كبير من ذوى الدماء المختلطة سمى فى أول الأمر « نتاج الآباء غير الشرعيين » ثم سموا بعد ذلك بالملونين . وهؤلاء كانوا فى العادة يكونون طبقة العاملين اليدويين من غير الرقيق فى منطقة الكاب ، ولو أن كثيرا منهم هاجروا الى ما وراء الحدود (*) ليكونوا لأنفسهم حكومة ذات طابع شبه قبلى .

وفى عام ١٦٨٥ الغى لويس الرابع عشر فى فرنسا مرسوم نانت

(*) المقصود بالحدود هو حدود مستعمرة الكاب الى الداخل (المترجم).

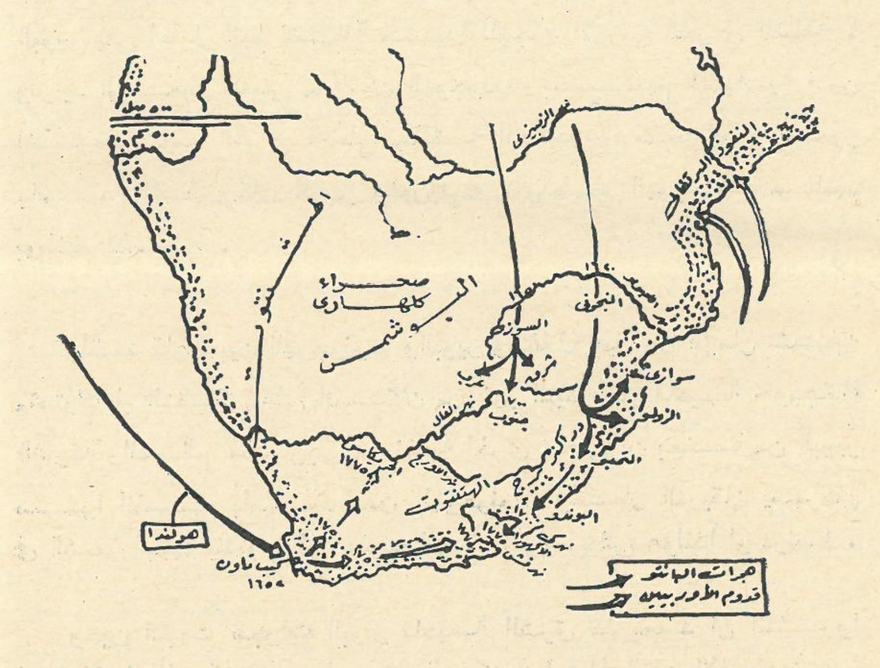
(Nantes) الذى ظل يحمى البروتستانت على امتداد سبعة وثمانين عاما ، مما ترتب عليه هروب عدة آلاف من الهوجونوت (Huguenots) (*) الذين تعرضوا للاضطهاد ، الى منطقة الكاب عن طريق هولندا . ولقد أتى هؤلاء الى الكاب طلبا للحرية ، ولممارسة شعائرهم الدينية طبقا لمذهبهم « الكلفينى » وللاقامة بصفة دائمة . وفى الوقت الذى لم ترغب فيه شركة الهند الشرقية الهولندية فى استخدامهم رحب بهم البوير على اعتبار أنهم اضافة جديدة للوجود الأوربى الحر فى المنطقة . وتزايد الشعور الدينى مما مكن الهوجونوت بحصافتهم السياسية ، من اضعاف سلطة الشركة على منطقة الحدود ، كما قووا الشعور بالوحدة الذى كان البوير يظهرونه ، وقطع الهوجونوت صلتهم بوطنهم الأصلى .

ولقد قارب بين الهوجونوت والبوير فى خلال جيل من الزمان تشابه مشترك فى التعالى على السكان من غير البيض من ناحية ، ومجافاة الشركة والعالم الخارجى من ناحية أخرى ، حتى ان بعضا من البوير سموا أنفسهم بأسماء من الهوجونوت وصار الفريقان يشتركان فى الشعور بأنهم ينتمون الى جنوب أفريقيا ، وليس الى هولندا أو فرنسا .

وحين اتجهت هجرات البوير ناحية الشرق — بعد أن انتشروا فى الداخل الى الشرق — لجأت الشركة الى الموظفين الألمان لتوفير الامدادات والتجارة فى المدينة . وقد أدخل هؤلاء البروتستانت من الألمان الى المدينة الفن والموسيقى ، لكنهم لم يكونوا يشعرون بالولاء للهولنديين ، وأسهموا فى أن تكتسب المنطقة طابعا خاصا ، ووطنية جديدة هى وطنية جنوب أفريقيا . وظل رجال الحدود يترددون بقطعانهم على مدينة الكاب للحصول على المؤن وما يلزم من البن والأقمشة والاحتياجات الأخرى . أما التجار الألمان الذين كان المزارعون يتعاملون معهم فلم يكن لهم اى تأثير فى تغيير نظرة البوير الانعزالية أو شعورهم بالانفصال عن هولندا .

(*) جماعة من البروتستانت الفرنسيين . (المراجع) .

وكانت هـذه التجارة تشكل الوسيلة الوحيـدة للاتصـال بالعالم الخارجى ، اللهم الا اتصالهم بأقرب الكنائس اليهم فى أعيـاد رأس السنة الميلادية ، فكانت هـذه هى الفرصـة الوحيـدة للتجمع والاحتكـاك بين العناصر المختلفـة خـلال العـام ، حيث كانت شـتى مراسيم التعميد والزواج تتم فى ذلك الميعـاد ، وقـد حـال ذلك دون وصول أية مؤثرات فكرية من الـعالم الخـارجى الى أعماق هـذه المجموعة السـكانية .



سـكان جنـوب أفـريقيـا (١٦٥٢ - ١٧٧٥)

وبعـد أن أضـافت هجـرة الهوجونوت الى أعـداد البوير ودعمت أفكارهم ، انتشر سـكان الحـدود الى مـا وراء الجبـال السـاحلية (*) ولم يكن من المستطاع نقـل المنتجـات الزراعية لأكثر من سبعين أو ثمانين ميلا ، الا أنه أمكن تسويق قطعـان المـاشية وتحقيق ربح من وراء ذلك ، مما حـدا بمهاجرى القرن الثـامن عشـر الأوربيين الى طلب المزيد مـن الأراضى لانشـاء المزارع الخاصـة بتربيـة الماشيه . ففى عـام ١٧٠٠ كان وجود الأوربيين لا يتجاوز خمسـة وخمسين ميلا الى الداخـل مـن

مدينـة الكـاب ، ولم يحـل عـام ١٧٥٠ حتى كانوا قـد توغـلوا الى مسـافة ٢٢٥ ميـلا الى الداخـل . وفى عـام ١٧٧٥ كان قليـل منهم متنـاثرين على طول نهر فش (Fish River) بما يبعـد ٥٠٠ ميـل الى الشرق .

وكانت معظم الأراضى الجـديدة — (هضبة الكـارو فى الداخـل) — قاحلة جـدا بحيث لا يمكن استخدامها فى أى شىء سـوى المراعى . ولم يكن مجزيا من الناحية الاقتصـادية انتقـال الماشية الى أسواق مدينـة الكـاب لأكثر من هـذه المسـافة ومن المناطق البعيدة فى الداخل . ولذلك بقيت الحـدود ثابتة طوال نصف القرن التـالى .

وشـعر ملاك الأرض فى منطقـة الكـارو الواسعة بالحاجـة الى العمـال ، وهى المشـكلة التى لم تكن مألوفة فى الجهـات القريبـة من مدينـة الكـاب ؛ اذ كان عمل الرقيق لا يتناسب الا مـع الزراعـة ، ولم يمكن الاعتماد عليهم فى رعى الماشية فى منطقـة مفتوحـة مثـل منطقـة الحـدود . وأمكن الحصول على هـذا النوع من العمل من الهتنتوت الذين الفوا رعى الماشية والذين كان نظامهم القبلى يؤول الى الانهيار عنـدما تم الاستيلاء على أراضيهم . واعتمد البوير باصرار على هـذا العمل الثانوى الذى يحتـاج الى تدريب فى الوقت نفسـه ، كما صـار الهتنتوت يعتمدون تدريجيا فى حياتهم الاقتصـادية على الأوربيين .

وبدأت تظهر مشـكلة كبرى على الحـدود تمثلت فى أن منطقـة الفلد وسـاحل النـاتال والمنطقـة الواقعـة شرقى الكـاب صـارت موطنـا لقبـائل من زنوج البـانتو الذين كانوا قـد وفـدوا الى جنوب أفريقيـا فى وقت مبكر فى القرن السـابع عشر ، ولأنهم كانوا يتمتعون بقـدر كبير من التنظيم ، فقـد أمكن لهم طرد قبـائل البوشمن والهتنتوت أمامهم صوب مدينـة الرأس حيث حل البوير فيما بعـد .

ولقـد كانت هـذه القبـائل من البـانتو تتمتع بقدرات فنية جعلت منهم زراعـا كفـاة ومحـاربين أشـداء عن أهـل « خوانسـان » مـن البوشمن . واتسعت حـدودهم نحو حـدود البوير لاطراد نموهم السكانى خـلال القرن الثـامن عشر .

ولقد تقابل الصيادون الهولنديون فى الداخل مع هؤلاء الزنوج البانتو لأول مرة فى عام ١٧٠٢ ، لكن الاتصال بين الموجتين : البانتو من روديسيا ، والبوير من مدينة الكاب ، لم يتم الا فى عام ١٧٧٥ حيث تقابلت قبيلة الاكهوزا مع المهاجرين الأوربيين عند نهر فش ، وكان كل من الفريقين فى جنوب أفريقيا منذ ما يربو على قرن من الزمان ، وكان كل منهما قد اتخذ الرعى أساسا لحياته الاقتصادية ، كما أن كليهما كان يطارد فى تقدمه أهل خواسان . وكان التلاقى بين الفريقين فى النهاية ذا أهمية خاصة ، لأنه تمخض عن تصادم بين قوتين زاحفتين ، وتأثر تاريخ جنوب أفريقيا بالكيفية التى واجهت بها كل منهما الأخرى والتى تم بها التعايش بين القوتين فيما بعد .

٩

البوير وقبائل البانتو والبريطانيون

فى عام ١٧٧٥ حدث الصراع الحتمى بين البوير الذين ينتمون الى العنصر القوقازى وبين قبيلة الاكهوزا من الزنوج على نهر فش . فقد كان كل من الفريقين يشتغل بتربية الماشية ، الا أنهما كانا يختلفان اختلافا جذريا فى الطباع والمشارب من ناحية ، كما كان كل منهما يطمع فى التوسع على حساب الآخر والحصول على المراعى من ناحية اخرى . فالبوير كانوا يودون الاستجابة لمطالب سوق مدينة الكاب المتزايدة ، أما البانتو فكانوا يسعون الى توطين سكانهم الذين ينمو عددهم باطراد ، فلم يكن من المتيسر لأى فريق منهما التحرك لتحقيق هدفه الا على حساب الفريق الآخر .

وكان الزنوج قد شرعوا فى الاتجار فى الماشية مع الزراع الهولنديين مما ترتب عليه زيادة موارد الكاب من اللحوم ، وأما البوير فقد بدأوا فى التحرك نحو الداخل الى هضبة الكارو رغم فقرها .

وكان البانتو أكثر عددا ، وتتضمن تقاليدهم الملكية الجماعية لكل شىء سوى المتاع الشخصى . أما البوير فقد كانت لديهم الأسلحة المتفوقة التى تعوضهم عن قلة عددهم ، وتقضى تقاليدهم باحترام حق الملكية الفردية . ولم يكن يفصل بين هاتين المجموعتين المتباينتين سوى نهر فش الصغير ، كما لم يكن ثمة بد من اصطدام القوتين . وكانت الماشية تمثل لدى الاكهوزا وزنا اجتماعيا واقتصاديا كبيرا ، اذ كانت ثروة الفرد منهم تقاس بما يمتلكه من هذه الماشية حتى ان من يريد الزواج من تلك القبائل كان عليه أن يبرهن على مركزه الاجتماعى وعلى حسن مقصده بأن يودع بعضا منها عند أهل العروس ، وكان هذا العرف يسمى اللوبولا (Lobola) كوسيلة للضمان وليس كثمن للعروس كما كان يظن البوير ورجال الارساليات لبعض الوقت .

ولقد اعتاد البوير أن يضعوا علامات مميزة على ماشيتهم لاثبات ملكيتهم لها ثم يتركوها بعد ذلك للرعى على هضبة الفلد بدون قيود

أما الاكهوزا فكانوا يودعون ماشيتهم فى حظائر أو يجعلونها تحت الاشراف المباشر ، وكانوا يعتقدون أن الماشية الطليقة ملك مشاع الى أن يحوزها شخص ويضعها فى الحظيرة الخاصة به .

وعندما طبقت الاكهوزا هذا العرف على قطعان البوير التى كانت طليقة على نهر فش اتهمهم البوير بالسرقة . وتفاقمت هذه الظاهرة بسرعة الى أن استطاع البوير انشاء فرق تأديبية تحت قيادة أدريان فان جارسفلد نافخ البوق على حدود الفلد (ايذانا بظهور عدو) . وكان رد الفعل من جانب الاكهوزا هو اعتبار ذلك عملا حربيا ضدهم .

واعتبر الصدام الذى حدث عام ١٧٧٩ الحلقة الأولى مما سمى « حروب الكفرة » (*) التى اجتاحت جنوب أفريقيا على مدى قرن من الزمان (وتسمية الكافر باللغة العربية تعنى غير المؤمن ، وكانت تطلق من جانب المسيحيين والمسلمين على الزنوج) ، واستعمل جارسفلد قائد البوير الشجاع أسلوب الخداع مع محاربى الاكهوزا ، واشتهر بالبطولة ، حيث كان يعود الى حدود البوير ومعه غنائم تقدر بآلاف الماشية .

واستطاع الهولنديون الذين وصلوا الى الكارو أن ينظموا انفسهم عند منطقة جراف رينت Graaff Reinet فى عام ١٧٨٦ ، الا أن شركة الهند الشرقية الهولندية لم تقدم لهم أى نوع من الحماية ضد السرقات التى كان يقوم بها الكفرة ، واعتمدوا على أنفسهم وأعلنوا استقلالهم بعد تسع سنوات . وكان من المنطقى أن يتزعمهم جارسفلد بطل الحدود . وارتدى المزارعون شرائط من ثلاثة الوان على قبعاتهم مشابهة لتلك التى كانت ترتديها جيوش الثورة فى فرنسا ، وصارت لهم جمعية وطنية ، وتحولت الفرق التأديبية الى جيش وطنى أصبح من مهامه حمايتهم من لصوص الكفرة ، وتكونت جمهورية قوامها ١٤٠٠ رجل و ١٧٠٠ صبى و ٦٠٠ من الرقيق اتخذت لها شعارات من المذهب اليعقوبى ثم « الحرية والمساواة والاخاء » . وكان الهدف منها ببساطة

(*) الكفرة (Kaffir) تطلق على مجموعة الشعوب الناطقة بلغة البانتو فى جنوب أفريقيا . (المراجع) .

هو استقلال منطقة الحدود ، ولم يكن التأثير الفرنسى يتغلغل فى هذه العينة البشرية لأبعد من الشعارات وبعض المظاهر السطحية . وكانت هذه الجمهورية المؤلفة من المهاجرين تعتبر فى حقيقة الأمر ثورة ضد السلطة ، الا أن الكاب كانت لا تزال هولندية ، رغم أن البوير لم يكن لديهم اى شعور بالولاء لوطنهم القديم .

وفى عام ١٧٩٥ اخذت الثورة الفرنسية تهتم بشئون جنوب أفريقيا بدرجة اكبر ، خصوصا حينما احتلت بريطانيا مدينة الكاب . ولما كانت فرنسا قد هزمت هولندا ، فقد طلبت شركة الهند الشرقية الهولندية من بريطانيا حماية مستعمراتها من جيوش الثورة الفرنسية ، وقاوم قليل من المستوطنين الوجود البريطانى الا أن قوات الشركة وقوات الحدود لم تفعل المثل .

وكان وصول بريطانيا الى الكاب يستهدف منع فرنسا من القيام بغزو جنوب أفريقيا ، اذ كانت بريطانيا ترى أن تقوم بالسيطرة على الكاب وادارتها بالطريقة الروتينية القديمة ، فى حين تتعقب العدو فى البحر . وعلى الفور اقترح الهولنديون المقيمون فى منطقة جراف رينت الناشئة الحصول على الأسلحة من بريطانيا مقابل تزويدها بالماشية ، بشرط السماح لهم بالبقاء فى منطقة الحدود ، الا أن بريطانيا كانت تضمر السيطرة الكاملة على المنطقة ، ذلك أن مظاهر انتشار مذهب « اليعاقبة » كان يقض مضجعها ، وفى سلسلة الاحتكاكات التى حدثت بين عامى ١٧٩٧ و ١٧٩٩ تم لبريطانيا السيطرة على منطقه جراف رينت وتحصيل الضرائب منها وسجن زعمائها .

وبدأ النشاط التبشيرى لأول مرة بين أهل الحدود من غير البيض . وأدت حركة النهضة الدينية فى أوربا فى ذلك الوقت الى خلق الاهتمام بحماية العناصر الأجنبية « فيما وراء البحار » ، ورغم وصول الحركة البروتستانتية الى الكاب فى أثناء احتلال بريطانيا للمنطقة ، الا أن الصلة بين الوجود البريطانى ووصول هذه الحركة كان بمحض المصادفة . وكان البوير يعتقدون أن هذه الأفكار قد ابتكرت خصيصا لاخضاع المتمردين على الحدود . وقررت جمعية لندن

للتبشير أن تجعل مركزها الرئيسى فى منطقة جراف رينت ، وأن تركز جهودها على تحرير الهتنتوت الذين كان يعتمد عليهم البوير كأيد عاملة . وتولى الأب جوهانز فان در كمب الهولندى الجنسيه ، الاشراف على تلك البعثة التبشيرية من قبل الانجليز البروتستانت . وكان هذا الأب من الناحية الأخلاقية منحلا — رجلا ولو أنه دخل فى زمرة المهتدين فى منتصف العمر ، الا أنه كانت تعوزه الوداعة — وكان يضمر أفكارا عن شهامة المتوحشين كانت تقوم على قراءات رومانسية لآراء روسو .

وقد انتقد الأب كمب موقف البوير من الهتنتوت والبانتو ، وتضمنت تقاريره الملتهبة الى الجمعية التبشيرية فى لندن كثيرا من الاختلاقات وتضخيم قصص التعذيب . وكرهه البوير لما كان يشيعه من أفكار تدعو الى التمرد بين من ينجح فى حملهم على اعتناق المسيحية ، وللتقارير التى كان يرسلها الى الجمعية فى لندن ، والتى كانت تستغلها بدورها فى اثارة الرأى العام وتوجيه سياسة الحكومة البريطانية . وحاول المكتب الاستعمارى اتخاذ خط معتدل فى هذا الموضوع ، رغم أنه كثيرا ما كان يضطر الى الاعتماد على تقارير الأب كمب ؛ لأن المعلومات الرسمية التى كانت تصله من منطقة الحدود كانت متناقضة فضلا عن عدم انتظام ورودها .

ولم يدرك البريطانيون أصل وطبيعة العلاقات الفريدة بين البوير وقبيلة الاكهوزا على الحدود . وكان هدفهم أن يمدوا سلطانهم الى خط معين من الحدود ، لكنهم كانوا مصممين على أن يتجنبوا تكاليف وتبعة فرض سلطانهم على البانتو . ولكى تقوى الحكومة نفوذ السلطات على الحدود اقترحت أن تضم الهتنتوت الى سلك الشرطة . وكان أتباع بعثة كمب يمكن أن يقوموا بهذا الدور على أتم وجه ، ولذلك فقد سلحوا تسليحا كاملا قبل أرسالهم . وبينما رحبت جمعية لندن التبشيرية بهذا الاجراء فان البوير احتجوا عليه بشدة ، وحتى وقت متأخر حين أصبح الهتنتوت خدما تابعين ، فان فكرة الخضوع لغير البيض من رجال الشرطة الذين سلحوا من أتباع الجمعيات التبشيرية التى كانت تعمل لتدمير المجتمع كانت أمرا لا يحتمل .

ولقد مثلت معاهدة اميان فى عام ١٨٠٣ فترة هدوء فى الحروب النابليونية ، وتم تسليم الكاب الى جمهورية بتافيا التى كانت بمثابة حكومة هولندية مستقلة سياسيا عن فرنسا . وكان الظروف حينئذ قد تغيرت ، فقد انتهت شركة الهند الشرقية الهولندية من ناحية ، كما أن جمهورية بتافيا قد اعتنقت بعض المبادىء الليبرالية من الثورة الفرنسية ، وظهر أن الموظفين الجدد التابعين مباشرة لحكومة امستردام سيكونون أجدى وأنفع . ولقد ظلت الشرطة المكونة من الهتنتوت باقية ، بل وتزايد عدد أفرادها ، كما تم تدعيم البعثات التبشيرية وانتظمت جباية الضرائب .

ولم يكن النظام الادارى الاصلاحى الذى قامت به بتافيا أكثر قبولا لدى البوير من النظام الانجليزى ؛ اذ كانت هناك اختلافات واضحة فى العادات والنظرة الى الأمور بين أهل جنوب أفريقيا والهولنديين . وقد استمر واحد فقط من الاصلاحات التى قامت بها حكومة بتافيا على الحدود ، وهو رفع وظيفة نافخ البوق على الحدود فى الفلد الى ما يماثل وظيفة قاضى الصلح النورمندى مع منحه سلطات تتعلق بالضرائب والعدالة وزيادة المجتمع . ولم يكن نابليون مرتاحا لذلك السلام ، فاستؤنفت الحرب فى أوربا وسقطت جمهورية بتافيا ، وعادت بريطانيا ثانية الى مستعمرة الكاب فى عام ١٨٠٦ لتبقى هذه المرة لأكثر من قرن من الزمان .

وتأكدت ملكية بريطانيا للكاب فى مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، ولكن الادارة العسكرية للمنطقة استمرت حتى عام ١٨٢٣ . وأصبح البوير تلقائيا رعايا تحت الاستعمار البريطانى . ومنذ البدائية فقد كانت مصالح الحكومة البريطانية مختلفة عن مصالح سكان الحدود الذين أصبحوا غير متمركزين فى منطقة واحدة ، ولكن البعثات التبشيرية استمرت فى تقديم تقاريرها عن قسوة البوير حتى تبينت بريطانيا أن هذه الشكاوى تستند الى أساس من الصحة ، لكنها شعرت فى الوقت ذاته أن رجال الارساليات كانوا يشجعون الهتنتوت على خلق المتاعب للبوير . ومن وجهة النظر البريطانية فان

البوير كانوا يعتبرون لانسانيين فى تصرفاتهم ، فى حين كان ينظر الى الأجناس الأخرى على انها بريئة ومضطهدة . وتزايدت اعداد الهتنتوت الذين ادخلوا فرق الشرطة مما اعتبره البوير ضربة موجهة الى احتياجاتهم من الأيدى العاملة . وبعد عام ١٨٠٧ كان صدور قرار البرلمان البريطانى بوقف تجارة الرقيق عاملا هاما فى تضخيم المشكلة حيث ترتب على ذلك أن صارت منطقة الحدود تعتمد اعتمادا كاملا على الهتنتوت فى تزويدها بالأيدى العاملة .

وفى عام ١٨٠٩ صدر القانون الذى اطلق عليه « ماجناكارتا الهتنتوت » الذى أسهم فى زيادة التوتر ، وذلك بالغاء ما سمى « بعقود المديونية » ، وضمان حرية العمال ومحاولة منع نظام « التجوال » اذ طلب من الهتنتوت أن يسجلوا انفسهم وأن يحملوا تراخيص خاصة بهم .

وكان تقدم الهتنتوت فى المستعمرة حافزا لقبائل الاكهوزا التى كانت تلاقى ضغطا من المؤخرة من جانب الزولو على الاغارة بجراة عبر نهر فش . وطالب البوير فى منطقة الحدود بتكوين فرق « كوماندوز » لمقابلة هذه الاغارات ، ولكن بريطانيا تجاهلت هذه المطالب . وبدلا من ذلك طلبت من المستوطنين أن يتجمعوا خلف خط من القلاع غربى نهر فش لمنع اى احتكاك بالاكهوزا .

أما اقرار الحدود فقد تأثر كثيرا بقانون الأراضى Land Ordinance الصادر فى عام ١٨١٢ والذى حاول أن يضفى الصفة الشرعية على هذه الاجراءات التى اتخذت للحد من الاحتكاك بين القبائل ، وترتب عليه الغاء معظم ما تضمنه القانون الهولندى السابق الخاص بتنظيم الأراضى .

وصار النظام الجديد — والذى كان يسعى لتأكيد سيطرة بريطانيا — ذا صبغة زراعية ، فلم يتضمن شيئا عن الماشية حتى لا يشجع ذلك قبائل الاكهوزا على الاغارة على الحدود . وصار المستوطنون يحوزون ١٢٠٠ (آكر) فقط بدلا من ٦٠٠٠ (آكر) التى كان ينص عليها القانون الهولندى القديم ، والذى كانت هذه الاقطاعيات فى ظله

ملكيات حرة بعد سداد ايجار سنوى قدره عشرة دولارات لخمس سنوات . وأمكن فى ظل النظام الجديد السماح بتقسيم هذه الاقطاعيات بين الورثة على أن يدفع عن هذه القطع الصغيرة ايجار سنوى بانتظام قدره ١٠٠ شلن سنويا .

وكانت ردود الفعل من جانب البوير عنيدة فورية ، ذلك ان قيمة الايجار كانت مرتفعة ، كما أن المزارع التى خصصت لتربية الماشية لم يعد من الجائز تقسيمها بين الورثة حيث كانت تربية الماشية اكثر ربحا من الزراعة . ومن الوجهة العملية فقد استمر نظام الايجار القديم لمدى الحياة الى ما لا نهاية ، وعلى ذلك فان النظام الجديد الذى أقامه الانجليز لم يقدم اية ميزة جديدة بالنسبة اليهم . الا أن لب الموضوع كان يكمن فى محاولة بريطانيا الغاء تربية الماشية ، فى الوقت الذى كان البوير يدركون فيه أن منطقة الحدود الشرقية لم تكن تناسب الزراعة ، وأن رعى وتربية الماشية اكثر ربحا ، وأن اعادة استقرارهم سيترتب عليها ان تكون حياتهم تحت رحمة أجانب عنهم . وتم تجاهل معظم تعليمات القانون الجديد وتمسك المستوطنون بأراضيهم القديمة واستمروا فى تربية الماشية استجابة لطلبات سوق مدينة الكاب التى لا تنقطع . ولم تدرك بريطانيا فى حينه أن اقتصاديات منطقة الحدود الشرقية تعتمد على تربية الماشية اكثر من اعتمادها على المحصولات الزراعية ، فى حين تعتمد المدن الغربية على قطعان البوير فى غذائها .

وبدأ رجال الارساليات فى تشجيع الهتنتوت على تقديم عرائض ضد سكان الحدود من البوير واتهامهم بسوء معاملتهم ، حتى ان الحكومة البريطانية أقامت محكمة خاصة للنظر فى هذه التهم . وحضر بعض أصحاب المزارع لسماع الحكم ، كما رتبت جمعية لندن التبشيرية محامين لمساندة المدعين . ولكن البوير — الذين كان يضايقهم معاملتهم على قدم المساواة مع غير البيض — وجهوا الى « جمعية لندن التبشيرية » تهمة الانحلال وعدم المسئولية فى تصرفاتها .

وبعض الأحداث المتصلة بهذه المحكمة تناولها الأساطير الوطنية

فى جنوب أفريقيا اليوم ، فمثلا كان من بين احكام المحكمة تهمه سوء معاملة خادم من الهتنتوت يدعى « بويز » وكانت التهمة موجهة ضد رب عمله البويرى الذى يدعى فردريك بزويد نهوت ، ويبدو أن جمعية التبشير فى لندن هى التى أوعزت الى بوير بذلك . ولكن رب العمل رفض المثول أمام المحكمة وأرسل مجموعة من الشهادات الطبية لاثبات مرضه ، وحاول احد رجال الأمن من الهتنتوت احضاره الى المحكمة ولكنه أصر على الرفض ، وعلى عدم السماح لغير البيض بأن يقبضوا عليه ، وظل يقاوم رجال الشرطة الى أن قتل .

وأقسم جوهانز شقيق فردريك أن ينتقم لأخيه . وكتب أحد جيرانه من المتعاطفين معه ، ويدعى هندريك برنسلو ، الى « جايكا » Gaika رئيس قبيلة الاكهوزا يقترح عليه عقد تحالف بينهما تحصل بموجبه القبيلة على مساحات من الأرض ان هى ساعدت البوير على اقامة جمهورية مستقلة ، ولكن السلطات البريطانية تمكنت من الحصول على هذا الخطاب قبل وصوله الى رئيس القبيلة ، وقامت بالقبض على برنسلو مرسل الخطاب بتهمة التحريض على التمرد . وحاول باقى الفلاحين انقاذه لكنهم لم يستطيعوا الاطاحة بالحكومة العسكرية . وقتل جوهانز شقيق فردريك فى أثناء معركة ، وتم القبض على معظم المزارعين المتمردين عند (Slachter's Nek) وحكم عليهم بالاعدام سنة ١٨١٥ .

وتمت تلك المحاكمات طبقا لأحكام القانون الهولندى ، وكان جميع القضاة من الهولنديين أو من البوير ، وكان الدليل قاطعا على ادانتهم . ولم تكن هذه الانتفاضة هى الأولى من نوعها فى تاريخ منطقة الحدود . ورغم أن هذه الحركة لم تجتذب تأييدا واسعا فى أوساط المزارعين ، الا أن الظروف التى صاحبت أحكام الاعدام هى التى جعلت منها أسطورة كبرى تناقلتها الأجيال .

ولما استدعيت أسر المحكوم عليهم بالاعدام لتشهد عمليات الشنق انهارت المشنقة عند تنفيذ أحكام الاعدام ، وتناقلت الأساطير هذه الواقعة على أنها « فعل الهى » لانقاذ المحكوم عليهم ، مما اضطر

السلطات الى أن تعيد ترميم تلك المشنقة وتستأنف تنفيذ الأحكام . وترددت اشاعات تقول ان منفذ أحكام الاعدام كان قد تلقى أوامر مكتوبة وضعت فى جيبه بتأجيل التنفيذ ، الا أنه لم يكتشفها الا بعد تنفيذ الأحكام مما أدى به الى محاولة الانتحار . وأصبحت (Slachter's Nek) رمزا للأحزان والأسى الذى يشعر به سكان الحدود تجاه الجمعيات التبشيرية ، والسياسة الوطنية ، والعدالة البريطانية . وأصبح المتمردون الذين يقاومون الحكومة أبطالا فى نظر أهليهم ، لأنهم يقاومون الحكم الاستبدادى والليبرالية المنحرفة . وفى السنوات الأخيرة كانت تباع شظايا خشبية كتذكار للشهداء الذين لقوا حتفهم شنقا . ورغم أن الوقائع الحقيقية كانت أحداثا صغرى فى حد ذاتها ، الا أنه قد حيكت من حولها الأساطير مما جعل لها حجما مضاعفا فى تاريخ جنوب أفريقيا .

وحكم اللورد تشارلز سومرست المستعمرة للفترة الباقية من العقد الثانى من القرن التاسع عشر ، وكان متوقعا لسياسته ، التى سارت على أسس كنيسة انجلترا ، أن تحقق التكامل للسكان البيض ، الا أنها ، على العكس من ذلك ، ولدت كثيرا من المرارة بينهم ، وبسطت الحكومة سلطتها على الكنيسة الهولندية التى كانت تتمتع بنفوذ واسع . ورغم أن الحكومة كانت من الوجهة الرسمية انجليكانية ، فقد اعتادت أن ترسل اسكتلنديين تابعين للكنيسة المشيخية ليدبروا أمور المستوطنين فى منطقة الكاب . واضطرت التجمعات الهولندية الى قبول « تعميد » كهنة الكنائس الاسكتلندية ، كما قبلت المثول أمامهم فى مراسم الزواج والاحتفالات الدينية ، ولكن هؤلاء الكهنة أثاروا كراهية البوير باصرارهم على استخدام اللغة الانجليزية بدلا من الهولندية ، وكذا بتعاطفهم مع الارساليات التبشيرية .

وكان الاسكتلنديون مسيطرين على النواحى الدينية للبوير من الناحية الشكلية ، ولكن من الناحية الفعلية كانت هناك فجوة تفصل بين أفكار البوير وبين الكنيسة بشكل ظاهر . فمنذ عام ١٨٢٨ كان للغة الانجليزية السيادة فى الكنائس الا أنها نادرا ما كانت تسمع فى البيوت.

وبدأ ظهور مشكلة أخرى فيما وراء الحدود الى الداخل شمالى أرض الاكهوزا . ففيما بين عام ١٨٠٣ و ١٨١٣ ساعد رجال الارساليات أعدادا كبيرة من الملونين ذوى الدماء المختلطة ، على مغادرة مستعمرة الكاب والاقامة حول محطات التبشير على امتداد نهر الأورنج ، وكونوا لأنفسهم مجموعات من الولايات شبه القبلية سميت « جريكا » كانت تسطو على البوشمن وعلى القطعان الهائمة ، واستطاعت جمعية التبشير فى لندن أن تعد مجموعة قوانين وأن تقدم النصائح لجمهوريات الجريكا ، كما استطاع أحد زعماء « الملونين » — ويدعى ووتر بوير — أن يفرض حكومة مركزية على مجموعات الجريكا المتناثرة ، كما استطاع الحاكم اللورد سومرست مد نطاق السيطرة البريطانية الى حدود هذه الولايات حيث كانت تقوم هناك تجارة فى الجلود بين البوير وبين « ووتر بوير » ، وبطريقة غامضة أمكن اخضاع ولايات الجريكا تحت نفوذ المقيمين البريطانيين ، لكن الحد الشمالى الشرقى لهذه الولايات لم يكن محددا . وفى المدى الطويل صار لسكان هذه الولايات والبوير اتفاقية حدود عملت على تلافى الصراع بينهما . وفى الحقيقة كانت هذه الحدود بعيدة عن أسواق الماشية فى الكاب ، وكانت قاحلة بحيث لا تثير اطماع البوير . واستفاد الطرفان من التبادل التجارى فى المنطقة ، ولم يحدث بينهما الا منازعات ضئيلة على الأرض . واستمرت الارساليات التبشيرية تمثل مجال الخلاف والتنافس ، لكن المناطق الرئيسية التى كان الخلاف يدور عليها كانت لا تزال بعيدة فى أقصى الجنوب .

وبدأت الأحوال تتدهور على حدود نهر فش وأثبتت الخطة البريطانية لعام ١٨١٢ لاعادة التوطين عدم جدواها . واستمر البوير فى مطالبهم ، وشرعوا فى العمل على حماية أنفسهم بكيفية تشبه أعمال الكوماندوز ، ولذا احتدم الجدل بين المستوطنين والكفرة حول حق اقامة الحصون .

وازداد ضغط قبائل الاكهوزا على طول الحدود فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، كما تسبب النمو السكانى فى زيادة الطلب على

الارض ، الا أن أسباب الصراع الحقيقية كانت تكمن فى مجتمع البانتو ذاته ؛ اذ كانت قبائل الاكهوزا — شأنها فى ذلك شأن معظم قبائل البانتو الأخرى فى الجنوب — تميل نحو الانقسام الى عدة فروع قبلية بعد وفاة رئيسهم . ولقد نتج عن هذا الانشطار الى اكهوزا شرقيين واكهوزا غربيين أن هاجر الاكهوزا الغربيون باتجاه نهر فش عام ١٧٧٥ ، فلم تعد هناك أية أراض خالية ، فاستحال على القبيلة أن تتجزأ من جديد ، مما أوجد التوتر بين مجتمع الاكهوزا ذاته ، وأدى ذلك بالتالى الى تزايد الاغارات على الحدود .

ووجدت ميول أخرى الى الانقسام فى قبائل أخرى أشهرها الزولو الذين احتلوا الجزء الشمالى من الناتال .

وبعد انقضاء ٢٠٠ سنة منذ وصول « الزولو » فى القرن السابع عشر انقسمت كل من الزولو والنجونى الى مجموعات من الدويلات المستقلة ، وكان يحيط بهم من الشمال قبائل السوازى ، ومن الغرب قبائل السوزو ، ومن الجنوب مجموعة القبائل المكونة من التمبو ، والبوندو ، والاكهوزا ، والتى امتدت ناحية حدود الكاب .

وفى عام ١٨١٦ انتقلت رياسة مجموعة الزولو الى « الشاكا » وهو أحد الأمراء الذين اشتهروا بالذكاء ، وكانت له مقدرة فريدة فى النواحى العسكرية ، وبعد أن وصل الى منصب الزعيم الأكبر ، قام فى عام ١٨١٨ بشن سلسلة من الحروب ضد جيرانه من السوازى . واستطاع الشاكا انشاء جيش شديد التماسك ، مسلح بالحراب ، تعمل قواته بطريقة « الهلال » الذى يحتوى العدو فى قلبه باحكام ويحيطه بجناحين ينطلقان بسرعة تمهيدا للقضاء عليه . ودانت أرض الزولو بالولاء لهذا القائد الذى لقب بنابليون الأسود أو الأفريقى، وتم له اجتياح سوازيلاند . وكانت الأصداء التى ترددت عن ذلك وانتشرت بين قبائل التمبولاند والبوندولاند سببا فى دفع الاكهوزا للاغارة ضد المستعمرة البيضاء غربى حدود نهر فش .

وقد رفض بعض مساعدى الشاكا أن يسلموا بالنصر كله لرئيسهم الأكبر ، وتحدى كل من مساعديه « زويدى » ومزيليكازى

الحكم المطلق له بعد الحرب مع سوازى ، ولكن الشاكا لم تأخذه بهما رحمة . وفرت عصابات زويدى التى كانت تعرف « بالنجونى اللاجئين » الى الشمال ، الى ما يسمى حاليا بالترنسفال فيما بين عامى ١٨٢٠ و ١٨٢١ . وخلف زوانجندابا أباه زويدى ، وظلت قوات زويدى بعد وفاته على سابق قوتها . وتفرق شمل السوزو الشماليين الذين كانوا يسكنون تلك المنطقة ، أما من تبقى منهم فقد أعادوا تنظيم أنفسهم تحت اسم قبائل بابدى (Bapedi) ولوفيدو وفندوا واستأنف النجونى زحفهم نحو الشمال .

ونحو عام ١٨٣٤ اجتاز النجونى نهر لمبوبو متجهين نحو روديسيا الجنوبية حيث اجتاحوا قبائل الروزوى — آخر الشعوب التى كانت تحيط بأسرار بناء دولة زمبابوى والمدن الأخرى المشيدة من الأحجار ، وحاول بعض الروزوى الباقين التجمع واعادة بناء كيانهم بالقرب من مساقط فيكتوريا الا أن معظم المنطقة بما فى ذلك زمبابوى ظلت مهجورة . وانتشرت قبائل النجونى التابعة لزوانجندابا الى الشمال حتى بحيرة فيكتوريا قبل أن تعود وتستقر على بحيرة نياسا . وقد خلف زوانجندابا وراءه آثارا من التخريب ، وقبل أن يستقر شعبه كان قد أسهم فى نشر الفوضى وانعدام الاستقرار اللذين اشتهرت بهما منطقة شرق أفريقيا فى منتصف القرن التاسع عشر ، مما جعل المنطقة مهيأة لتجارة الرقيق .

أما المجموعة الثانية المنشقة من الزولو التى كانت تحت قيادة مزيليكازى فقد عبرت مجموعة جبال دراكنزبرج فى عام ١٨٢٣ ، وباختراقهم دولة الأورنج الحرة بعيدا عن أرض الزولو أمكنهم الهروب من سطوة الشاكا ومنطقة نفوذه . ونصب مزيليكازى نفسه رئيسا على قبيلة جديدة اسمها « ندبيلى » وان كانت السوزو والبوير يطلقون عليها اسم « الميتابيل » . وكان الشاكا من حين لآخر يقوم بالهجوم الذى يسفر عن هروب عدد من اللاجئين الى هضبة الفلد . لكن كان مزيليكازى قادرا باستمرار على دحر السوزو الجنوبيين الذين كانوا قد احتلوا المنطقة من نحو مائتى سنة .

وقد هاجر بعض الباقين من السوزو الى حافة صحراء كلهارى حيث تلقوا المساندة والحماية من الارساليات التابعة « لجمعية لندن للتبشير » ، وأمكن لهم تنظيم مجموعات من القبائل الصغرى (بتشوانا ، وبامانجواتو ، وبارولنج ، وبانجواكتسى ، وغيرها) ، كذلك لجأ بعض المتبقين الآخرين من السوزو الى الاحتماء فى جبال دراكنزبرج ، ونظرا لعدم وجود رئيس لهم فقد قبلوا الخضوع لسلطان أحد الأفراد من العامة يسمى موشش أقام الاستحكامات الدفاعية وأنشأ الدولة الجديدة لباسوتو من بين شعب لم يكن يجمعه أى نوع من التنظيم ، والذى حاول أن يحتل بعض الأراضى القابلة للزراعة فى السفوح المحيطة بقلعته الجبلية ، وظلت منطقة الفلد بين كلهارى وسلاسل جبال دراكنزبرج خلوا من السكان مخافة بطش قبائل الميتابيل التابعة لمزيليكازى .

ولما تبينت بريطانيا امتداد مشكلة البانتو الى قبائل الاكهوزا عام ١٨١٩ ، عملت على جعل الضفة الغربية لنهر فش منطقة محايدة لمنع الاحتكاك المتكرر بين الاكهوزا والبوير . كما عملت على أن يقوم البوير باخلاء هذه المنطقة بحيث صارت أرضا « لا مالك لها » ، ويبدو أن حقيقة الضغوط من أرض الزولو لم تكن مفهومة . ورغم قيام بعض الدوريات البريطانية بحراسة المنطقة الا أن هذه السياسة أثبتت فشلها ، اذ اغضبت البوير كما أسفرت عن تدافع الاكهوزا لاحتلال تلك المنطقة المحايدة .

وتصادف أن كان الحاكم اللورد سومرست فى اجازة فى انجلترا حين قررت هذه السياسة ولكنه حين عاد من اجازته ألغى هذا النظام فى العام التالى ، وصارت منطقة الحدود فى نهر فش خالية من السكان الا من بعض القوات البريطانية ثم منحت هذه المنطقة فى عام ١٨٢٠ الى مجموعة من المهاجرين البريطانيين الجدد .

وكان المأمول أن يعمل هؤلاء المهاجرون البريطانيون الجدد على ايجاد توازن فى هذه المنطقة (منطقة خليج البانى) بامدادها بهذه الدفعة الجديدة من المزارعين الموالين للحكومة . الا أن ما حدث هو أن قلة منهم هى التى كانت تمارس الزراعة من قبل ، فضلا عن أن

اتربـة لم تكن تناسب الا الرعى ، كما أن بعض المحصـولات التى أمكن زراعتها قـد دمرتها الفيضـانات أو غـارات الاكهوزا على مـدى ثلاث سنوات متتالية ، ولكن الاعانات والتبرعات التى وردت من الهند وانجلترا هى التى سـاعدت هـذه الهجرة السـكانية الجـديدة على البقـاء ، وان كانت أغلب المعونات قـد أتتهم من البوير بالداخل ، الذين استطاعوا الاثراء فى ذات الوقت ببيـع الغذاء والمؤونة لهم . وكان من بين أشـهر من استفادوا من هـذا الظـرف فى تكوين ثروة كبيرة بيت رتيف الـذى أصبح فيما بعـد من قادة البوير السياسيين .

ومثلما فعل الهولنديون من قبـل ، قـام المزارعون الانجليز بمحاربة المغيرين من قبـائل الاكهوزا ، واشتكوا ـ كمـا فعـل البوير ـ من قلة حماية الحكومة لهم ، وقدموا عرائض بذلك ، فى أعوام ١٨٢١ ـ ١٨٢٣ ، وكانت هـذه الاحتجاجات والشـكاوى محرفة ومشـابهة فى أصـلها لعرائض الهولنديين التى قدموها من قبل فى أوائل هـذا العقـد . وكان رد سومرست هو وقف الجمعيـة السياسية مما أغضب منـه سـكان منطقة الحـدود من الفريقين . وترك المزارعون الانجليز مزارعهم ، بعـد أن أخفقت محصولاتهم ثلاث مرات متتاليـة ، وهجروا الزراعـة ليشتغلوا بالتجـارة مما دعا فريقـا من المستوطنين الانجليز الى الانتقال الى مدينة الكـاب . وحـل محل ميـنـاء الكـاب ـ كسوق ومنفذ للأقاليم الواقعـة على الحـدود ـ ميناءان هما « بورت اليزابيث » الأكثر قربا من منطقـة الحـدود ، ثم ميـنـاء « ايست لندن » ، وأصـبح المسـتوطنون الانجليز الذين أطلق عليهم « مستوطنو البـانى » وسطاء مـع العـالم الخـارجى من جهـة ومـع الاكهوزا أو البوير الذين يعتمد اقتصـادهم على تربيـة الماشية من جهـة أخرى .

وكان هـذا الاتجـاه نحو التجـارة ذا أثر عميـق فى اقتصـاديات منطقة الحـدود ، اذ كان القيد الرئيسى على توسـع البوير هو البعد عن أسواق مدينـة الكـاب ، كما لم يكن مجزيا التوسـع نحو الداخـل الى مـا وراء نهر فش أو الى الأورنـج حيث لـم تكن المـاشية تتحمل أن تسـاق حتى مدينـة الكـاب . وحين ظهرت المراكز التجارية الجـديدة

بعـد عـام ١٨٢٣ حول منطقـة خليج البـانى ، أصبحت منطقة واسعة فى متنـاول الأسواق المربحة . وبدأ البوير فى الاقامة الى الداخـل عند نهر الأورنج الذى تسقط عليـه الأمطـار المتفرقة فى فصـول معينـة من السنة ، الا أن التركز الأكبر كان جنوبى النهر ، وان كانت قطعان الماشية تؤخـذ أحيانا الى الشمال من النهر للرعى .

ولم تكن هـذه المنطقـة عند الأورنج تتمتع بالخصب مثـل منطقـة نهر فش ، ولكنها كانت متسعة وخاليـة من السـكان ، أما المهاجرون الجـدد من الجريكا فقـد ظلت اقامتهم الى الشـمال الغربى ، كمـا كانت اقامة الاكهوزا بعيدا الى الجنوب قرب الساحل.وخلت منطقة هضبة الفلد من البـانتو الا من قبيلة الميتابيل المغيرة الذين تقهقروا نحو منطقة الفال فيمـا بعـد . ولـم يكن البوير يرون أن هنـاك عائقـا يقف فى طـريق توسعهم ماداموا يستطيعون فى النهاية الوصـول الى أسواق الماشية ، ولذا فقـد وقفت منـاطق استقرارهم فجـأة عند نهر الأورنج ومن ناحية الغرب عند حـدود أرض الجريكا .

وفيمـا بيـن عـامى ١٨٢٣ و ١٨٢٥ أصـدر البرلمـان البريطـانى قرارات بفحص ومراجعة أوضـاع مسـتعمرة الكاب ، واتهم سومرست بالغطرسـة ، كما تم فحص النواحى المالية فى المستعمرة فحصـا دقيقا ، وأسفر ذلك عن اعفـاء الحاكم من منصـبه وتعيين مجلس استشـارى بدلا منه يتولى مهامه التنفيذية والتشريعية ، كما تم اصـلاح نظـام النقد فى المستعمرة .

وكانت الحكومة الهولندية قـد قامت باصـدار عملة ورقيـة ، ولم يكن لها غطـاء سـوى تعهـد السـلطات الهولنديـة ، وظلت هـذه العملة فى التداول حتى تحت الاحتلال البريطانى للمستعمرة . واستغل المضـاربون هـذه الفرصـة لتحقيق أرباح من عملية الخصـم فى هـذه الأوراق المـالية ، كمـا كان الزراع يسـتخدمونها فى سـداد الضـرائب المستحقة عليهم ، الا أنها ، فى الوقت ذاته ، لم تكن صـالحة لتسـديد النفقات الحربيـة والادارية للمستعمرة .

وكـان اللورد سومرست يلجـأ الى الاستدانة بـمبالـغ كبيرة لتمويل

نظام حكمه مما ترتب عليه توجيه النقد اليه من جانب لجنة فحص الشئون المالية للمستعمرة . ومن أوجه الاصلاح التى اتبعت استرداد الأوراق النقدية الهولندية مقابل قيمة ضئيلة . وكان سكان منطقة الحدود يتبعون أسلوب المقايضة بدلا من استعمال النقود فى تعاملهم التجارى ، لكنهم اعتقدوا أن ابطال هذه العملة الورقية لم يكن الا محاولة متعمدة لتحطيم رخائهم الاقتصادى ، هذا بالاضافة الى أن الأوراق النقدية الهولندية كانت قد أصبحت رمزا لدى البوير على شخصيتهم المميزة ونزعتهم العاطفية الخاصة بهم .

وكانت أبرز نواحى الاصلاح التى تمت فى تلك الآونة هى النواحى القانونية ، والحكم المحلى ، وتحسين أحوال الهتنتوت وتطوير لغتهم ، وكانت السنة الحاسمة لاتمام تلك الاصلاحات هى سنة ١٨٢٨ ، وان كانت هذه التعديلات لم تجر دفعة واحدة . وبرزت مشكلة اللغة فيما يتعلق بالكنيسة الهولندية التى كانت تسيطر عليها هيئة من القسس الاسكتلنديين منذ عام ١٨٠٨ . وبدأت مهام الحكومة تتخذ تدريجيا الأسلوب الانجليزى فى الفترة ما بين ١٨٢٣ و ١٨٢٨ ، كما لم تعد اللغة الهولندية تستخدم فى نواحى الخدمة المدنية ، ولا فى القضاء ، ولا فى المدارس ، فضلا عن أنه كان على الكنيسة أن تتخذ اللغة الانجليزية وسيلة لادارة الاجتماعات الخاصة بشئونها . وكانت الآثار المترتبة على ذلك أقسى مما كان متوقعا لها حيث قابلها البوير بكثير من الامتعاض .

ونفر رعايا الكنيسة من التعديلات الجديدة ، وكذلك من النظام اللاهوتى لكنائسهم ، كما أن ثلثى الآباء سحبوا أبناءهم من المدارس لكى يتفادوا تعليمهم اللغة الانجليزية . وقد قرر أعضاء لجان التحقيقات أن نظام التقاضى الرومانى — الهولندى القديم نظام قاس وعنيف ، وبدلا منه كان القضاة الانجليز يتبعون نظام المحلفين ، ولذا كان لابد من استخدام القانون الانجليزى واللغة الانجليزية ، وقد اعتبر سكان الحدود من البوير كل هذه البدع شيئا بغيضا .

ورغم أن القانون الهولندى المستمد من القانون الرومانى ظل على

المدى الطويل سارى المفعول فيما يتعلق بالمنازعات المدنية ، الا أن القانون الانجليزى كان هو المتبع فى المجالات الجنائية والتجارية . ومن المشكلات التى كانت تعترض تطبيق القانون الهولندى نقص العرف والتقاليد التى كان يمكن أن تستخدمها التشريعات المختلفة ، حتى ان هولندا نفسها استخدمت مجموعة قوانين نابليون فى أثناء الثورة الفرنسية ، وكانت منطقة الحدود فى الكاب ينقصها وجود تشريع متكامل أو هيئة قضائية لتتمكن من تطوير القانون القديم . ثم ألغى نظام الحكم المحلى تماما ، وجرد نافخو الأبواق فى الفلد من سلطاتهم الحربية والقضائية ، وآلت السلطة الفعلية الى شبكة من الحكام كانوا مسئولين بدورهم أمام المجلس الاستشارى فى مدينة الكاب .

وكان من الممكن أن تكون الاصلاحات ، فى مجال اللغة وفيما يتعلق بالقانون وبنظام الحكم المحلى ، مجدية وناجحة لو لم تصطدم بالتقاليد المحلية التى كانت قائمة منذ القرن السابع عشر . وعلى ذلك فان هذه التغييرات أخلت بالأحوال السائدة فى المستعمرة بنفس القدر الذى أحدثه ادخال النظم المستحدثة اليها . ورغم أن هذه الاصلاحات كانت تقلق بال البوير الا أن الأثر الناجم عن تحسن أحوال البانتو من جهة أخرى كان يفوق فاعلية ما أصاب البوير من قلق .

وتمكنت « جمعية لندن للتبشير » من العمل على مد نطاق نفوذها الى ما وراء مناطق الحدود فى السنوات التى تلت عام ١٧٩٩ بعد ما تمكن كمب من اقامة المحطة التبشيرية الأولى ، وانتشرت البعثات التبشيرية بعد ذلك بين قبائل الهتنتوت فى منطقة « جراف رينت » وفى مستوطنات الملونين فى منطقة أراضى الجريكا « ووادى نهر الأورنج » وبالتالى بين قبائل السوزو المنتشرين شمال أراضى الجريكا على طول حافة صحراء كلهارى .

وفى عام ١٨١٨ حل الدكتور جون فيليب محل « كمب » ، وكان الدكتور فيليب ممن ينادون بمبدأ المساواة مع الفصل بين الأجناس فى الوقت ذاته . وكان لتقاريره فى العشرينيات من القرن التاسع عشر أثر كبير فى فكر « جمعية لندن للتبشير » ، وفى الرأى العام الانجليزى ،

وكذلك فى البرلمان والمكتب الاستعمارى فى لندن . ونادى الدكتور فيليب بفكرة تقضى بأنه يمكن لكل من الهتنتوت والجريكا أن يباشر حضارة وثقافة خاصة به ما دام هناك اشراف على ذلك من البعثات التبشيرية ، وتقديم منح لكل من العنصرين بحيازة الأرض ، مع حظر تعاطى المشروبات الكحولية .

ولم تتضمن أفكار الدكتور فيليب طرد المستوطنين البيض أو تجريدهم من ملكياتهم ، وانما كانت تقضى بألا يستغل البيض سواهم من الأجناس الأخرى . ولتحقيق هذا فقد اقترح فصل الأجناس كلية على أن يسمح لشتى المجتمعات بتبادل التجارة بعضهم مع بعض ، وانما تكون لكل مجتمع أرضه التى يستغلها وتخصه وحده وكانت أفكاره الأصلية تبدو متفقة مع المنطق وتقدمية فى تلك الآونة ، الا أن المواقف والتصرفات من جانب المستوطنين البيض من الانجليز والبوير على السواء حملت أفكار الدكتور فيليب أكثر مما كانت تحتمل .

ولقد كان الدكتور فيليب يرى أن القوانين ضد حرية تجوال الزنوج تعتبر قوانين ضد حرية العقيدة وحقوق الانسان . وكان يهاجم بشدة قانون تراخيص المرور التى كانت تحول بين الهتنتوت الذين لا يملكون أرضا من الهروب من أرباب العمل . وقد كان الكثيرون من سكان جنوب أفريقيا يعتقدون أن الدكتور فيليب قد تجاوز الاهتمام بالجانب الانسانى والدينى ، وأن ذلك يخفى وراءه مناورة سياسية ، وان كان قد تم لوجهة نظره الذيوع عام ١٨٢٨ حين أمرت لندن حكومة جنوب أفريقيا باصدار القرار رقم ٥٠ الذى دار حوله كثير من الجدل .

وتمكن الهتنتوت والبوشمن والجريكا لأول مرة من تملك الأراضى ، والغيت قوانين « تراخيص المرور » ، ولم يعد يقبض على غير البيض الذين لا يعملون فى مناطق الاستيطان اذا عثر عليهم هناك بدون عمل . وتمت كفالة الحقوق المدنية للزنوج وغيرهم بما يضاهى ما يتمتع به البيض ، وبالأخص للملونين فى منطقة الجريكا ، وبدأ المستوطنون البيض فى الاحتجاج بمرارة معلنين أخطار عدم السيطرة على « المغيرين » وما

يتهدد أعمالهم من جراء عدم استطاعتهم الحصول على الأيدى العاملة من الهتنتوت ومن الملونين ، وأن وسائل رزقهم قد أصابها الدمار ، اذ لم يبق الا عدد قليل من الرقيق لأداء الخدمات الزراعية والرعوية .

وظل القرار رقم ٥٠ سارى المفعول فى مستعمرة الكاب حتى عام ١٩١٠ ، وتضمن دستور جنوب أفريقيا — لمدة امتدت بعد ذلك بجيلين — الضمانات التى كان القرار قد أوردها بالنسبة الى الملونين ، وقام الدكتور فيليب بتوزيع مساحات من الأراضى ، كما قام بانشاء عدد من القرى لحوالى ربع عدد الهتنتوت المحررين ، الا أن معظم هؤلاء الهتنتوت هجروا مستوطناتهم بعد بضعة شهور .

وقد وجهت التهمة الى الدكتور فيليب بتزوير بعض عقود الأراضى ، وقد قامت لجنة فيما بعد بالتحقيق ، ولكن هذه التهم لم تثبت نهائيا . وعاد معظم الهتنتوت بعد ذلك الى أرباب أعمالهم القدامى ، غير أن نحوا من ٢٥ ٪ منهم تحولوا الى مغيرين لسرقة المحصولات أو فرضوا أنفسهم ضيوفا على أقربائهم الذين يعملون بصفة منتظمة ، وكان بعض سكان منطقة الحدود من البيض يظن أن الدكتور فيليب يتآمر مع الهتنتوت والزنوج لرفع الأجور مما يؤثر فى مشروعاتهم ، لكن جمعية لندن للتبشير أقنعت الادارة المختصة بالمستعمرات بأنه لا أساس لهذه الشائعات .

وتم الغاء الرق بمقتضى القانون التشريعى البريطانى عام ١٨٣٤ . ورغم أن معظم الرقيق فى الامبراطورية البريطانية كان فى جزر الهند الغربية الا أن ملاك المزارع فى تلك الجهات كانوا يقيمون فى لندن حيث كان يتم دفع التعويضات التى أقرها البرلمان البريطانى . ولم يكن بين البوير من يمتلكون الرقيق الا عدد صغير من الأثرياء وذوى النفوذ ، وبعد أن أعتق الهتنتوت أصبح عبيدهم مصدر العمالة الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه . واعتمد البوير فى تحصيل ما يخصهم من التعويضات نظير عتق العبيد ، على وكلاء مدينة لندن الذين كانوا يتقاضون عمولات تصل الى ثلثى قيمة هذه التعويضات . وقد أدى نقص الأيدى العاملة والعمولات الباهظة التى تقاضاها وكلاء لندن ، بالاضافة الى الارتباك النقدى ، الى تزايد مضايقات البوير .

وكان تنظيم أحوال الرقيق المحررين يشغل جانبا هاما من التفكير فى بريطانيا ، فقد رئى أن يعمل ٣٩٫٠٠٠ منهم لمدة أربع سنوات تحت التمرين ، الا أنه لم ينقض شهر حتى تسببت الاكهوزا فى فتح جبهة جديدة للحرب أدت الى عدم اتمام هذه الخطة ، والى عدم تحصيل المبالغ المدفوعة نظير اعتاق الرقيق ، وقامت الحكومة بتوفير سبل الدفاع للمنطقة للمرة الأولى . وتمكن « بيت رتيف » من تنظيم بعض فرق من الكوماندوز مكونة من كل من البوير والمستوطنين الانجليز ، وقد أسهم عدد من المزارعين فى تكاليف هذه الحرب الدفاعية التى استمرت لعامين وكلفتهم محصول سنتين ، فضلا عن مواردهم من الأيدى العاملة ومعظم مبالغ التعويضات مما اضطر عددا منهم الى الافلاس . وتم تنفيذ الحجز على عدد من الرهونات ، وصار من نزعت ملكيتهم غير قادرين على التحرك الى أى مكان آخر فى المستعمرة ، كما قامت الحكومة ببيع الأراضى التى لم يدع أحد ملكيتها فى المزاد لمن يعطى السعر الأعلى .

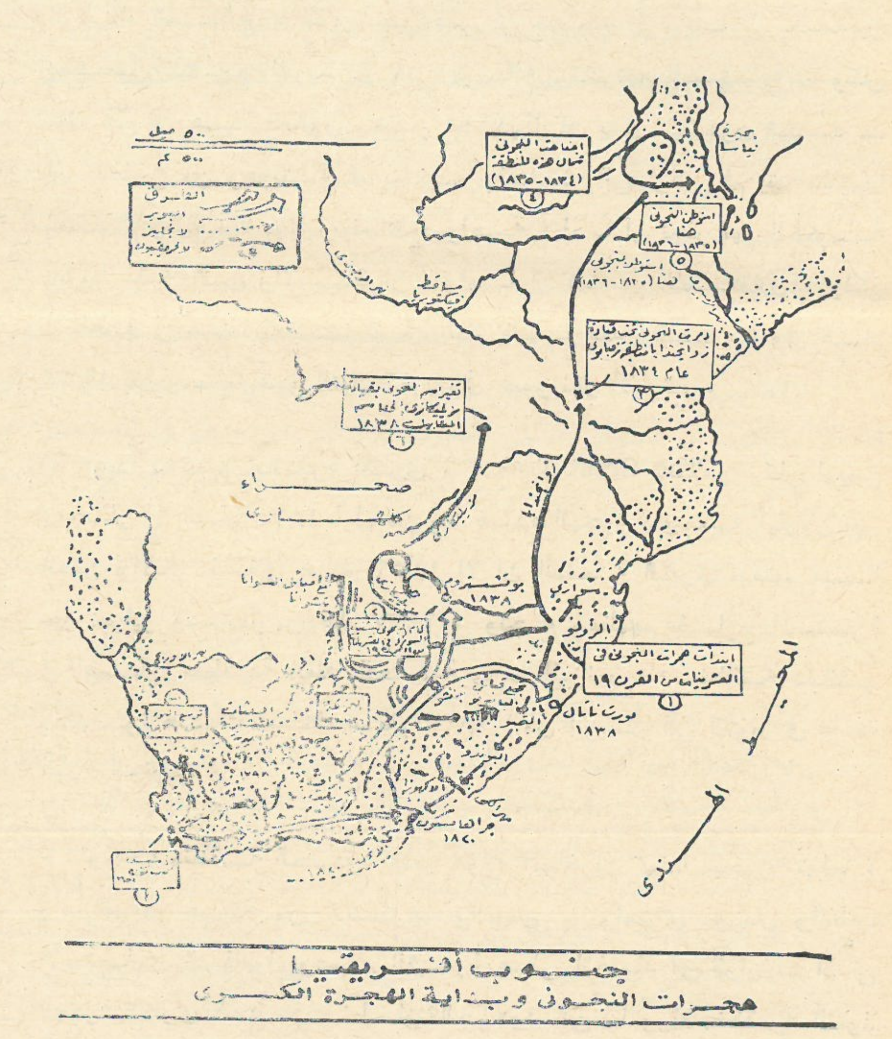
ووصل الحاكم الجديد من بريطانيا وهو دوربان لكى يحل منازعات البانتو ، وذلك بضم أجزاء كبيرة من أرض الاكهوزا ، وكان يأمل فى جعل رؤساء قبيلة الاكهوزا مسئولين أمامه عن كل ما تقوم به القبيلة من أمور تخل بالنظام ، مما جعل البوير يفسرون هذه الخطة بأنها تحالف بين الانجليز والبانتو يهدد أمنهم . وقدمت جمعيات أصدقاء الانسان ورجال الارساليات احتجاجا الى الحاكم على برنامجه الذى يتضمن الاستيلاء والسيطرة على أرض الاكهوزا مما اضطر معه « دوربان » الى أن ينسحب فى خلال سنة الى الحدود القديمة على طول نهر فش . وعلى ذلك فقد تركت الاكهوزا وشأنها وأصبح كل المستوطنين على الحدود عرضة لغاراتهم ، كما صار كل من الانجليز والبوير فى منطقة الحدود فى حالة من الغضب الشديد لاستئناف الاكهوزا لغاراتهم التى لم تنقطع .

وفى عام ١٨٣٤ كلف « بيت رتيف » ثلاثة من رجال الحدود بالبحث عن أراض جديدة . وورد فى تقريرهم أن هضبة الفلد فيما يلى

الأورنج تبدو خصبة وخالية من السكان وجذابة ، وحين حل عام ١٨٣٥ قررت نحو ١٥٠ أسرة من البوير ترك منطقة النفوذ البريطانى، وفى ذلك الوقت أصدر البرلمان البريطانى « قانون عقوبات رأس الرجاء الصالح » الذى ينص على أن جميع الرعايا البريطانيين يخضعون للتشريع البريطانى حتى فى حالة مغادرتهم للمستعمرة . وكان المفترض أن هذا القانون يتضمن تحذيرا لمن يفكر — بدون قصد — أن يتخلص من رعويته البريطانية بذهابه الى أراض لم يتم تنظيمها بعد . وطالب « بيت رتيف » بصراحة ، اما أن توفر لهم الحكومة البريطانية الأمن والاستقرار ، واما أن تمنحهم الاستقلال ، ولكن اتجاهاته فى هذا الصدد كان ينظر اليها بعين الشك ، وفى عام ١٨٣٧ بدأ ومعه نحو الفين آخرين فى عبور نهر الأورنج .

وبدأ ما سمى بالهجرة الكبرى The Great Trek وكان لويس تريجار فى عام ١٨٣٥ أول من بدأ هذه الهجرة ، وتبعه آخرون بين الحين والآخر خلال عام ١٨٣٦ الا أن الدفعة الكبرى تبعتهم فيما بين فبراير وسبتمبر من عام ١٨٣٧ ، وتجمع معظمهم خارج المستعمرة فى أعماق منطقة الفلد الخالية وراء الأورنج عند منطقة تابانشو وأمضوا هناك شتاء عام ١٨٣٧ (من أبريل الى أكتوبر فى نصف الكرة الجنوبى) .

وكانت منطقة الحدود خلف هؤلاء المهاجرين اما مهجورة تماما ، واما تنتابها حالة من الاضطراب والفوضى . واعترى دوربان والمكتب الاستعمارى الذهول وعدم القدرة على اتخاذ أى قرار — اذ أن الهجرة الكبرى قد مدت نطاق الحدود الى ما وراء منطقة النفوذ البريطانى ، ومع ذلك فانه لم توجد أية حلول لمشكلات مستعمرة الكاب الملحة التى تمثلت فى أرض الاكهوزا ، وحقوق الهتنتوت ، وبعثات « الجريكا » ومحاولة فرض سلطة القانون ، واخيرا محاولة موازنة المصروفات مع الايرادات .



جنوب أفريقيا
هجرات النجوني وبداية الهجرة الكبرى

١٠
الهجرة الكبرى وإنشاء جمهوريات البوير

لقد بقى معظم البوير فى مستعمرة الكاب ، أما من هاجر منهم فى الفترة ما بين ١٨٣٥ و ١٨٣٧ فكانوا يتميزون بتلك الصفات التى تخلقها الحياة على الحدود من الاعتماد على النفس . وتولد لديهم فى ذات الوقت الشعور بشخصية منفصلة عن الشخصية البريطانية والعالم الخارجى بوجه عام . كما كان لديهم شعور بالشكوى ضد سيطرة الاسكتلنديين على الكنيسة ، والشكوى ضد البانتو ورجال الارساليات فى الوقت ذاته .

وكان البوير يعتقدون أن أرض منطقة الفلد خالية من السكان ، الا انهم لم يدركوا أن هجرتهم سوف تؤدى الى ازالة الطابع المميز جنوب أفريقيا من حيث انقسامها بين مناطق واضحة ، احداها لسكنى البيض ، والأخرى لغيرهم .

والأسباب الحقيقية وراء الهجرة يتيسر الوصول الى كنهها بسهولة من التعليلات التى أوردها المؤرخون وخبراء دراسة الأساطير ، وان كان بعض الوطنيين المحدثين يشيرون الى أن بريطانيا كانت تريد محاولة فرض الاختلاط بين الأجناس المختلفة واعطاء الهتنتوت كل الأرض ، كما تضمن ذلك أن « جمعية لندن للتبشير » كان لديها مشروع للوقوف فى وجه لغة البوير وديانتهم أو أن الحكومة بدأت فى مساندة البانتو .

وقدم السير جورج نابيير فى تقرير له للمكتب الاستعمارى عام ١٨٣٨ (١) بعض الايضاحات لأسباب هذه « الهجرة الكبرى » أورد منها : البحث عن تربة أجود وضرائب اقل وطأة ، ومزيد من الأرض لمجابهة النمو السكانى حيث حل جفاف لم يسبق له مثيل فى منطقة الحدود استمر عامين — ومنها الحقيقة المتضمنة أن من يسكنون

(١) التقرير ورد فى :
John Bird the Annals of Natal, 2 Vols. Pietermaritzburg, 1888 vol. II, p. 394.

منطقة الحدود تتشابك مصالحهم بدرجة أنه لو هاجر بعضهم لتبعهم الآخرون ، ومنها الشعور بالمرارة من جراء المدفوعات الخاصة بتحرير الرقيق ، وعدم الشعور بالأمان على أسماء الأراضى الهولندية تحت ظل القانون البريطانى ، وكذلك الضيق من هجمات البانتو ثم الكراهية لسياسة بريطانيا تجاه الاكهوزا والاعتقاد بعدم جدوى عقد المعاهدات مع الوطنيين .

وتؤكد المذكرات الخاصة بهذه الهجرة (١) أهمية الرغبة فى حماية العقيدة الدينية لجماهير شعب البوير من تأثير العبادات الجديدة والخوف من فرض مذهب الروم الكاثوليك من جانب الحكومة ، كما تؤكد أيضا أن من أسباب هذه الهجرات الاستياء الذى ساد من جراء تدخل بريطانيا فيما أسموه « العلاقة الصحيحة بين السيد والخادم » ، ولربما كان مقتهم لهذه « المساواة غير المعقولة » بين الأجناس هو أكبر الدوافع على الهجرة .

وكان واضحا اذ ذاك أن مزارع تربية الماشية وراء نهر الأورنج سوف تكون بعيدة عن أسواق الموانىء البحرية ، وان كان من المأمول احتلال أراض أخرى ، أو تفادى سيطرة بريطانيا على الأسواق ، فان الحل الوحيد كان يتمثل فى الهجرات الجماعية الى مناطق تكون أقرب ما يكون الى قطاعات من ساحل شرق أفريقيا لم يدع أحد ملكيتها من قبل . ولم يكن هناك شك (٢) فى أن المهاجرين من البوير كانوا ينوون تفادى أرض الاكهوزا وهم يقومون بانشاء موانيهم الخاصة بهم فى الناتال وخليج ديلجاو مما ترتب عليه أن انشأوا المزارع لتربية الحيوانات فى منطقة حدود يذهب انتاجها الى الخارج من المنافذ الجديدة .

---

(١) انظر التسجيلات الرسمية للأحداث المتعلقة بحركة البوير فى :
Eric A. Walker, A History of Southern Africa (3rd ed.) London, 1957, p. 197, n. 3, Part (a).

(٢) أنظر :
S. Daniel Neumark, The South African Frontier 1652 - 1836, Economic Influences, Stanford, 1957, pp. 168 - 170.

ولقد قابل سوء الطالع مجموعتين صغيرتين من المهاجرين قدر لهما بدء الهجرة فى عام ١٨٣٥ ، وذلك قبل بدء الهجرة الكبرى . فقد عبر لويس تريجار ، وجان فان رنزبرج الفال معا ، واختار فريق تريجار الاتجاه الى شمال الترنسفال ولكنهم اضطروا لمغادرتها وطلب عون البرتغال عند لورنسو ماركيز ، وارسلتهم البرتغال بعد ذلك الى اقليم الناتال عام ١٨٣٩ . أما جان فان رنزبرج فقد اختفى تماما عام ١٨٣٦ وتم العثور على بقايا عظام ومركبات فريقه بعد اثنى عشر عاما فى موزمبيق حيث قتلوا جميعا . وشرعت الغالبية الرئيسية فى الهجرة من مستعمرة الكاب بعد هذه الواقعة بقليل ، ولكن بحرص أشد ، وتنظيم أكثر احكاما .

وفى خلال عام ١٨٣٦ قام « أندريه هندريك بوتجيتر » باستطلاع منطقة الفلد وأمكنه هزيمة الميتابيل ثم عاد الى منطقة « تابا نشو » لمقابلة المهاجرين الذين أتوا بعده . ولقد كانت قبائل الميتابيل تحت قيادة « مزيليكازى » هى المحتلة الوحيدة لحوض الفال ثم هربوا باتجاه الشمال الى المنطقة التى كانت قد أخليت حديثا جنوبى روديسيا والتى سميت منذ ذلك الحين بأرض الميتابيل .

وكان « بوتجيتر » قد وصل الى درجة كبيرة من الضعف رغم انتصاره فانضم الى حزب « جيريت ماريتز » فى تابا نشو ، وتم انتخاب ماريتز ومجلس مكون من ستة أعضاء كسلطة تنفيذية للمؤتمر العام لجميع المهاجرين ، ووصل « بيت رتيف » فى أوائل عام ١٨٣٧ ، واستطاع أن ينصب نفسه بطريق الانتخاب لتولى الحكم وذلك باستخدام الدس بين بوتجيتر وبين ماريتز . وخلال شهر يونيو وصل جاكوب و « بيت يوس » Piet Uys آخر أشهر قادة البوير . وتزايدت المنافسة بين الأحزاب أثناء قضائهم فصل الشتاء معاقل المعسكرات . وكان كل من الغرماء يمتلك صفات فريدة لا يستغنى عنها الآخرون ، الا أن أحدا منهم لم يكن مستعدا للخضوع للآخر . فقد كان لدى بوتجيتر الرغبة الملحة للأرض التى جعلته يحاول السيطرة على المراعى ، أما ماريتز فكانت تتوافر لديه الخبرة الادارية والقانونية ، فى حين كانت

لدى « رتيف » المقدرة الفائقة على تنظيم الأمور السياسية والكنسية . ويبدو أن الحكم الذاتى أثار الغيرة بين الفريقين وكانت كل مجموعة منهما مستقلة عن الأخرى فى الشئون العسكرية .

ولم يحل شهر أكتوبر حتى كان التحزب وعدم الاستقرار قد باتا ظاهرين فى « تابا نشو » واقترح اخوان يوس الشروع فى الانتقال الى الناتال ، ولكنهم كانوا قد تحركوا ببطء لتحقيق ذلك بينما طالب « بوتجيتر » بكل الأراضى وراء نهر الفال ، ولم يحل ربيع عام ١٨٣٨ حتى كان قد قام بانشاء جمهورية من أنصاره جعل مركزها منطقة بوتشستروم . وكانت هناك فئة قليلة سميت Jerusalemgangers شرعت هى الأخرى فى الذهاب الى « الأرض الموعودة » وعبرت خليجا صغيرا فى الترنسفال ، ولكنها هلكت فى مكان غير معروف بالشمال .

وفى نفس الوقت بدأ « رتيف » فى مقدمة المهاجرين لاعداد الأراضى فى الناتال . ودخل « رتيف » فى مفاوضات مع « دنجان » زعيم قبيلة الزولو الذى خلف « الشاكا » على طول ساحل الناتال قبل أن يتمكن المهاجرون من احضار مركباتهم وقطعانهم عبر سلاسل جبال الدراكنزبرج . وقد ساوم « دنجان » لبعض الوقت ثم وافق على توقيع معاهدة ، الا انه كان فى حقيقة الأمر يداهن « رتيف » حتى يتمكن جنوده من تنظيم أنفسهم ، وحين تم ذلك هجم جنوده على رسل « رتيف » وذبحوهم فى ديسمبر سنة ١٨٣٨ وسميت هذه الواقعة « يوم دنجان » واعتبر يوم عطلة سنوية فى (جنوب أفريقيا الحديثة) . وحل أندريه بريتوريس محل رتيف كقائد للجنود ، الا أن جنود الزولو أمكنهم توجيه ضربة قاصمة الى معظم المهاجرين عند نزولهم من جبال الدراكنزبرج بالقرب من وينين .

وأعاد بريتوريس تنظيم قواته وضغط باتجاه الساحل والحق بالزولو هزيمة ساحقة وقتل منهم ثلاثة آلاف ، وقتل الزعيم دنجان فى منطقة « نهر الدم » قبل أعياد الميلاد بتسعة أيام . وصارت الناتال دولة من البوير واتخذت الدولة من « تابا نشو » مقرا دائما لها وصار سادة البوير لأول مرة يتحكمون مباشرة فى البانتو .

وحين تم تنظيم جمهورية الناتال رسميا فى عام ١٨٣٩ تم جعل الزولو جميعهم تحت رياسة عميل منهم يدعى « ستوايو » الذى خلف دنجان . واهتم هذا الحاكم بحل المشكلة العاجلة فى الاقليم ، لكن وجد أيضا شكل من أشكال التنظيم البرلمانى البدائى — فقد كان كل زعيم من زعماء الفلد يسجل أصوات ناخبيه لاختيار أعضاء مجلس الفولكسراد الذى كان يتكون من ٢٤ عضوا . وقد كانت لهذا المجلس من الوجهة النظرية كل السلطة ، لكنه حقيقة لم يجتمع الا نادرا ، اذ أن قرارات بريتوريس كانت تتسم بالشعبية فى حين لم تكن الحكومة المركزية موضع الثقة .

ورغم وجود أراض زراعية جيدة ووجود ميناء دربان المجاور مما جعل الناتال وحدة اقتصادية قائمة بذاتها ، فقد كان المستوطنون يرغبون فى أن يجدوا سوقا منفصلة عن الامبراطورية البريطانية والبحث عن حلفاء لهم يستطيعون الحد من رغبة بريطانيا فى احتلال هذه المنطقة . وأقام أحد الهولنديين المسافرين اسمه « سمليكامب » من نفسه وكيلا لحكومة هولندا ، وأبدى استعداد بلاده لمساعدة الناتال . ولكن تبين أنه مغامر انتهازى ، لكن لم يكتشف البوير أمره كما فاتهم من ناحية أخرى ادراك أن هولندا لم تعد بعد قوة كبرى فى العالم .

وقد كانت الناتال على حق فى خشيتها من الاصطدام مع بريطانيا ؛ ذلك أن بعض القوات البريطانية كانت مهتمة بشاطىء الناتال من تلك المنطقة التى لم يسبق لأحد اعلان حقه فيها ، هذا بالرغم من أن ذلك لم يعلن رسميا . وقد كانت هناك فرقة بريطانية صغيرة فى ميناء دربان عندما وصل اليها المهاجرون من البوير وانسحبت منه عند اتمام اعلان جمهورية الناتال . ولكن المصالح البريطانية فيها لم يمكن انكارها كلية . والواقع أنه كان يتردد هناك سؤال هام أثارته عملية الهجرة من ناحية واحتلال منطقة الناتال من ناحية أخرى . وهذا السؤال هو : هل يفقد من ينتقلون من قطر يتمتع بالتنظيم السياسى الى أرض لم يعلن أحد ملكيته لها رعويتهم فى القطر الذى غادروه ؟ أو بمعنى

آخر ، هل يستطيع البوير الذين يغادرون أرضا بريطانية أن يقيموا دولة مستقلة ؟ أم يظلوا رعايا بريطانيين الى أن يصبحوا مواطنين لقطر آخر له تنظيم سياسى مخالف ؟

وكانت هذه المسألة ، التى لم يوجد لها حل ، هى التى أثارت كثيرا من النزاع . ففى القرن العشرين من المتيسر القول بأن الرعوية لا يمكن تغييرها الا بعد الحصول على اذن بذلك ، أو نتيجة ثورة يكتب لها النجاح ، أو بالهجرة الى دولة أجنبية . وقد كان هناك قانون بتنظيم هذه المسألة فى فترة الهجرة (قانون عقوبات رأس الرجاء الصالح لعام ١٨٣٦ الذى ينص على أن الرعايا البريطانيين يخضعون للقانون البريطانى حتى وهم خارج الأراضى البريطانية) الا أن هذا القانون لم يكن معترفا به أو مقبولا من جانب القانون الدولى ؛ اذ كان قانونا محليا داخل الامبراطورية . ولذلك فقد ذكر وزير الدولة فى عام ١٨٤١ أن « الملكة لا تستطيع أن تمنح اعترافا لبعض رعاياها بأنهم يعتبرون جمهوريين مستقلين » .

وبعد انقضاء عام واحد من الهجرة فكرت بريطانيا جديا فى احتلال الناتال . وفى أول الأمر استطاع البوير محاصرة الغزاة الذين ذهبوا لاحتلال الناتال ، ولكن حدث هجوم من جانب الزولو قلب الميزان لصالح بريطانيا . وضمت الناتال رسميا الى بريطانيا فى عام ١٨٤٣ وعرضت الحكومة ٦٫٠٠٠ (آكر) لأية أسرة تود البقاء فى المنطقة . غير أن معظم البوير رفضوا قبول الهزيمة وقاموا بهجرة جديدة ، فعبرت المركبات التى تجرها الثيران ممرات جبال الدراكنزبرج واتجه بعضهم الى شمال نهر الفال بالقرب من جمهورية بتشستروم التى كانت قد أسست منذ خمس سنوات ، وأقاموا ثلاث ولايات أخرى هى : « ليدنبرج » ، و « زوتبانبرج » ، و « أوترشت » . أما الباقون فقد أقاموا جنوبى نهر الفال وأنشأوا جمهورية « وينبرج » تحت زعامة أندريه بريتوريس الذى سبق له تنظيم الناتال تحت حكم البوير .

وبضم الناتال تكون بريطانيا قد سيطرت على كل الشاطىء

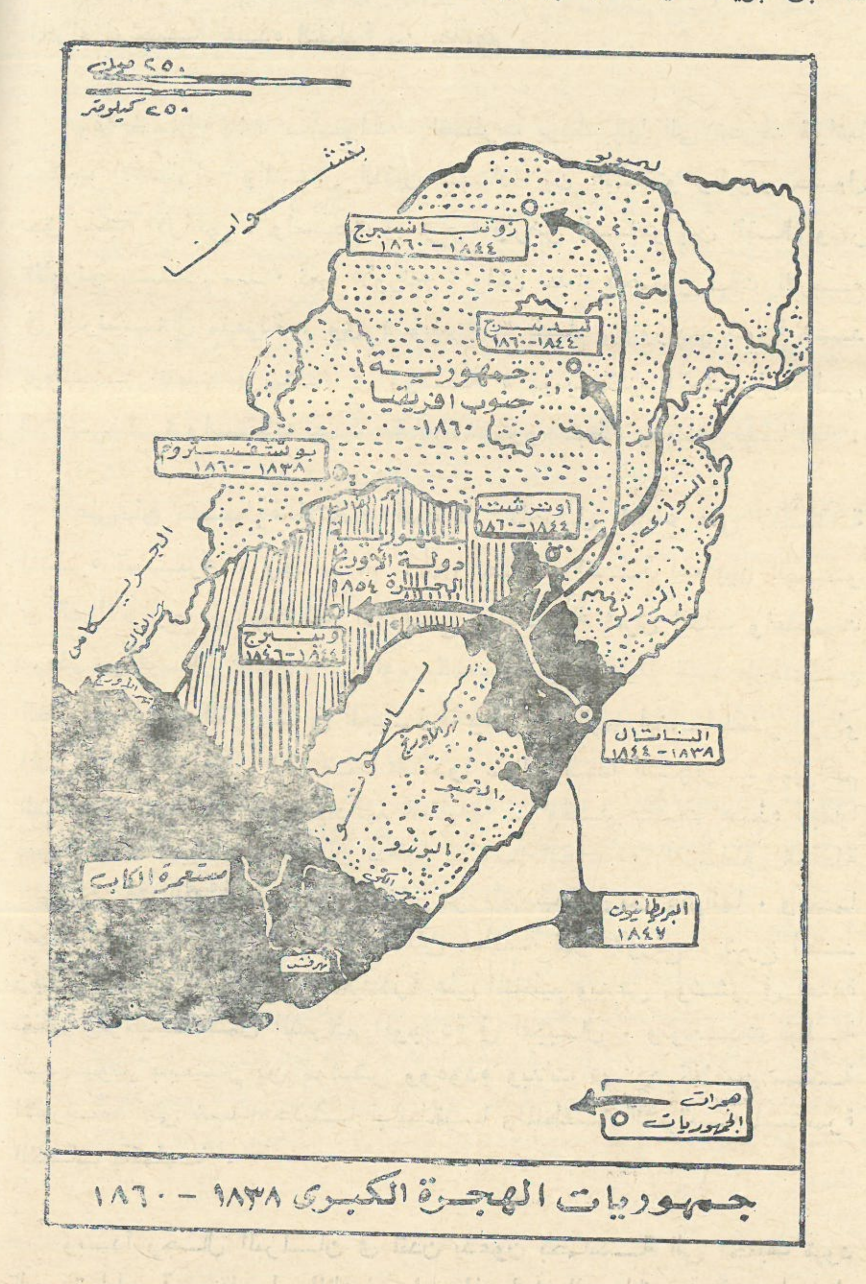
الذى يعتمد عليه البوير المقيمون فى الداخل . ولم يكن هناك قرار واضح تجاه الجمهوريات الخمس الموجودة الى الداخل ، فرغم أنهم أعلنوا استقلالهم الا أن بريطانيا لم تعترف بذلك ، كما أنها لم تقم باتخاذ أى اجراء لمواجهة هذه الخطوة من جانبهم .

وفى خلال ثلاث سنوات ، اضطرت بريطانيا الى تحريك قواتها بسبب الاضطراب والشقاق اللذين سادا بين البانتو والبوير حول حق ملكية الأراضى . وأصبحت وينبرج ، وأرض البانتو بين الفال ونهر الأورنج تسمى مملكة نهر الأورنج ، ولكن ظلت الجمهوريات الأربع فى الترنسفال منعزلة . وفى « وينبرج » قام بريتوريس بثورة ضد بريطانيا انتهت بهزيمته فى موقعة « بومبلاتز » وفراره الى الترنسفال ، واستقبلته جمهورية بوتشستروم كبطل وعينته رئيسا لها .

على أن سيطرة الانجليز أدت الى تأجيل النزاع على السلطة لفترة قصيرة . وفى عام ١٨٥٠ حدث اضطراب بين البانتو فى الدراكنزبرج فيما بين نهر الأورنج ومستعمرة شرق الكاب واعتصمت شراذم من قبائل السوزو — الذين كانت قبائل الزولو قد طردتهم من الفلد فى مستهل القرن — فى الجبال ، وانضم اليهم أيضا بعض الزولو المنشقين ، لكن كان الكل قد فقدوا خلال هذا الشجار — مميزاتهم القبلية بالاضافة الى قياداتهم التقليدية — وقد عاشت هذه البقايا غير المنظمة فى المبدأ حياة بدائية يشوبها الخوف فى المناطق القاحلة التى لجأت اليها ، فلم تسبب الكثير من المتاعب لأى من جيرانها . وعندما استطاعت بريطانيا الاستيلاء على مملكة نهر الأورنج ، شرع أحد رجال البانتو ممن وهبوا المقدرة على التنظيم ويدعى موشش فى اعادة تنظيم وتوحيد شمل الشراذم الموجودة فى الجبال . وتوحدت قبيلة الباسوتو بايعاز من موشش ووعوده وبدأت تهدد كلا من مملكة الأورنج التى ضمت حديثا لبريطانيا والمنطقة الشرقية لمستعمرة الكاب بأكملها .

وبدأ رجال البرلمان فى لندن يدعون بحماسة الى تخفيف قيود البيروقراطية وتقليل الالتزامات المالية البريطانية فيما وراء

البحار ، والمطالبة بمغادرة هاتين المنطقتين كلية .وان كان هذا الاتجاه قد وقف حائلا دون اتخاذ سياسة ديناميكية فعالة ، الا أنه كان من الصعب الرجوع عن عمليات الضم أو التحلل من الالتزامات التى سبق لبريطانيا التعهد بها فى تلك المنطقة .



جمهوريات الهجرة الكبرى ١٨٣٨ - ١٨٦٠

وظلت بريطانيا تدير هجماتها ضد البانتو على مدى سنتين من قاعدتها فى مملكة نهر الأورنج وتسبب تزايد نفوذ موشش فى اضمحلال هيبة بريطانيا هناك . وفى عام ١٨٥٢ قرر المكتب الاستعمارى أن التدخل بسبب الدوافع الانسانية ، وكذا الاحتلال الفعلى فى المناطق الداخلية غير عملى ، فضلا عن أنه باهظ التكاليف وغير مستحب بوجه عام ، وأن أحسن رد على زحف موشش هو التعاون مع البوير على اعتبار أن الانسحاب البريطانى من المنطقة تماما قد يجعل العداوة بين لندن وبين البوير تنقلب الى سياسة تعاون مشتركة بين الجانبين ، فى مواجهة البانتو .

وتحقيقا لهذا الاتجاه اجتمعت بريطانيا مع ممثلين من جمهوريات الترنسفال الأربع ومن بينهم « بريتوريس » للتوقيع على اتفاقية « نهر الرمال » Sand River Convention لعام ١٨٥٢ . وقد تضمن ذلك الاعتراف رسميا باستقلال هذه الجمهوريات الأربع . وبعد انقضاء سنتين تحولت مملكة نهر الأورنج الى ولاية الأورنج الحرة ووافقت ملكة بريطانيا على أن البوير لم يعودوا من الرعايا البريطانيين . غير أن الحدود بين الولايات كانت واهية ، فلم يكن من غير المألوف مثلا أن يعمل البويرى تحت نظام جمهورى أو تحت نظام تابع للتاج أو بمعنى آخر انه كان باستطاعته تغيير رعويته بطريقة رسمية .

ورغم أن بريطانيا منحت فى نفس الوقت مستعمرة الكاب قدرا من الحكم الذاتى ، الا أن الحاكم التنفيذى كان يجرى تعيينه فى لندن ، لكن سلطة برلمان الكاب نادرا ما تخطيت أو صدر ما يتعارض مع قراراته . على أنه كثيرا ما ترتب على منح حق الحكم الذاتى تشويه الرغبة الصادقة لبريطانيا فى الاتحاد والاعتراف بالجمهوريات التى انشأها البوير . وقد استطاعت الكاب اعداد تعريفتها الجمركية وأسرعت فى فرض عوائد جمركية عالية على البضائع العابرة من والى البوير مما أثار كثيرا من الامتعاض لدى الجمهوريات الداخلية . ولما امتد نظام العوائد الجمركية فى عام ١٨٥٣ ليشمل سكان الكاب من الملونين (ذوى الدماء المختلطة) أسهم ذلك فى استحالة ايجاد نوع

من الثقة المتبادلة بين الانجليز والبوير لحل مسألة المواطنين الأصليين من البانتو .

وقد توفى بريتوريس فى خلال سنة من اتفاقية « نهر الرمال » وخلفه ابنه الطموح مارتينوس بريتوريس كرئيس لجمهورية بوتشستروم ، وقد حاول توحيد الترنسفال كلها ، ولكن الجمهوريات الثلاث الأخرى عارضت هذه الفكرة .

وفى عام ١٨٥٧ حاول مارتينوس ضم ولاية الأورنج الحرة ولكن التحالف « المؤقت » الذى تم بين كل من ولاية الأورنج الحرة ، وزوتبانسبرج وليدنبرج ، وأوترشت وأصدقائهم فى مستعمرة الكاب اضطره الى الرجوع عن أحلامه . وتقدمت ولاية الأورنج الحرة بعريضة لبريطانيا تطلب فيها الانضمام اليها وطلب الحماية البريطانية . ولكن بريطانيا لم تشأ قبول هذه المسئولية فى ذلك الوقت .

واشتد ، تبعا لذلك ، ضغط النمو السكانى للبانتو ، ففى الماضى كانت القبائل مثل الاكهوزا تحل مشكلة نموها السكانى ، اما بطريق التوسع ، واما بطريق السرقة أو شن الحروب ، ولكن استيطان البيض والقوة العسكرية البريطانية والزيادة السكانية فى كل من البيض والبانتو قد جعلت هذه الحلول غير مناسبة .

وفى عام ١٨٥٧ انتاب قبائل الاكهوزا التى تقيم شرقى مستعمرة الكاب تغير عقائدى — اذ دعا العرافون منهم الى ترك عقيدتهم القديمة والمضى فى تخريب المحصولات والممتلكات وذبح الماشية جميعها (حتى ما كان منها ضروريا لاقتصادياتهم وكيانهم الاجتماعى) ثم وعدهم هؤلاء العرافون انه سوف تحدث بعد ذلك معجزة حيث ستقوم زوبعة تؤدى الى اهلاك كل من البريطانيين والبوير وتلقى بهم الى البحر ، وحينئذ سوف يبعث أبطال الاكهوزا السابقون من مرقدهم ، وسوف تصير جنوب أفريقيا اكثر خصبا وامتلاء بأجود الحبوب والقطعان . وهكذا تم تدمير المحصولات والحيوانات انتظارا لهذه المعجزة . ولكن فى الموعد المضروب لم تحدث المعجزة الموعودة .

ولأن القوات البريطانية كانت على دراية سابقة بما سيحدث ،

فقد قامت بادخال المؤن عبر الحدود . ولم يكن هناك متسع من الوقت للاسترشاد برجال الاقتصاد البريطانيين — فأمدهم السير جورج جراى بما تيسر له من اعانات على نفقته الخاصة ، وأمكن بذلك انقاذ نحو ٣٠٪ من السكان . ولكن ضحايا الاكهوزا نتيجة المجاعة كانوا من الكثرة بحيث لم تقم للاكهوزا قائمة بعد ذلك ، كقبيلة متحدة ، كما لم يتمكن اقتصادها القبلى من استعادة أهميته السابقة . وصارت منطقة البانتو الممتدة ما بين مستعمرة الكاب والناتال تعتمد على الاقتصاد الأوربى فى شئون معيشتها الرئيسية حتى انه لم يكن لديها سلعة تقدمها سوى اليد العاملة ، وأخذت الاكهوزا ، وكذا جيرانهم الذين كانوا يعتمدون عليهم ، فى البحث عن وظائف لهم عند مزارعى الكاب وعند التجار والصناع . وهنا بدأ امتصاص البانتو فى اقتصادياتهم وبدأت تظهر البوادر الأولى للتبادل العنصرى فى العصر الحديث .

وأسرع السير جورج جراى فى البحث عن الأسباب التى حدت بالاكهوزا لاحداث تلك الفوضى التى قامت بها وأمكن له اكتشاف أن الملك موشش ملك الباسوتو كان يضمر سحق البوير ، ولكى يصرف انتباه بريطانيا عن ذلك بعث برجاله الى الاكهوزا لاثارة أزمة وحروب على الحدود ، الا أن موشش لم يتوقع أن تتمخض خطته عن تدمير اقتصاديات الاكهوزا ، كما لم يكن فى حسبانه أن يقوم جراى بادراك حقيقة ما يجرى .

ورغم أن خطة موشش لم تستطع الايقاع ببريطانيا ، فقد قرر فى عام ١٨٥٨ الاتجاه للهجوم على ولاية الأورنج الحرة . وانهارت مقاومة البوير ، ولكن الحاكم البريطانى جراى قام بالتدخل بين الفريقين وتوسط بينهما وأمكنه انقاذ ولاية الأورنج الحرة واقرار السلام فيها . وفى نفس الوقت حاول تقديم المساعدات للولايه بانشاء كلية فى بلوم فونتين تبرع لها بمكتبته الخاصة .

وبعد انقضاء تسع سنوات قامت ولاية الأورنج الحرة — فى سعيها للانتقام من موشش — بالاستيلاء على نصف أراضى الباسوتو الأكثر خصبا وهنا تدخلت بريطانيا مرة أخرى . لكن الحاكم الجديد —

الذى كانت تنقصه خبرة وصبر جراى — صمم على انهاء سلسلة الحروب الوطنية بطريقة جذرية ، فقام بضم جميع أراضى البانتو التى لم تكن تحت سيطرة الأوربيين الى التاج البريطانى وتحت الحكم المباشر للمكتب الاستعمارى فى لندن . وشعرت ولاية الأورنج هذه المرة أنها قد سلب منها النصر ، واتهمت بريطانيا بمحاباة وحماية الوطنيين ، ومحاولة اضعاف شوكة البوير فى ذات الوقت بالتواطؤ مع الباسوتو ضد النظم الجمهورية .

ولم تكن الجمهوريات الأربع فى الترنسفال فى حقيقة الأمر على صلة قوية بما يحدث من الاضطرابات التى تسبب فيها كل من الباسوتو والاكهوزا ، وحتى جمهورية بوتشستروم التى كانت أهم هذه الجمهوريات الأربع بقيت بمنأى عن نمو الاقتصاد والنفوذ البريطانى . اذ كان معظم المهاجرين الأول الى الترنسفال مشغولين باخلاء الأرض — لا من الأشجار ، ولكن من قبائل البانتو الرحل .

وتكونت جمهورية بوتشستروم أساسا من المزارعين الذين كانت تعوزهم الاحاطة بطرق التفكير السياسى والالمام بنظم الحكومات ؛ فقد كانوا لا يطمحون الى أكثر من المراعى والحياة التى لا يثقلها عبء الضرائب ، ونادرا ما زار أحدهم العاصمة الصغيرة الموجودة فى قرية بوتشستروم اللهم الا فى أسبوع أعياد الميلاد والأعياد الدينية الأخرى حيث تعقد سوق سنوية يتم فيها التبادل التجارى ، وتتم فيها المراسم الدينية (مثل الزواج ، والتعميد ، وغيرهما) للشعب المتجمع . أما باقى السنة فقد كان المسنون من رجال الأسر يقومون بالمراسم الدينية فى منازل الأسر المتناثرة .

ولم يصطحب المهاجرون الأوائل معهم هيئة دائمة للكنيسة ، وانما كان هناك بعض القسس المتنقلين ، الذين شكلوا فى النهاية هيئة صغيرة من القسس المحليين ، من ذوى المكانة الاجتماعية . وكانت هناك بعثات تبشيرية أجنبية فى المناطق المجاورة بين قبائل المتابيل والزولو والباسوتو والجريكا (الملونين) . وكان أحد هؤلاء المبشرين أمريكى الجنسية ، ويدعى « دانيال لندلى » ، يقوم بالخدمة الدينية لبضع

سنوات باعتباره القس الوحيد المعتمد للجمهوريات الخمس فى الترنسفال وولاية الأورنج الحرة ، ومع ذلك فقد ظلت البعثات التبشيرية الأخرى بعيدة عن تجمعات البوير مخافة توجيه النقد اليها من جانبهم .

لقد كانت الهجرة التى تمخضت عنها جمهوريات جنوب أفريقيا بوجه عام تمثل بقايا تنتمى الى القرن السابع عشر استطاعت أن تحتفظ بنفسها بمنأى عن مراكز التطور الصناعى والاستنارة فى القرن التاسع عشر ، فقد حدث كثير من التطور الثقافى والاقتصادى والسياسى لأوربا خلال هذه القرون ، ولم يصل أى بصيص من هذا التطور الى هذه الجمهوريات ، وما وصل بالفعل لم يكن يلقى أى قبول من جانب البوير . وكان سكان جنوب أفريقيا من المزارعين منذ البداية يمثلون نموذجا ريفيا من البروتستانت الهولنديين الذين كانوا معزولين عن التيار الثقافى الرئيسى حتى فى بلادهم قبل هجرتهم من الوطن الأم ، وكانت هناك أفكار جديدة تتطور فى أوربا وبوجه خاص فى بريطانيا والمناطق الحضرية فى هولندا التى عزل البوير أنفسهم عنها .

ولم تستطع فكرة التسامح من الناحيتين العنصرية والدينية — مضافا اليها فكرة تحكيم العقل والمنطق كعامل موازنة للتزمت الدينى التى انتشرت فى القرن الثامن عشر — أن تترك آثارها فى جنوب أفريقيا . كذلك لم يتم استيعاب القوانين التجارية وحقوق الملكية الحديثة وتزايد سيولة الاقتصاديات النقدية فى العالم .

ولم يكن البوير محافظين بالفطرة ، وكان اطار الحياة الاجتماعية عندهم يتمثل فى الأسرة : رب الأسرة ، المزرعة ، معتقدات الأسرة المبنية على شجرة الأسرة . وكانت الفنون الشعبية والغناء والرقص والاعتقاد فى الخرافات والاسراف فى المشروبات الكحولية تجرى بطريقة صاخبة لا تقيدها حدود . وكانت الحياة المادية بهذه الصورة تجعلهم فى تناقض مستمر مع رجال التبشير الذين كانوا يوجهون اليهم النقد لهذه الحياة الماجنة والتزمت العقائدى فى آن واحد .

وكان لانتقادات البعثات التبشيرية أثر كبير فى الرأى العام البريطانى ، وبالتالى فى موقف المكتب الاستعمارى تجاه الجمهوريات فى جنوب أفريقيا . فقد اتهم المبشرون المزارعين بمعارضة الفكر المسيحى والوقوف حائلا أمام البعثات نفسها ، كما اتهموهم بالاعتداء الجماعى على البانتو ، وأنهم يقومون بطريقة ما بمحاولة احياء تجارة الرقيق . وأما البوير فكانوا من ناحيتهم يعتقدون أن هذه البعثات تعمل على الاخلال بما قدره الله تعالى من جعل الناس بعضهم فوق بعض درجات . ولذا فقد نظروا الى محاولات هداية الخدم على أنها تضليل ، لأن البانتو - باعتبارهم جنسا أدنى (أى فى مرتبة أدنى من غيرهم) - من وجهة نظرهم قوم رحل يحتاجون الى من ينظم شئونهم ويدربهم فى العمل المهنى ، ويجب أن يعاملوا كالأطفال ، وذلك حتى يمكن حماية المجتمع الأسمى . واستمر البوير فى الأنفة من التعليم ، وعدم الاهتمام بالتطور الثقافى فى العالم الخارجى ، مع تزايد طلبهم على القوى العاملة .

وقد ظهر الخلاف فى الرأى بين المجموعات البيضاء المختلفة - اكثر ما يكون - فى مجال الديانة . ففى عام ١٨٤٣ ، أى بعد « الهجرة الكبرى » بوقت قليل تنازلت بريطانيا عن كل سلطان لها على الكنيسة الهولندية الحديثة ، وترتب على ذلك أن صارت كنيسة الكاب مستقلة وتمتعت مجالسها بالحكم الذاتى ، واخذت العداوة للأفكار الجديدة وللكنيسة الاسكتلندية تقل بدرجة ملحوظة فى المستعمرة . واكتسبت اللغة الانجليزية والأفكار الدينية المعتدلة وبرامج التبشير اهمية متزايدة لدرجة اعتقاد البعض بأن نوعا من التجانس بين المستوطنين البوير والبريطانيين بدأ فى الظهور . ومع ذلك فان التنظيم الكنسى كان يأخذ اتجاها مضادا .

وفى عام ١٨٦٠ تم توحيد ولايات الترنسفال الاربع فى جمهورية جنوب أفريقيا وبقيت البلاد فى حالة من الفقر الشديد والعزلة ، تسيطر عليها المنازعات فى النواحى الدينية والسياسية بين سكان الترنسفال .

وثار جدل حول الوهية السيد المسيح وحول ماهية الشيطان .

وفى عام ١٨٤٣ انقسمت الكنيسة الهولندية « الحديثة » الى ثلاثة مجالس كنسية مستقلة ، هى : الترنسفال ، ونهر الأورنج ، والكاب . وكانت الأخيرة مستقلة عن الحكومة الاستعمارية ، ولكنها كانت محل ارتياب من باقى الجمهوريات ، لأنها كانت تستقبل القسس الانجليز والاسكتلنديين . وكانت تصل بعض المؤثرات من الكنيسة الانجليزية الى مجالس الكنيستين الهولنديتين الأخريين فى الجمهوريات ، رغم استقلال مجلسيهما وعدم ثقتهما بالمجلس الكنسى للكاب . وعلى كل فان جميع المجالس الكنسية الثلاثة أطلقت على نفسها اسم : (Nederlands Gerefoormeerde Kerb) ، وهو ما رمز اليه بالحروف (N.G.K.) (*)

وفى عام ١٨٥٣ قطع كثير من أعضاء الكنيسة فى الترنسفال صلتهم باتحاد المجالس الثلاثة (N.G.K.) وكونوا لأنفسهم مجلسا خاصا سمى (Nederlands Hervoormde Kerk) الذى رمز اليه بالرمز (N.H.K.) . وكانت وجهة نظرهم محافظة ومضادة للمؤثرات الذهبية الاسكتلندية ، وكذلك معارضة لانتشار اللغة الانجليزية والميول نحو الكنيسة الانجليزية فعملوا على جعل اللغة الهولندية هى اللغة الرسمية للكنيسة ، واصبح مجلسهم الكنسى هو المجلس الدينى الرسمى للترنسفال . ومع ذلك فان موقفهم الذى يقوم على أساس التمييز العنصرى ومبدأ « التخصيص الآلهى » لقوم دون آخرين (قضاء وقدرا) لم يرض فئة أخرى لها ثقلها ، وهى ما سميت فئة الدوبرز .

وقامت فئة الدوبرز هذه بتكوين كيان ثالث يتبع المذهب الكلفينى المسيحى فى عام ١٨٥٩ للتأكيد على مبدأ « الأبارتايد » أى الفصل العنصرى ، والتفسير القاطع لمبدأ التخصيص الالهى لقوم دون آخرين ، والتفسير الحرفى للانجيل . وكانت هذه الفئة تعارض استخدام الموسيقى فى الكنائس ، والبعثات التبشيرية الاسكتلندية واللغة الانجليزية ، كما كانوا ينكرون أن للبانتو أرواحا كباقى البشر .

وكانوا ينظرون الى من اطلقوا على أنفسهم (N.H.K.) بوجه

عام ، سواء أكانوا فى هولندا ، أم فى الكاب ، أم فى الجمهوريات فى جنوب أفريقيا ، على أنهم زنادقة ملحدون . وقد أدانوا جاليليو (*) ، فالأرض فى نظرهم مسطحة ، وكان الاعتقاد السائد لديهم أن البوير هم الشعب الذى اختاره السيد المسيح — أما البانتو فهم أبناء حام ولا يصلحون الا لحمل الماء وقطع الأخشاب .

وكانت فئة « الدوبرز » ضئيلة العدد ومنعزلة ، ولكنها أنجبت فى المائة السنة الأخيرة عددا من القادة لا يتناسب مع حجمها .

وجعل كل من فريق الـ (N.H.K.) والدوبرز من كنائسهم مراكز لاثارة حدة القومية الثقافية المسيحية ، مركزين بالأكثر على اللغة والقومية والصفات المميزة لثقافة البوير . وكان كلما استقر لهذه الفئة مزيد من النفوذ مالت هى وطائفة (N.H.K.) الى معاداة كل الأفكار التحررية ، اذ كان لديهم اعتقاد ثابت بأن شعب البوير مقدر له منذ الأزل أنه الشعب المختار مما انعكس على نظرتهم الى تاريخهم من ناحية أخرى .

وكان من المحتم والحالة هذه أن تهاجم هاتان الطائفتان شركة الهند الشرقية الهولندية السابقة وأفعالها ، وكذلك بريطانيا والبانتو وشتى الأفكار الحديثة التى تتضمن التسامح الدينى أو المساواة — وبمعنى آخر — مهاجمة أى شىء يؤدى فى النهاية الى الفكر التحررى ، سواء كان ذلك من الوجهة الاقتصادية ، أو السياسية ، أو الاجتماعية . فقد كان المعتقد لديهم أن الليبرالية هى ببساطة أى حركة أو قوة تهدد امتياز البوير ، وهى كذلك تهديد لربهم ولكنيستهم وشخصية شعبهم المختار .

ونظرا لأن « الدوبرز » كانوا يسيطرون على مجلس (N.H.K.) الذى يمثل الديانة الرسمية هناك ، فان هاتين الطائفتين كان لهما تأثير مباشر فى حكومة جمهورية جنوب أفريقيا . واكبر مثل على ذلك هو بول كروجر وهو من فئة « الدوبرز » ، الذى امتدت رياسته للجمهورية لأكثر من نصف حياتها .

(*) جاليليو ، هو أبو الفيزياء والفلك التجريبيين . (المترجم) .

ورغم الجهود المتعددة للبريطانيين والبوير والبانتو لايجاد حل — بأى شكل كان — للمشكلات الملحة المتعلقة بالثقافة ، والأرض ، والنواحى السياسية فى جنوب أفريقيا ، فان الآثار الانقسامية الضارة المتولدة عن عدم الحسم فى اصدار القرارات ، وكذلك العزلة التى تعيش فيها المنطقة ، ظلت مزمنة منذ الستينيات من القرن التاسع عشر .

الجـزء الثـانى :

إعادة بناء أفريقيا

١١

رسالة التحرير

ظل تأثير أوربا فى أفريقيا ، حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، تأثيرا سطحيا بدرجة نسبية ، ولم تكن ثمة أية محاولة للاستيطان الدائم — اللهم الا فى جنوب أفريقيا وبعض المزارع البرتغالية المتفرقة . وقد حل الأفراد المشتغلون بالتجارة محل تجار الرقيق وأصبحوا يمارسون تجارتهم المشروعة ، وأقامت الارساليات المسيحية عددا محدودا من المحطات المنعزلة . غير أن النشاط التجارى والارساليات لم يكن لها الطابع الرسمى ، وكان هذا النشاط فى غالب الأحيان موقوتا ، وكانت رؤوس الأموال المستثمرة ضئيلة ، كما كانت تعتمد على تعاون ومساندة الشعوب الأفريقية المهادنة .

وقلما تجاوز الأوربيون فى توغلهم المناطق الساحلية ، بل ولقد كان اهتمامهم بالمناطق الساحلية يقتصر على مناطق محدودة تخدم مصالحهم — ولم تبذل محاولات حقيقية لممارسة النفوذ أو السيطرة ، أو حتى لتفهم نظم الأفريقيين وثقافتهم . وحيثما كانت مناطق الاستيطان الأوربية ومصالحهم ذات طابع دائم — كانت تنأى بنفسها عن الأفريقيين حتى فى الأماكن التى كان يتوغل فيها الأوربيون الى المناطق الداخلية على النحو الذى حدث فى جنوب أفريقيا . أما الظاهرة الوحيدة التى شذت عن هذه القاعدة فتتمثل فى المستوطنين البرتغاليين ، الا أن هؤلاء المستوطنين بدورهم كانوا معرضين لأن تستوعبهم العناصر الأفريقية — لولا أنهم قد انفصلوا عنصريا وثقافيا عن الحياة الأفريقية ، ولقد ضمت البرتغال بعض مناطق البانتو ، الا أن البيض لم يبسطوا سلطانهم على الأفريقيين على نطاق واسع ومؤثر الا منذ القرن التاسع عشر . فلم تخضع قبائل (الزولو) لحكم البوير الا فى ذلك التاريخ ، ويصدق نفس القول على قبائل الاكسوزا ، والباسوتو التى خضعت لحكم بريطانيا ، وعلى مسلمى السنغال الذين خضعوا لحكم الامبراطورية الفرنسية الثانية . ولقد ظلت بريطانيا الى أواخر العقد السادس من القرن التاسع عشر تؤثر التخلى عن

كل المسئوليات الاقتصادية والسياسية سواء فى غرب أفريقيا أو فى جنوبها ، وان ظل صناع السياسة البريطانية يأملون فى الإستئثار ببعض المزايا .

أما بالنسبة لفرنسا والولايات المتحدة ، وهولندا ، دول اسكندنافيا — فقد فقدت كل ما كان لها من اهتمام محدود فى الماضى*، فلم تعد هناك قوى خارجية تعرف شيئا عن شرق أفريقيا أو توليها شيئا من اهتمامها ، باستثناء العرب (*) .

ولقد كان للمذاهب الليبرالية التى تمثلت فى حرية التجارة ومبدأ حرية العمل والانتقال ، ونظرية تحديد سلطة الحكومة — تلك المذاهب التى انتشرت انتشارا واسعا فى أوربا فى مطالع القرن التاسع عشر — الفضل فى العزوف عن تطبيق أى مبدأ من المبادىء أو فكرة من الأفكار التى قد تنطوى على توريط الحكومة فى عمليات التوسع السياسى ، أو فى تحمل نفقات اضافية ، أو تطبيق تدابير التنمية والرقابة الاقتصادية ، أو الاضطلاع بمسئولية عسكرية .

ولقد أدى استمرار هذا الاتجاه — على سبيل المثال — الى الحيلولة دون اتخاذ البريطانيين لقرار يتعلق بفرض سيطرتهم أو اضطلاعهم بأية مسئولية تجاه ساحل الذهب تكون لها صفة الدوام . كما أن هذا الاتجاه نفسه حال دون أى اجراء حاسم ، سواء حيال (البوير أو البانتو) فى جنوب أفريقيا .

ولقد أدى استمرار هذا الاتجاه — على سبيل المثال — الى منع أى قوة من أن يكون لها اهتمام ، سواء بالمناطق الداخلية أو بالساحل الشرقى ، وكان حائلا دون تطور التفاعل الدائم الواسع النطاق مع أى شعب من الشعوب الأفريقية .

بيد أن الظروف كانت فى بعض الأحيان — تحمل الأوربيين على أن يضربوا بمبادىء حرية العمل والانتقال هذه — عرض الحائط . وابرز

(*) جاء العرب الى الساحل الشرقى لأفريقيا، واستقروا فى هذه المناطق، وكونوا امارات عربية فيها شهد بعظمتها وبتحضرها كل من زارها من الرحالة العرب والأجانب على السواء (المترجم) .

ما حدث فى هذا السبيل تلك الجهود التى بذلت لمناوأة (البوير) الذين كانت آراؤهم مختلفة عن الآراء السائدة فى أوربا الليبرالية خلال القرن التاسع عشر .

ومن مقدمات المذهب الليبرالى — الاعتقاد بأن هناك قوانين طبيعية ثابتة — لا تتغير ولا تتبدل ، تحكم العلاقات الانسانية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . وما دامت هذه القوانين توضع موضع التطبيق فى حدود أوربا ذاتها وبقبول من هيئة الناخبين الأوربيين من ذوى الآفاق الليبرالية — فان أى تناقض مع هذه القوانين الطبيعية ، أو محاولة للحد من نطاقها — كان مصيره الاغفال والتجاهل . وكذلك كانت تطبق معايير الليبرالية فى مجال السياسات الأفريقية . ومؤدى ذلك انه كان يتعين على الحكومات الأوربية أن تقلل من نفوذها ، أو تسحب هذا النفوذ ، وأن توقف كل نشاط لها فى الميدان الاقتصادى على نحو واضح .

ورغم ذلك فقد كان القانون الطبيعى هو القانون الذى يطبق نظريا — على البشر كافة دون اعتبار للعنصر أو للثقافة أو للموطن — ولقد ثار الجدل الأكبر فى هذا الموضوع حول مسألة الرقيق ، فقد أوضح الليبراليون أنه لو كان من الظلم استرقاق الأوربيين ، فمن الظلم بنفس القدر استرقاق الأفريقيين . وكان تطبيق هذه القيمة الأخلاقية المطلقة يستوجب الغاء الرق نهائيا . وذلك يعنى بطبيعة الحال ، أن ينظر للرق على أنه شر من الشرور ، بغض النظر عن النمط الثقافى ، وأنه لن يسمح بعد ذلك بتجارة الرقيق أو استخدامهم حتى لو كانت المعايير الحضارية فى مجتمع الرقيق أنفسهم تبيح ذلك ، فالأخلاق ليست أمرا نسبيا يتغير بتغير ثقافة الفرد أو حضارته .

وكان الهجوم على تجارة الرقيق بمثابة الموجة الأولى فى مد التيار الليبرالى . وبعد جدل طويل — ادين مبدأ النسبية الثقافية أو النسبية فى الحضارة ، والغى الرق فى جميع الأقاليم الخاضعة للدول ذات الاتجاهات الليبرالية مثل انجلترا ، وفرنسا ، واسكندنافيا وهولندا . وبقدر ما كان (الرق) شرا مطلقا — لم يكن يكفى أن تتخذ

كل دولة على حـدة الخطوات لحظر تداولـه ، الا سـرعان ما استأثرت البـلاد — التى لم تكن تنهج نهجـا ليبراليـا أصيلا — بالسيطرة عـلى أسـواق ومصـادر الرقيق الأفريقى التى كانت بريطانيا قـد كفت يديها عنها ؛ فازداد ثراء الوسـطاء ممن لا ضمير لهم ولا زمـة ، أما الوسـطاء الأفريقيون ممن كانت قوتهم وثروتهم رهنـا بالتجـارة فى الـرقيق فقـد كان مصيرهم اما الافـلاس والضياع ، واما البحث عن منـافذ جـديدة لممارسـة نشـاطهم . وكـان الحـل الوحيـد للقضـاء على هـذه التجـارة هو ممارسـة الضغط على القبـائل وعلى الدول التى استمرت تمارس التجـارة ، وفرض الحراسـة على الداخـل والممرات البحرية التى يرتادها تجـار الرقيق . عـلى أن مثـل هـذه الأعمـال كـانت تتطلب — على أى حـال — استخدام الدبلوماسية الدوليـة ، واستخدام القوات العسـكرية الشـديدة البأس الباهظـة التكاليف أيضـا . ولقد كان هـذان الاسـلوبان يتناقضـان مـع المبـادىء الليبرالية لحريـة التجـارة (الحريـة الاقتصـادية وعـدم التدخـل الحكـومى وخفض النفقات الحكوميـة) . وكانت معظم الحكومات الليبرالية تقنع بالانسحاب الهـادىء ، أو بمجرد التطبيق الرمزى والشكلى للقانون . لكن بريطانيا الحت الحاحـا شـديدا من أجـل عقـد سلسلة من الاتفاقات الدولية التى تحرم تجـارة الرقيق . ولقـد كان العـديد من القطع والوحدات البحرية البريطانية تنتشر خـلال القرن التاسـع عشر وسط طرق تجـارة الرقيق من أجـل تنفيـذ القوانين الخاصـة ببريطانيـا نفسـها وتطبيق اتفاقياتها ومعاهداتها الدوليـة .

ولقد استوجبت الاعتبارات الانسـانية استخدام الدبلوماسية والقوة البحرية ضـد الأوربيين كافة . وكان نفس الالتزام الانسـانى يمتد ليشمل القبائل الأفريقية والدول التى تشـارك فى تجـارة الرقيق ، والتى يتم عن طريقهـا شراء الرقيق . ومن ثم فلقد كـان من الضرورى القضـاء عـلى تجـارة الرقيق بين الأفريقيين أنفسهم واعـادة رسـم حيـاتهم وتخطيط اقتصـادياتهم على النمط الليبرالى . ولقـد أصبح هـذا الواجب يسمى بالرسـالة الليبرالية أو (رسـالة التحرير) — الا أن نصف قرن من الزمن

انقضى قبل أن يتحـدد المـدى الذى يجب أن تتحمله الحكومات من هـذه المسئولية أو التبعيـة ، هـذا وقـد تضمنت اتفاقيات التجـارة والحماية التى كانت سـارية المفعول مـع القبـائل الصديقـه بعض الالتزامـات الصريحة فى هـذا الشـأن . وفى البدء كان هـذا الواجب يعهد به الى الوسطاء فى غرب أفريقيا ، الا أنهم كانوا يعانون من نزعة قوية التأثير لم يكن فى وسعهم النهوض بمسئوليات جـديدة ، أو حتى انجـاز الالتزامات الأصلية المنوطة بهم . وقـد بدا أن التدخل العسـكرى بين الحين والآخر فى جنوب أفريقيا أمر ضرورى لمنـع اضمحلال وتشتت مجتمعـات البيض ومجتمعـات البانتو المتصـارعة . عـلى أنـه لم يكن من السهل انسحاب الحكومات من هـذا الميدان ، لكن ظل هـذا الاتجـاه يراودها حتى نهاية العقـد السـادس من القرن التاسـع عشر .

ولقـد أصبح الليبراليون ، بحكم الضرورة ، يولون اهتمامهم للجهود الانسـانية فى أفريقيـا ، ولم تكن الرسـالة الليبرالية والعمل الانسـانى ، فى نظر الشعوب الأوربية — ترفا فلسفيا فى المقـام الأول — فاذا اقترنت هـذه الرسـالة أو هـذا المسعى بالمشـاعر الدينية للشعوب وبرغبـة النـاس وحبهم للعمل أكثر من الرغبة فى الكـلام النظرى — فربما أضحى حتما أن تحيى هـذه النزعـة الليبراليـة الحماسـة لابقاء الارسـاليات المسيحية ، وبهـذه الوسـيلة كـان الأفراد وجماعـات المتطـوعين — لا الحكومات — هم الذين يسعون للعمـل على اعـادة تشكيل الشـعوب الأفريقيـة من جـديد وارشـادها نحو الأهـداف المسيحيّة والليبرالية العالميـة . ولم يكن ثمة تناقض حقيقى بين النزعـة الليبراليـة الدنيويـة وبين الدين المسيحى ، أو بين مبـادىء الحرية الاقتصـادية وبين التحمس العميق من أجـل صوغ احـدى الحضـارات الغربيه صوغا جـديدا — الا فى نظر بعض المراقبين والمثقفين . ولقـد أثـارت المـذاهب العقلية فى القرن الثـامن عشر اهتماما علميا واسـع النطـاق ؛ وذلك حتى قبل أن يكون للنزعـة الليبرالية المثالية او الشعبيه تأثير ملموس فى أفريقيـا . وللمرة الأولى اخـذ المغـامرون البيض يتوغلون توغلا كبيرا فى المنـاطق الداخلية ، ولم يكونوا ، فى أغلب الأحيـان ، من العلمـاء المدربين ، لكنهم

كانوا جميعا يشتركون فى موهبة ومقدرة ملموسة فى الكتابة السليمة ونقل الأخبار ، وفى الايمان بقيمة وبأهمية المعرفة المجردة عن الأماكن النائية ، وفى التصميم على القاء أضواء من الحقيقة على الأساطير والشائعات التى أشبعت فضول الناس طوال قرون عدة .

ولقد توغل منجو بارك ، ومن بعده رينيه كاييه ، فى حوض النيجر الأعلى فى الأعوام ١٧٩٥ — ١٨٠٦ ، ثم ١٨٢٧ — ١٨٢٩ على التوالى ، كما جاب كلابرتون والشقيقان لاندر وهاينريش بارت حوض النيجر الأدنى وبلاد الهوسا فيما بين عام ١٨٢٥ وعام ١٨٥٦ . ولقد دفع اهتمام مماثل بجنوب أفريقيا وخلال نفس الفترة ، بآخرين لاستكشاف غرب وشمال بلاد الترانسفال — وكان جزاؤهم المادى جزاء طفيفا بكل تأكيد . بل أن الكثيرين من أصحاب المصالح التجارية والسياسية كانوا يناصبون هؤلاء الدارسين — المنزهين عن الغرض — الخصومة والعداء . ولم تكن لجنسياتهم شأن أو أهمية تذكر فى ذلك الوقت ، ولم يكن الكثيرون منهم معروفين الا لعلماء الجغرافيا ، لكن مكانتهم كانت عظيمة ، كما أن صيتهم كان ذائعا داخل هذه الدائرة الضيقة .

ومع أن هذه الكشوف كانت نتاجا للايمان العلمى الجديد بالنظام العالمى وبالمعرفة العالمية ، مثلها فى ذلك مثل النزعة الليبرالية — فقلما تضافرت الحركتان فى جهودهما فى الحقل الأفريقى .

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، اتجهت الحركة التبشيرية الى التركيز على حدود مستعمرة (الكاب) أو على طول ساحل الذهب ، وسواحل الرقيق (*) ، حيث كانت هناك جهود حقيقية أكيدة لمناهضة النفوذ القديم لتجار الرقيق . على ان جنوب أفريقا ، بسكانها من البانتو ، الأكثر انتشارا وبعثرة من غيرهم من شعوب القارة ، الى

(*) هذه الأسماء المختلفة التى أطلقها الأوربيون على السواحل الأفريقية تكشف عن الدوافع الحقيقية للاستعمار الأوربى للقارة — أو هى بصمات أصابع اللص يتركها على جسم الضحية كما عبر عنها جمال حمدان : استراتيجية الاستعمار والتحرير — ص ١٣٥ (المترجم) .

جانب أراضيهم المفتوحة المباحة ، والرغبة فى مناهضة نفوذ البوير وتوسعهم — كانت كل هذه حافزا لامتداد هذا المجال التبشيرى بسرعة أكبر نحو الداخل ، وذلك حوالى منتصف القرن التاسع عشر وهنا التقى العلم والدين مع النزعة الليبراليه المناهضة لتجارة الرقيق فى شخص ديفيد ليفنجستون (١٨١٣ — ١٨٧٣) .

ولقد بدأ الدكتور (ليفنجستون) حياته العلمية عام ١٨٤٠ كطبيب مبشر فى أراضى جنوب أفريقيا ، وذلك فى أرسالية كانت تعمل من زمن بين قبائل السوتو غربى ولاية أورانج الحرة مباشرة . وبعد خلافات متكررة مع البوير — الذين اختلف عنهم ليفنجستون اختلافا كليا باعتباره من العلماء ورجال الأرسالية الاسكتلنديه — شرع فى الكشف عن جغرافية وسكان المناطق الداخلية .

وازاء ميل ليفنجستون الخاص للمشاهدات العلميه — فقد أسهم بنصيب وافر فى المعارف الخاصة بالتاريخ الطبيعى والجغرافيا واللغويات الأفريقية . ولم تلق تقاريره عن الثقافات أو الشخصيات الأفريقية حظها اللائق من الذيوع — لكنه كان مدفوعا باحساس قوى من العدالة والحماسة للمبادىء الانسانيه .

وقام ليفنجستون فيما بين عام ١٨٤١ — ١٨٥٣ بسلسلة من الرحلات المتعاقبة وتوغل فى نهر الزمبيزى واهتدى الى حوض هذا النهر . وبحلول عام ١٨٥٦ كان قد جاب المنطقة بين انجولا وموزمبيق واكتشف مساقط مياه فيكتوريا . وبعد ذلك بثلاث سنوات أنشأ (ليفنجستون) أرسالية كبيرة فوق سواحل بحيرة نياسا التى لم يتجه اليها أحد من قبل .

ولقد صادفت تقاريره العلمية وتقارير الارسالية التى كتبها بلغة بليغة تنبض بالحياة رواجا كبيرا فى سوق الكتب بين جمهور القرن التاسع عشر ، سواء فى أوربا أم فى الولايات المتحدة .

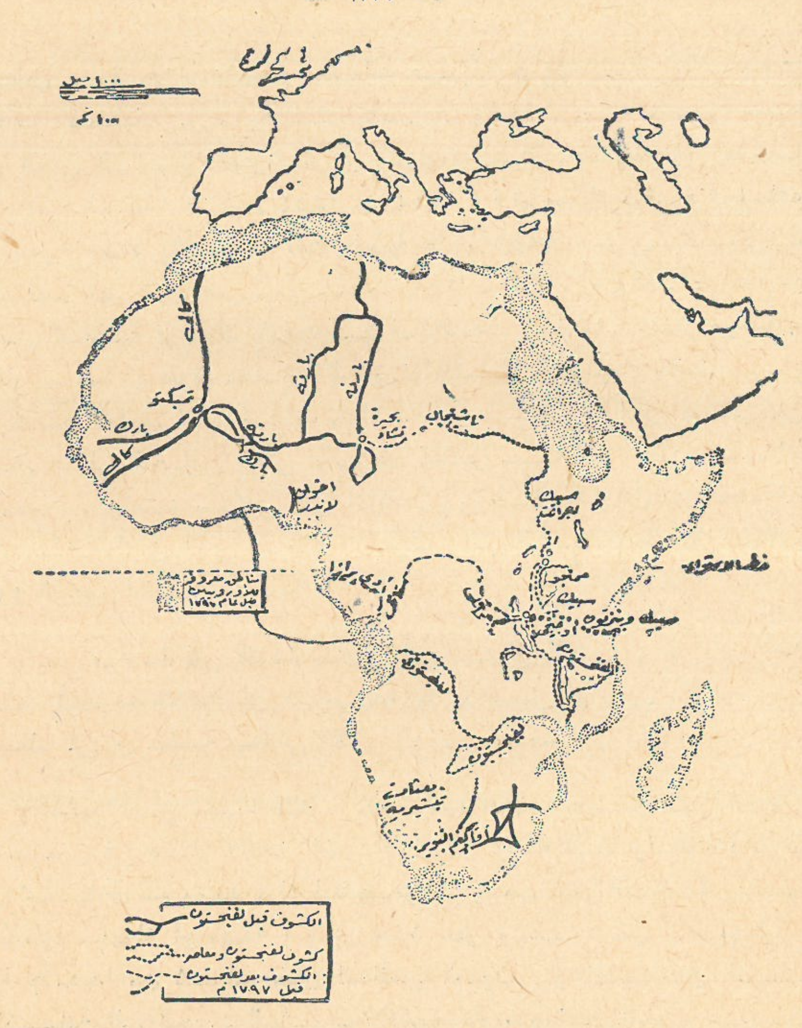
ولقد ظهرت موجة من الحماسة التى تميز ايمان العصر غير المحدود تقريبا فى العلم وفى الدين ، وبلغت هذه الموجة ذروتها فى موجة من السخط العنيف الصاخب حين بعث (ليفنجستون) بأول تقاريره

الخطية المستفيضة عن تجارة الرقيق ، ولقد أظهر (ليفنجستون) أن تجار الزنوج قد وصلوا فى توغلهم الى حوض نهر الكونغو ، كما وصف العديد من الجوانب التى لم تكن معلومة من قبل عن تجارة شرق أفريقيا .

ولقد أبرز الدكتور (ليفنجستون) فى تقاريره المؤثرات العلمية والدينية والرومانسية التى كانت سرعان ما تروج وتذيع بين الناس ، ثم تنشر فى حلقات مسلسلة بعد أن تتناولها الصحف التى تعمد للاثارة والتضخيم . وترتب على ذلك أن انبثق اهتمام جديد بكل من شرق أفريقيا ووسطها ، وكان هذا الاهتمام يتميز — فى جوانب كثيرة — عن الاهتمام السياسى أو الاقتصادى .

وفى عام ١٨٦٥ ادى الضغط الذى مارسه تجار الرقيق الى اخلاء الارسالية الاسكتلندية فى منطقة بحيرة نياسا . وبدأ الدكتور (ليفنجستون) بعثته الكشفية الثالثة ، واتجه هذه المرة للبحث عن منابع نهر الكونغو . ولقد بلغ الاهتمام العالمى بهذه البعثة ذروته . وعلى الرغم من أن رسل البانتو الموفدين كانوا يجلبون الرسائل بين الفترة والأخرى من قاعدته المتقدمة على الساحل الشرقى لبحيرة تنجانيقا — فقد ظل الجمهور فى أوربا والولايات المتحدة يعانى من القلق ونفاد الصبر حين دخلت البعثة عامها الخامس فى عام ١٨٧٠ — حينئذ قرر جيمس جوردون بنيت صاحب صحيفة نيويورك هيرالد — المعروفة بميلها لنشر الأخبار المثيرة — ايفاد مراسل لجمع الأخبار من مناطق شرقى البحر المتوسط والهند والمناطق الهامة الجديدة فى شرقى أفريقيا ، بما فى ذلك الاتصال بالمبشر المشهور (ليفنجستون) .

وقد وقع اختيار (بنيت) على جون رولاندز للقيام بهذه المهمة — وهو من أبناء مقاطعة ويلز الذين هاجروا الى ولاية نيو أورليانز واتخذ لنفسه اسم والده بالتبنى — **هنرى مورتون ستانلى . ولما كان ستانلى** لايأبه بالهجوم على الشخصيات ، أو ابداء المشاعر ، أو سرد رواية بسيطة بأسلوب مغرق فى الشاعرية — فسرعان ما ذاع صيته فى عالم الصحافة البراق بمدينة نيويورك فى أعقاب الحرب الأهلية . وكانت



أفريقيا ، الكشوف الجغرافية فى القرن ١٩

الأنشطة التى يزاولها ستانلى تمول تمويلا وفيرا ، وكانت تتسم أحيانا بالاندفاع والتهور ، كما كانت تنجز عادة بأسلوب مسرحى مثير . وكانت تقارير (ستانلى) من أفريقيا تبرز — بطريقة مقصودة — الصورة المألوفة للقارة السوداء المتوحشة الغنية بالثروات .

وبعد بضعة شهور — قضاها ستانلى فى الشرقين الأدنى والأوسط — اتجه عام ١٨٧١ ، للنهوض بالجزء الأفريقى من مهمته — ولم يكن (ستانلى) قد تجاوز الثلاثين من عمره حين وصل الى زنجبار ،

الا بقليل . وقد استخدمت بعثات عديدة هذا الميناء ، واستعانت بمكاتب القنصلية البريطانية هناك باعتبارها واتخذت منه قاعدة لها ابان الجيل السابق الذى تمثل فى أشخاص بيرتون وسبيك فى رحلتيهما الى بحيرة تنجانيقا عام (١٨٥٤ — ١٨٥٥) ، **ثم سبيك بمفرده فى رحلته** الى بحيرة فيكتوريا ومنابع النيل العليا عام ١٨٥٨ ، ثم سبيك وجرانت فى تتبعهما لنهر النيل حتى مصر عام ١٨٦٠ — ١٨٦٣ . وكانت كل هذه المناطق الداخلية فى ذلك الوقت قد استكشفت وجابتها الأسفار ووصفتها الأقلام — كما أن طرق تجارة الرقيق والمتشعبة من زنجبار كانت تصل الى هذه المناطق كلها باستثناء منطقة نهر النيل . وانفق ستانلى من المال على الحمالين وعلى تجهيزهم أكثر مما أنفق عليهم أسلافه مجتمعون . واعتمد ستانلى على المرشدين ورجال القوافل من العرب فى تتبعه الطريق الذى سلكه (سبيك) الى أوجيجى حيث كان متوقعا وجود الدكتور ليفنجستون فيها .

وليس ثمة ما يثير الدهشة فى أن العالم المبشر — حين شاهد هذه المجموعة المؤلفة من عناصر مختلفة لم يسبق لها مثيل — عجز عن الكلام الى أن خاطبه ستانلى قائلا : الدكتور ليفنجستون على ما أظن ؟ .

وانقضى عامان بعد ذلك ، حين جلب الحمالون المرافقون للدكتور ليفنجستون فى عام ١٨٧٣ الخبر الأول عن وفاته ثم جلبوا جثته وأوراقه الى الساحل — وقد ترك ليفنجستون أفريقيا التى لم تعد مناطقها الوسطى مجهولة أو مهملة ، وكان قد خلق وأشاع بين شعوب أوربا جوا جديدا من شأنه خلق التنافس السياسى والاقتصادى الحاد بالاضافة الى الجهود التبشيرية الفعالة . ولقد تمخض عن ذلك سباق قومى عنيف بين الدول الكبرى لاقتطاع أجزاء شاسعة من الأراضى الداخلية بالقارة . وتحولت رسالة التحرير الى تنافس استعمارى .

١٢
الاتجاه للتفكير بمنطق الاستعمار

ظل دعاة الاصلاح فى أوربا طول العقدين السادس والسابع من القرن التاسع عشر يأملون فى تزايد العمل والنشاط المثمر فى المناطق الداخلية بأفريقيا ، فقد كانوا يسعون الى الغاء الرق وتوجيه المجتمعات المحلية توجيها جديدا نحو الأهداف المسيحية الليبرالية ، وتطوير الأنظمة الاقتصادية والسياسية بحيث تعود بالفائدة على البيض والأفريقيين على حد سواء ، لكن مثل هذه التبعة كانت أضخم من أن تضطلع بها جماعات صغيرة تعمل منفردة ولم تكن تستطيع النهوض بأعبائها سوى الحكومات المنظمة التى يمكنها تدبير التخطيط الضرورى والحماية ورأس المال اللازم لمثل هذه المشروعات .

وتتسم هذه الفترة بظاهرة التطور التدريجى وتقبل الأعمال الحكومية المباشرة . **وهذا الاتجاه الجديد يمثل تغيرا ملحوظا عما** كان سائدا فى العقود الماضية .

وبدأ نفوذ الحكومة البريطانية فى الاتساع والانتشار فى ساحل الرقيق منذ مطلع عام ١٨٦١ ، وفى جنوب أفريقيا منذ عام ١٨٦٦ ، لكن هذه الأعمال المحدودة كانت تتم على مضض من اجل الحد من بعض المساوىء الخاصة فى تجارة الرقيق أو المناوشات على الحدود. على أن التوسع المقصود — اى الذى يتم حسب خطة مدروسة — فى النفوذ الأوربى — قد بدأ على الأرجح مع حكم نابليون الثالث عام ١٨٦١ . فلقد أحيا نابليون الثالث اهتمام فرنسا باقليم السنغال — بعد أن كان قد فتر — من أجل اثارة المجد القومى وخلق موجة من الولاء الشعبى فى الداخل . ومن ثم فلقد شجع الاستيطان الفرنسى ، كما أن السكان المحليين فى الأقاليم التى ضمت حديثا قد ارتبطوا ارتباطا مباشرا باحدى الأسواق الزراعية والاستعمارية ، ونقلت الأنظمة السياسية والاجتماعية الفرنسية نقلا الى هذه الأقاليم الجديدة . ومن ثم تعززت الصورة القومية للثقافة النامية الشاملة الجامعة التى تشمل فرنسا ومستعمراتها .

أما فى بريطانيا ، فقد كان هذا التحمس القومى أبطأ فى نموه — ومرد ذلك من ناحية الى أن التناقضات فى المبدأ الليبرالى كانت أوضح للعيان ، كما انه نادرا ما كانت الأحزاب السياسية الكبرى أو الراى العام يوافقان على ضرورة أو افضلية الحصول على أراض جديدة أو على تحمل الحكومة للمسئولية أو تجشم النفقات فى هذا العمل .

وكان الليبراليون قد خلصوا الى أن التوسع الاقتصادى يعود بالفائدة على كل من أوربا وافريقيا عن طريق زيادة سرعة الانتاج ومعدل التبادل الاقتصادى .

وكان الأوربيون عام ١٨٧٠ يعتقدون أنهم قد بلغوا مرحلة النُضج فى ميدان الصناعة . وليتحقق المزيد من النمو ، كانت أوربا فى حاجة الى الأسواق والموارد فيما وراء البحار . على أنه لم تكن ثمة ضرورة للقيام بعمل من جانب الحكومات الى ان تطورت الفكرة التى تقول بوجود تنافس بين الدول الأوربية من أجل السيطرة . وبعد عام ١٨٧١ ، حين اتخذت المانيا وبدأت تأخذ بأسباب التصنيع ، أيقن التجار أن الحدود السياسية القومية تؤثر فى أنماط التجارة ، وظهرت فكرة تقول أن امكانيات التوسع الاقتصادى محدودة (*) ، ومن ثم لم يكن أمام بريطانيا مناص من الاعتراف بالطابع القومى الذى يصطبغ به التنافس فيما وراء البحار .

وفى نفس الوقت كان قد أخذ بمبدأ حق الانتخاب العام للذكور ، كما اخترع التلغراف كما أن قانون الاصلاح الثانى الذى صدر عام ١٨٦٧ حول بريطانيا الى ديمقراطية شعبية . كما أن حزب المحافظين — استعدادا لانتخابات ١٨٧٤ — أنفق ثلاث سنوات وهو يسعى وراء الدعم والتأييد الشعبى القائم على تحقيق الازدهار والمجد عن طريق التوسع .

(*) ظل الزعيم الألمانى بسمارك زمنا طويلا يعارض السياسة الاستعمارية ويعمل على تجنيب بلاده مشكلاتها لكن لم يلبث أن تغير هذا الوضع بسرعة،فقد بدأ عدد من الكتاب الألمان من أشهرهم فابر Fab(r يدعون لضرورة انشاء مستعمرات تخدم أهداف المانيا الاقتصادية،وقد أيدهم فى ذلك عدد كبير من أصحاب المصالح التجارية (المترجم) .

أما المصالح الجديدة ، مثل اكتشاف الألماس فى جنوب أفريقيا ، فقد هيأت قوة دافعة اقتصادية جديدة لهذه الفكرة (*) وأدى اختراع الخط التلغرافى الممتد تحت البحر الى ظهور وعى جديد بين الجماهير ، فقد أتاح ذلك تقديم أخبار حديثة ومستفيضة فى طبعات شعبية زهيدة الثمن . وكذلك يسرت قناة السويس — التى افتتحت عام ١٨٦٩ — سبيل الوصول الى شرق أفريقيا على نحو أسرع وأرخص من ذى قبل .

وفى عام ١٨٧٥ سعت الحكومة الى تحقيق السيطرة المباشرة على هذا الممر المائى الحيوى من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، وقد استطاعت بلوغ غايتها تلك . (**) وهذا بدوره أدى الى المزيد من تيسير سبل الوصول الى شرق أفريقيا التى كان للتقارير الشعبية للدكتور (ليفنجستون) الفضل فى ذلك الوقت فى جذب اهتمام رجال الاقتصاد ومحبى الخير للانسانية كلها اليها .

ولفترة من الوقت ظهرت التناقضات فى التصرفات البريطانية بين متطلبات النزعة المثالية الليبرالية وبين متطلبات الحتمية القومية — فقد كان التجار البريطانيون ، كما كانت الارساليات البريطانية تعتمد على قنصليات وزارة الخارجية البريطانية فى حمايتها من المتطفلين الأجانب ، واتسعت مناطق النفوذ الفعلية . وأحيانا كانت تستلزم محاولات تهيئة احدى المناطق أو محاولات طرد المنافسة الأجنبية —

(*) ترتب على اكتشاف الألماس فى(كمبرلى)،والعثور على الذهب حول (جوهانسبرج) — أن تدفقت أفواج من البريطانيين على هذه المناطق،حتى أن بعض الكتاب أطلق على هذا الزحف تعبير (The Diamond Rnsh) (المترجم) .

(**)وصلت الحالة المالية لمصر سنة ١٨٧٥الى درجة سيئةوغدت عاجزة عن سداد أقساط ديونها،فعرض اسماعيل أسهم مصرفى قناةالسويس للبيع، فأسرعت انجلترا بشرائها نظير ثمن بخس ٣ر٩٦٧ر٥٨٣ جنيها،وبذا أصبح لانجلترا الكلمة العليافى شئون القناة — وكانت هذه الخطوة الأولى لاحتلالها لمصر (المترجم) .

عمليات احتلال سياسى أو عسكرى مؤقت — وعادة كانت هذه العمليات تنتهى ، لأنها تتطلب نفقات أو مسئوليات لا تقرها المعارضة البرلمانية والرأى العام . ومن ناحية أخرى بذلت جهود رسمية يشوبها الاضطراب والتشويش من أجل أقامة اتحاد فيدرالى بضم الانجليز والبوير ويتمتع بالحكم الذاتى فى جنوب أفريقيا بحيث يكفل له الارتباط مع بريطانيا وأن لم يضف عبئا جديدا لمسئولياتها .

ولقد تبين — مرة بعد الأخرى — عدم جدوى مثل هذا التدخل الحكومى المتقطع أو الهامشى ، فبحلول العقد التاسع من القرن التاسع عشر أصبحت المشاركة والاسهام العسكرى والسياسى الدائم ، وكذلك الانفاق المباشر ، ضرورة فى مناطق عديدة من أجل ضمان بلوغ الأهداف الانسانية والاقتصادية المرجوه — وأصبحت الادارة البريطانية ذات طابع دائم فى (نياسالاند) لأن الارساليات كانت تحتاج الى حماية دائمة من هجمات تجار الرقيق من زنجبار ، وكذلك من هجرات قبائل البانتو ، وكانت معظمها من قبائل البنجونى الوافدة حديثا من اقليم (الزولو) وكانت هذه القبائل فى خوف دائم من غارات السلب والنهب من جيرانها . وكانت أوغندا أيضا فى حاجة الى حماية مستمرة بعد أن اندلعت الحرب الأهلية بين جماعات من المسلمين ، ومن الذين اعتنقوا المذهب الانجيلى وآخرين من الكاثوليك الفرنسيين ، وكان لابد من توفير الحماية للمنقبين البريطانيين ودخولهم فى ظل المنطقة الجمركية للامبراطورية بعد أن تم اقتطاع حقول الألماس فى كمبرلى من ولاية الأورنج الحرة . كما أن التدخل الحكومى كان أمرا ضروريا فى بعض المناطق مثل دلتا النيجر والروديسيتين من أجل الحد من الأساليب الاحتكارية فى التجارة ومن أجل حسم الخلافات فى اتفاقيات التنازل التى كان رجال الأعمال يحصلون عليها من القبائل المحلية . (*) أما فى كينيا وفى المناطق

(*) شاعت فى ذلك الوقت أمثال هذه الاتفاقيات والمعاهدات التى كان يتنازل بموجبها بعض شيوخ القبائل والسلاطين عن مساحات واسعة من الأراضى فى مقابل بعض الهدايا التافهة — ولا شك فى أن هؤلاء الشيوخ كانوا يوقعون على هذه المعاهدات دون علم بمحتوياتها . (المترجم) .

الداخلية بساحل الذهب فلم تكن هناك قوة غير قوة الحكومة تستطيع الحفاظ على طرق المواصلات التى تعتمد عليها التجارة ، أو الأساليب ، أو توفير الحماية لها .

وقد اصطدم التوسع الفرنسى فى السنغال مع مصالح الامبراطورية الاسلامية المستقلة التى تخضع لنظم شبه عسكرية فى المناطق الداخلية من غرب أفريقيا . ولقد تميز شطر كبير من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بظاهرة الصراع المستمر من أجل خلق حد واضح وحاسم بين السلطات الأفريقية والسلطات الأوربية اذ لم تكن ثمة سمات بشرية أو جغرافية تفصل السنغال عن دول أو ولايات الداخل . وكانت هذه الولايات قد بلغت حدا من الاتساع والحيوية بحيث أصبح السلم بها أمرا يستحيل تحقيقه دون فرض الاحتلال الكامل عليها .

وفى هذا السدد لجأ أصحاب المصالح التجارية البريطانية لحكومتهم طلبا للحماية من المنافسة الفرنسية ومن القبائل الاسلامية المدافعة التى كانت تنتقل وتغير على أراضيهم .

ولقد كان القادة العسكريون الفرنسيون مدفوعين ، ولو الى حد ما على الأقل — للغزو الكامل لهذه الأقاليم بدافع الرغبة فى تأكيد سطوة قواتهم واثبات أمجادها برغم النصر الذى أحرزه الألمان على أبواب باريس عام ١٨٧٠ . وفضلا عن ذلك فقد كان — للأحلام الاقتصادية البراقة وتصور الخيالات المتعلقة بتوسيع آفاق الثقافة الفرنسية — تأثير كبير فى جمهرة الناخبين فى الجمهورية الثالثة .

وبدأ أول الأمر أن الامبراطورية الألمانية التى توحدت حديثا ، سوف تقتنع بأن تقتصر فى منافستها على ميدان التجارة الحرة فحسب ، كما أن الكونت أوتوفون بسمارك كان يرى أن أفضل السبل التى ينتهجها هى تحقيق الوحدة فى الداخل وتحقيق التوازن الدبلوماسى فى أوربا ، ثم تجنب أى عمل سياسى من شأنه اثارة بريطانيا أو مضايقتها . ولم يكن التجار الألمان من ذوى الميول الليبرالية راضين عن هذا التقصير فى تقديم العون السياسى لهم . وأخيرا اضطر بسمارك

فى الثمانينات لأن يتطلع الى هؤلاء التجار — طلبا للدعم السياسى ، بدأ يوافق على انشاء المستعمرات الالمانية . وكان يحاول دائما ان تقتصر هذه الشركات على المناطق التى لا ينازعه أحد على ملكيتها أو على الأقل الوصول مع كل من انجلترا وفرنسا وفى كل حالة الى اتفاقية مرضية .

لكن بعد الأستقالة الجبرية للمستشار الجديد (بسمارك) فى عام ١٨٩٠ ، نجد أن القيصر وليهلم الثانى كان أقل دهاء وحنكة .

وبدأت عملية التقسيم من ساحل غرب أفريقيا منذ عام ١٨٨٤ . وفى عضون عشر سنوات كان قد تم رسم الحدود والمعالم لما لا يقل عن مائتين وخمسين ميلا الى الداخل من **ساحل الذهب وساحل** الرقيق — والى ستمائة ميل من اقليم السنغال . ولم يحل عام ١٩٠٠ الا وكانت التقسيمات الكبرى قد اكتملت . وفى جنوب أفريقيا ، بدأ امتداد الأقاليم الخاضعة للنفوذ الأوربى من نهر الأورنج عام ١٨٧١ ووصل الى حدود نهر (اللمبوبو) عام ١٨٨٥ ، وكانت هناك حينئذ منطقة نفوذ للارساليات وللتجارة البريطانية فى الروديسيتين وفى نياسالاند — الا أن السيطرة السياسية لم تتحقق قبل خمسة عشر عاما أخرى ، ولم يكن قد حدث توغل سياسى فى شرق أفريقيا أو وسطها ، وكان ثمة خمس دول تولى هذه المنطقة اهتمامها ، كما أن التوسع الكبير — وغير الرسمى كان قد بدأ فى أوغندا على طول الساحل المواجه لزنجبار وعند مصب الكونغو .

وقد زادت القنصلية البريطانية كما زاد بعض الأفراد من رجال الأعمال الألمان من نشاطهم على طول ساحل زنجبار ، لكن الاهتمام الأوربى بالداخل تركز حول (هنرى مورتون ستانلى) . فبعد أن قام (ستانلى) بزيارة ليفنجستون ، اعتبره الكثيرون حجة فى أمور وسط أفريقيا وشرقها — وحين مات المبشر (ليفنجستون) (*) بدأ أن (ستانلى) هو الوريث الوحيد له فى العمل على نشر الحضارة

(*) توفى لفنجستون فى أول مايو ١٨٧٣ عند قرية تشيتامبو (Chitambo) الواقعة على أحد روافد الكونغو . (المترجم) .

والكشف فى أفريقيا . وفى عام ١٨٧٤ ، أى بعد مرور عام واحد على وفاة (ليفنجستون) ، أوفدت صحف نيويورك (ستانلى) فى بعثة كشفية استوائية جديدة بدأ من زنجبار متجها هذا المرة نحو أوغندا ، واقليم الكونغو المجهول ونحو خط تقسيم المياه ناحية المحيط الاطلنطى . (*) وفى أوغندا وجد (ستانلى) مملكة بوجندا وقد بزغت كقوة مسيطرة فى ظل الحكم شبه المطلق للكاباكا (موتيسا) لكنه روى أن الموتيسا كان يتعرض لاضطرابات خطيرة بسبب الضغط المتزايد من جانب المسلمين سواء من الشمال أم من الساحل . وقد عقب ستانلى — بصفة خاصة بقوله : « أن (الكاباكا) يود استقدام بعض الارساليات والمبشرين فى مملكته القائمة على نظام محكم من أجل مناهضة هذا النفوذ الاسلامى . ولقد بعث (ستانلى) بهذه الرسالة عبر نهر النيل ، ومنها الى انجلترا عام ١٨٧٥ » .

وقامت الجمعية الكنسية التبشيرية التى تحمست فى الاستجابة لهذا المطلب ، بايفاد المبشرين الانجيليين الى أوغندا بعد ذلك بعامين — كما أن فرنسا بدورها — بوحى من الشعور القومى ، وبدافع من أحياء الكاردينال لافيجيرى للاهتمام القديم الدفين بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى أفريقيا — قامت بتبنى ورعاية جماعة من الآباء البيض التى انتظم عقدها فى الآونة الأخيرة للقيام بالعمل التبشيرى . بيد أن موتيسا لم يكن يريدهم من أجل أغراض **دينية بل باعتبارهم كهنة** شبه عسكريين لدرء الأخطار عنه ، ومن ثم فقد استبقى المبشرين فى بلاطه حيث انهم انخرطوا بسرعة فى خضم السياسات الداخلية المتصارعة .

وفى ذلك الوقت كان (ستانلى) يمضى فى توغله عبر الغابات الاستوائية متجها نحو حوض نهر الكونغو الذى ظل يعمل فى كشفه حتى عام ١٨٧٧ .

(*) كان من أهم أهداف رحلة ستانلى الكشف عن حقيقة المجارى المائية فى وسط القارة ، ومعرفة اذا كان نهر (اللوالابا) متصلا بالنيل أم بالكنغو . (المترجم) .

ولما كان ستانلى قليل الدراية سواء بأحوال أفريقيا أم بالاختلافات الدقيقة بين القبائل المحلية — فقد كان يعتمد اعتماداً كبيراً على الأسلحة التى زود بها بسخاء ، كما كان يعتمد على ارشاد تيبوتيب (Tippo - Tib) (*) الوسيط العربى ، وذلك أثناء صراعه وابحاره فى طريقه نحو مصب النهر (نهر النيجر) . وقد انتقد كثيرون من المراقبين الأساليب التى اتبعتها وتنبأوا بأنه سيترتب عليها خلق صعاب جسيمة لمن يحاول التوغل فى داخل القارة فيما بعد . ولكن الخيال العام فى أوربا وأمريكا قد أسرته فكرة ادخال (ستانلى) للحضارة والمدنية الى أشد جهات العالم ظلمة وأكثرها رعبا .

ولم يكن ليوبولد الثانى ملك البلجيك — الذى بدأ خلال عام ١٨٧٦ ينظم هيئة دولية خاصة بتقدم العلوم والحضارة والمسيحية فى أفريقيا الوسطى — بأقل تأثيرا واستجابة . وفى البداية ، لم يكن (ستانلى) يولى التفاتا كبيرا لذلك الاهتمام الذى تبديه اللجان القومية لتلك الهيئة الدولية ، والمنتشرة فى مختلف الدول ، كما أنه لم يول التفاتا للأموال التى كان ليوبولد يستثمرها من ثروته الخاصة فى هذه المشروعات . بيد أن الهيئة استطاعت اقناع (ستانلى) للقيام برحلة ثالثة لاستكشاف اقليم الكونغو ، بحيث يدخل فى تلك المرة من ساحل الاطلنطى ، اذ أن المدخل السابق ، من خلال شرق أفريقيا ، كان يتطلب مسيرة برية طويلة عبر الأقاليم الخاضعة لبريطانيا والمانيا وزنجبار ، وكان نشاط (ستانلى) — خلال سنوات خمس حفلت بعقد المعاهدات ، واستكشاف الطرق وشقها — ظاهرة ملحوظة . ولدى عودة (ستانلى) عام ١٨٨٤ كان الشطر الأكبر من حوض نهر الكونغو قد أصبح يدخل فى اختصاص الهيئة الدولية اكثر مما يدخل فى اختصاص أى من الدول العظمى .

(*) تيبوتيب هو الزعيم العربى حميد بن محمد المرجبى،وكان قد سبق أن قام برحلات عدة عبر فيها نهر الوالابا وقد استطاع تكوين دولة عربية فى هذه المناطق بلغت درجة كبيرة من التقدم،وقداضطرت السلطات البلجيكية فى (دولة الكنغو الحرة) الى الاعتراف به — حتى قضت على هذه الدولة سنة (١٨٩٤) بعد معارك طاحنة بين القوتين (المترجم) .

وفى نفس الوقت ، اعادت فرنسا مطالباتها ودعاواها بالمناطق الواقعة شمالى الكونغو ، وهى **الدعاوى التى كانت تستند الى** العمليات التى قام بها تجار الرقيق من الفرنسيين فى القرن الثامن عشر — على أن الضباط الفرنسيين والوكلاء التجاريين الفرنسيين بعد أن سيطروا على الموانىء واستكشفوا المناطق الداخلية من ساحل الاطلنطى الجنوبى اتجهوا الى تحويل دعاواهم تلك الى احتلال فعلى .

ومنذ نهاية القرن الخامس عشر كانت البرتغال تطالب بأحقيتها فى منطقة شرق أفريقيا كلها وحوضى الكونغو والزمبيزى . بيد أن المستكشفين البرتغاليين لم يقوموا بمسح القارة مسحا موثقا أى على أساس الوثائق والحجج الثابتة ، كما أن معظم المزارع الكبرى فى المناطق الداخلية كانت قد اختفت ، وكانت البرتغال قد أقلعت عن الجهود الكشفية كافة بالقرب من مصب الكونغو أو زنجبار .

وبموجب مبادىء اتفاقية لندن عام (١٦٠٠) اعترفت الدول الأخرى بحق البرتغال فى السواحل المحتلة فعليا فقط فى أنجولا وموزمبيق .

وقد استقلت مصر عن السلطان العثمانى عام ١٨١١ . وقد بدأ محمد على — ذلك الضابط التركى الذى تزعم حركة التمرد — بعد ذلك بتسع سنوات فى احياء دعاوى الفراعنة القدماء بحقهم فى اعالى حوض النيل . وبحلول نهاية القرن السادس من القرن التاسع عشر كان خلفاء محمد على قد نصبوا لهم وكلاء موظفين من قبلهم حكاما على التخوم الشمالية لأوغندا .

وازدادت تجارة الرقيق على طول مجرى النيل الخاضع للمصريين زيادة سريعة الى أن تمكنت بريطانيا ، من خلال سيطرتها على قناة السويس ، من فرض تحول فى تلك السياسة (*) .

وقد بسطت مصر مصالحها خلال العقد السابع من القرن

(*) فى هذا القول تجن على جهود مصر فى تلك المناطق — والحقيقة أن استتباب الأمن فى ظل الادارة المصرية كشف النقاب عما فيها،وقد نسبت الكثير من المساوىء الموجودة من قبل للادارة المصرية — وجهود الادارة المصرية ، لالغاء تجارة الرقيق فيها لايمكن نكرانها (المترجم) .

التاسع عشر ، بحجة أنها تكافح تجارة الرقيق . وبعد أن استأثرت بريطانيا بالسيطرة المباشرة على نظام الحكم فى القاهرة — الذى ابتلى بالافلاس — استمر التوسع المصرى ، وبخاصه فى المديرية الاستوائية على الحدود الجنوبية . اما حاكم مديرية خط الاستواء فكان عالما المانيا فذا هو ادوارد شنيتزر الذى اعتنق الاسلام وسمى نفسه أمين باشا . وكانت السلطات المصرية على حق فى اعتباره اخلص عملائها فى السودان وعلى طول اعالى النيل ، حيث حاول مخلصا تنفيذ سياسة مكافحة الرقيق المقيتة . وبعد عام ١٨٨١ آلت معظم هذه الأقاليم الى محمد أحمد المهدى (**) ، ذلك المسلم المتعصب الكاره لكل ما هو أجنبى ، والذى أفلح فى عزل أمين باشا ، ومديرية خط الاستواء عن العالم الخارجى ، وبدد حلم الامبراطورية المصرية وأغلق الملاحة فى مجرى النيل كله .

ودخل الصراع حول شرق أفريقيا ووسطها مرحلة سياسية حاسمة بحلول عام ١٨٨٤ . وبدا أن التجارة البريطانية يساندها قنصل بريطانى نشيط فى زنجبار ، تسيطر على تلك الجزيرة وعلى الساحل الذى يواجهها . وسعت وزارة الخارجية البريطانية الى القضاء على بقايا تجارة الرقيق — كما أن المصالح الألمانية الخاصة كانت موجودة فى المنطقة ، وكذلك كان المبشرون البريطانيون والفرنسيون يعملون فى اقليم بوجندا وكانت للبرتغال دعاوى غامضة تجاه الساحلين من الجنوب . كما كانت عناصر الجيش الفرنسى والهيئة الدولية تعمل على فتح ضفتى نهر الكونغو ذاته . ولما وصل الأمر لهذا الحد طلب بسمارك من الدول العظمى أن تجتمع من أجل الحيلولة دون وقوع نزاع كبير — وعندما افتتح مؤتمر برلين فى نوفمبر ١٨٨٤ حضره ممثلون عن كل الحكومات المعنية بما فيها بريطانيا ، وفرنسا ، والمانيا ، واسبانيا ، والبرتغال وبلجيكا ، والولايات المتحدة .

(**) لم يستطع المهديون مد نفوذهم للمديريه الاستوائية — لكن أصبحت المديرية فى عهدهم مطمعا للدول الاستعمارية (انجلترا، وبلجيكا، والمانيا) فأرسل ستانلى لسحب أمين باشا من المديرية ليفسح المجال لهذه الدول (المترجم).

وكان قد سبق لبريطانيا أن اعترفت بالكثير من دعاوى البرتغال التوسعية لا سيما تلك الدعاوى التى تقف حائلا دون تحقيق أطماع فرنسا وأطماع الهيئة الدولية (البلجيكية) . وكانت بريطانيا مدفوعة فى موقفها هذا الى حد ما ، بالأمل فى استمالة البرتغال لأن تضع حدا لتجارة الرقيق فى البرازيل .

على أن المؤتمر لم يقرر تأكيد مبدأ (لندن) عن الاحتلال الفعلى فحسب ، بل وتطلب وجود الادارة الفعلية كدليل وبرهان على احقية الدولة فى المنطقة التى تزعم مد سلطانها عليه . وأدينت تجارة الرقيق مرة أخرى ومنحت بريطانيا الحق فى اقاليم دلتا نهر (النيجر) مع ضمان حرية التجارة فى النهر .

وفضلا عن ذلك فقد قبلت مطالب فرنسا فى الأقاليم الواقعة شمالى الكونغو ، أما كل أقاليم خط تقسيم مياه الكونغو الواقعة جنوبى النهر ، بالاضافة الى ممر ضيق على طول الضفتين يتجه الى ميناء على المحيط الاطلنطى — فقد خضع لدولة الكونغو الحرة المستقلة ، وتقرر أن يقوم الملك ليوبولد و (الهيئة الدولية) بادارة هذه الدولة — كما اعلنت كل اقاليم حوض الكونغو وشرق أفريقيا مناطق تجارة حرة يحظر فيها الاتجار فى المشروبات الروحية . وكان ذلك مبعثا لرضا الولايات المتحدة التى كانت اول دولة تعترف بعلم دولة الكونغو الحرة . وقد اقتفت بقية الدول الأخرى أثر الولايات المتحدة . وحصلت اسبانيا على مكافأة طفيفة بالقرب من خط الاستواء ، وأعادت طرح حقها فى قطاع من ساحل الصحراء الكبرى الذى لم يكن ينازعها فيه أحد . وفى فبراير ١٨٨٥ اكتسبت قرارات مؤتمر برلين صيغتها النهائية القانونية وحظيت بالموافقة الاجماعية (*) .

(*) يعتبر مؤتمر برلين من أضخم المؤتمرات الدولية التى تعرضت لمشكلات متصلة بالاستعمار وقد تعرضت قراراته لنقد كثير من الكتاب نذكر منهم :

Crowe, Sybile : The Berlin West African Conference (1884 - 1885) London 1942 .

Banning, Emile : La partage politique de l'Afrique (Brussels 1887) .

وبدأت المصالح الألمانية — خلال شهور قليلة تزعج البريطانيين فى جنوب أفريقيا . وقد بادرت شركة جنوب أفريقيا البريطانية بالادعاء بحقها شبه الرسمى فى بيع الأراضى الواقعة جنوبى وغربى جمهوريات البوير ، على أن التسوية الرسمية بهذا الخصوص لم تتم الا عام ١٨٩٠ وان كان قد حيل دون الاتصال المباشر بين ألمانيا والبوير ، وتأكد اتصال البريطانيين من الكاب حتى منابع نهر الكونغو .

التقسيم الاستعماري لأفريقيا ١٨٦٠ - ١٩١٠

وبعد عام ١٨٨٥ اجتذب الصراع على شرق أفريقيا الأنظار كلها . وكان الأوربيون يهتمون بشكل خاص بالتنافس الدائر بين الجماعات والطوائف التبشيرية الفرنسية والانجليزية والاسلامية فى أوغندا ، ولم يكن ثمة طريق موصل الى أوغندا — بعد أن أغلق المهدى الطريق النيلى — سوى طريق بدائى طوله خمسمائة ميل يبدأ من زنجبار .

على أن المبشرين البريطانيين كانوا يسعون الى العثور على طريق أقصر من (ممبسة) عبر مرتفعات كينيا التى يجوبها المحاربون . وقد

قامت شركة ألمانية استعمارية خاصة — تعمل دون موافقة بسمارك — بايفاد المستكشف كارل بيترز Karl Peters الى المنطقة . وفى عام ١٨٨٦ توصلت بريطانيا وألمانيا الى اتفاق يحدد منطقة نفوذ كل من الدولتين فى امبراطورية الزنج ، فاستأثرت بريطانيا بجزيرة زنجبار ، وساحل الزنج الشمالى ، واستولت ألمانيا على السواحل الجنوبية .

وبعد ذلك بعام واحد توغل ستانلى ، الذى أصبح حاكما عاما على دولة الكونغو الحرة التابعة للملك ليوبولد — متجها نحو منابع النهر من ساحل الاطلنطى بقصد اخضاع أمين باشا لسيطرة الملك ليوبولد . والواقع لقد كان المقصود بهذه الحملة أن نكون حملة انقاذ مثيرة ، وكانت الاضطرابات والصعاب اللاحقة من الأمور التى لم يألفها ستانلى ، وانتهى الأمر بأن ستانلى هو الذى احتاج الى الانقاذ ، وأن الذى أنقذه هو أمين باشا .

والحقيقة أن أمين باشا مع الجنود المصريين ، الذين ظلوا على ولائهم ، كان يخوض حربا مؤثرة نسبيا ضد المهدى ، ورفض تسليم مديرية خط الاستواء لكى يعود الى الكونغو مع ستانلى . وفى الوقت نفسه فان حملة (انقاذ أمين باشا) التى اضطلع بها ستانلى أثارت الكثير من المشاعر والزهو القومى فى أوربا ، فاندفعت حملة ألمانية بقيادة (كارل بيترز) من زنجبار ووصلت مديرية خط الاستواء قبل أن يغادرها ستانلى ، واقتنع أمين باشا بأن ينضم الى المجموعة الألمانية وفى طريق العودة الى زنجبار عام ١٨٩٠ ، قام أمين باشا مع بيترز ، برفع العلم الألمانى فى أوغندا .

وقد اكتشفا بعد ذلك أن بسمارك واللورد سولسبرى قد توصلا فى نفس الوقت فى أوربا الى قرار مختلف تماما عما اتخذاه من اجراءات وكان القرار الأوربى ، بطبيعة الحال والذى تجسد فى معاهدة هليجولاند Heligoland Treaty قرارا رسميا . فلم يكن لما تم فى أفريقيا اى اعتبار .

وقد حظيت بريطانيا بحق الحماية على أوغندا وجزيرة زنجبار وساحل كينيا بكل ما يقع وراءه من أراض بينما حصلت ألمانيا

هليجولاند ، وهى جزيرة بريطانيـة فى بحر الشمال ، وسيق السلطان
الى زنجبار وحيدا ولكنه وعد بايجار سنوى من الأراضى الرئيسية
فى شرق أفريقيا والتى تخضع لسكان أوروبا ، وبعد ذلك بقليل ،
وافقت ألمانيا وانجلترا على تقسيم جنوب شرق أفريقيا .

وبعد عام ١٨٩٠ قسمت كل القارة ماعدا المساحات القليلة من
الصحارى التى كانت مستمرة فى النضال ، وقد تنافست البعثات
الفرنسية والبريطانية مرارا على هذه المناطق وقد تحولت مثل
هذه الصراعات — مثلما حدث فى منطقة فاشودا فى أعالى النيل —
الى صراعات دبلوماسية على درجة من الخطورة . وعلى أى الأحوال فان
القضية قد حلت بالحرب فى عام ١٨٩٨ ، وكانت كل المطالب الأوروبية
فى أفريقيا قد استقرت ، ولكن فى بعض أجزاء من القارة ، بدأ عمل
مسح لتعضيد تلك الاتفاقيات لم يكتب له أن يتم أبدا .

وفى نفس العام الذى وقعت فيه معاهدة هيلجولاند ، فان مؤتمرا
قد عقد فى بروكسل لمناقشة طريقة الحد من تجارة العبيد . وقد
حظى شرق أفريقيا باهتمام خاص لأن قوافل تجارة العبيد كانت الطريقة
الوحيدة للوصول الى حكومة الوصاية فى أوغندا . وأوصى المؤتمر بأن
خطوط السكك الحديدية ، والتى هى أرخص طريقة مواصلات ، لابد أن تمد
بأسرع ما يمكن وهكذا تنتهى ظاهرة تجارة العبيد مادام لن يصبح هناك
طريق لمرور القوافل . ولم تفكر أى من السلطات الحاكمة فى المستعمرات
فى صرف مبالغ طائلة على هذه الخطوط ، ولكن فى الربع الأول من القرن
التالى وقعت بريطانيا وألمانيا التوصيات فى شرق أفريقيا بمد خط
سكة حديد تكلف مبالغ طائلة لربط الساحل بداخل القارة .

وبنهاية القرن التاسع عشر فان البعثات التجارية وافقت بل وأحيانا
كانت تطالب بتدخل الحكومة . وقد شجع هذا على حماية الاستثمارات
وأكدت على استقرار السلام والعلاقات ولكنها أحيانا كانت تشكل ضربا
من المعونات الحكومية . وبدون الدعم السياسى ، فان بقاء الاحتكارات
يصبح أمرا صعبا أو مكلفا . ان لدى الحكومات الكثير لتصرفه على
الخدمات التجارية ، ولكنها غالبا ما تحصل على امتيازات مربحة .
وكثيرا ما كلفت المستعمرات دافعى الضرائب أكثر مما اسفرت عن مكاسب
لهم . وعلى أى الأحوال فان المشروع الرابح لمستعمرة ما لابد أن يؤثر

مباشرة على الاقتصاد الشامل للبلد الأم . وقليل من المستعمرات ما قد
شيد لأغراض انسانية ، ولكن الفائدة التى تعود على الشعب حتى من
هذه المستعمرات لا يساوى قيامها بحال من الأحوال .

ولكل بعثة استكشافية رابحة كان هناك الكثيرون من المغامرين خسروا
الكثير أو افلسوا تماما . وفى كل مكان ، خاصة فى شمال افريقيا
فان رأس المال كان غير كاف تماما للمتطلبات ، وازداد اعتماد الحكومات
على مساندة رأس المال الخاص ، ثم اتجهت الى الاستثمارات
الحكومية . وفى القرن التاسع عشر — وهو عصر حرية التجارة —
فان أفريقيا من المحتمل انها نالت من رأس المال الحكومى أكثر مما حدث
فى قارات أخرى . وأصبحت المصالح الأوروبية فى أفريقيا مرتبطة ثم
معتمدة اعتمادا كليا على الحكومات .

١٣

المسيحية ونظرية داروين

انتشرت المسيحية فى كل أنحاء شمال أفريقيا ووادى النيل وأثيوبيا قبل ظهور الاسلام ، وسادت التعاليم القبطية فى الجزء الشرقى . وغزا العرب ساحل البحر المتوسط قبل القرن التاسع ، وانتشر المسلمون فى المجتمعات المسيحية الهامة خلال المائتى عام التالية . وظل أهالى وسط وأعالى النيل بما فى ذلك اثيوبيا يعتنقون المسيحية ، رغم انهم ظلوا بمعزل عن الكنيسة البيزنطية والرومانية .

وبدأ الاسلام يتقدم عبر وادى النيل خلال القرن الحادى عشر ، ولكن لم يتحقق له النصر الكامل فى الوادى حتى القرن السادس عشر . وظلت اثيوبيا مسيحية بسبب مساعدة البرتغال وعرقلة تقدم المسلمين عبر مرتفعات الحبشة . وحاول المسيحيون البرتغاليون أن يدخلوا الكاثوليكية الرومانية مرة أخرى الى أفريقيا . وبذلت جهود خاصة فى هذا المضمار فى سواحل السنغال وجامبيا ، وسواحل الذهب والعبيد، وساحل الكونغو والسواحل الأفريقية الشرقية — بيد أن الارساليات كانت تفتقر الى ما يكفيها من مساومة أو من خبرات تمكنها من تحقيق نتائج ملموسة . وبحلول عام ١٦٠٠ كانت جهود البرتغال الدينية قد أصبحت مقصورة على مجرد خدمة طائفة أوربية مختلطة ومبعثرة ومحدودة العدد فى انجولا وموزمبيق ، بالاضافة الى جهد طفيف ظهر أثره فى جنوبى نهر جامبيا . ولم يضطلع بعد البرتغاليين احد من المسيحيين ببذل مزيد من الجهود لمدة قرنين من الزمان تقريبا ، وان كان المستوطنون الهولنديون قد جلبوا معهم مذهب الكالفينية الى جنوب أفريقيا .

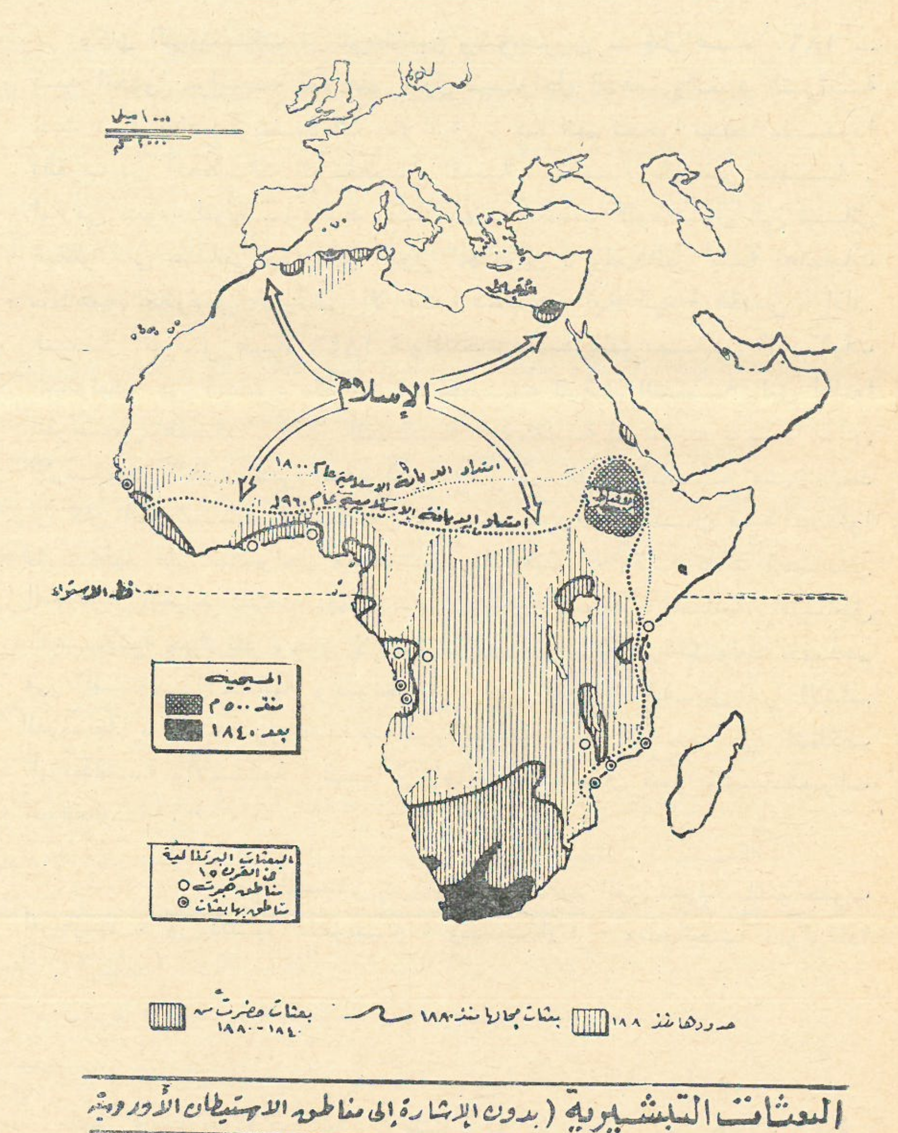
وقد بدأت حركة التبشير الانجيلى الحديث على يد (آباء مورافيا)، وعلى يد جمعية لندن التبشيرية . وقد قام كلاهما برغم معارضة البوير المتزايدة ، بالتبشير بين قبائل الهوتنتوت فى (مستعمرة التاج) خلال

الحروب النابوليونية ، كما أن (جماعات وزلى) (*) وجمعية التبشير الكنسية بسطت جهودها بعد عام ١٨٠٤ لتشمل قبائل البانتو على تخوم مستعمرة الكاب ولتشمل رقيق جزر الهند الغربية الذين استوطنوا فى سيراليون — الا انه لم يتحقق نجاح يذكر سواء بين قبائل المنطقة المدارية أو منطقة السافانا حتى عام ١٨٢٨ .

وكان البروتستانت من بريطانيين وسويسريين — قبل عام ١٨٦٠ — قد اتخذوا مواضع لهم على طول سواحل الذهب والعبيد الشرقية حيث تركز التجار منذ الغاء الرق . كما أنهم نجحوا نجاحا محدودا بالقرب من المحطات البرتغالية القديمة الواقعة على نهر جامبيا . أما فى جنوب أفريقيا فقد بذلت جهود خاصة للوصول الى قبائل البانتو على جانبى مناطق البوير المهاجرين . ولم تظهر اية اهتمامات بالمذهب الكاثوليكى الرومانى الا عندما دخل (آباء الروح القدس) اقليم السنغال الفرنسى عام ١٨٤٦ ، وافتتحت بعد ذلك بعامين الارساليات الكاثوليكية فى الجابون بالقرب من محطات الرقيق القديمة التى أقامها الفرنسيون هناك — لكن الكنيسة الرومانية لم تنشىء مزيدا من الارساليات الأخرى حتى العقد السادس من القرن التاسع عشر ، بعد ان كان البروتستانت البريطانيون والسويسريون والألمان قد بدأوا نشاطهم على سواحل وسط شرقى أفريقيا . وقد بدأت الجماعتان الكنسيتان بعد ذلك عملهما بحماسة زائدة ، باستثناء المناطق الاسلامية حيث ندر وجود الارساليات بها . وقد ركز الكاثوليك جهودهم فى المناطق الألمانية والكونغولية ، كما انفردوا بالعمل فى الاقاليم الفرنسية . وقد برز نشاط البروتستانت بصفة خاصة فى الممتلكات البريطانية والألمانية ، كما أن اهتمامهم كان كبيرا بالمستعمرات البرتغالية .

وقد بلغ النفوذ المسيحى ذروته فى الأقاليم التى تعرف باسم جنوب أفريقيا ، وروديسيا الجنوبية ، ونياسالاند ، وتنجانيقا ، وأوغندا

(*) Wesleyans هم اتباع « تشارلز وزلى » قائد الحركة الاصلاحية. (المترجم)



البعثات التبشيرية (بدون الإشارة إلى مناطق الاستيطان الأوروبية

وجنوب شرقى نيجيريا ، وليبيريا وساحل غانا . كما بذلت جهود ضخمة فى حوض نهر الكونغو خاصة بعد عام ١٨٩٤ كلها كانت مبعثرة فى مساحات شاسعة بحيث لم تحقق أثرا واضحا . وقد كان للاتجاهات السياسية فى كل منطقة أثرها على البعثات التبشيرية من حيث طابعها ومن حيث تقسيمها ونوعيتها . ولم يكن هذا الأثر ميالا بشكل واضح وصريح لكنيسة واحدة بعينها متعاطفا معها الا فى القطاعات الفرنسية من اقليم السافانا فى غرب أفريقيا .

وغالبا ما أضحت الكنائس المسيحية مظاهر معمارية متميزة وسائدة فى ريف أفريقيا ، وكثيرا ما فاق عدد أعضاء الارساليات فى منطقة واحدة عدد الموظفين أو التجار الأوربيين وان كانت هذه الظاهرة قد تضاءلت فى القرن العشرين . وكانت صلات أفراد الارساليات — فى العادة — أوثق بجماهير الشعب الأفريقى ، وكانت هيئات الارساليات لا تميل — الا فيما ندر — لتبديل أفرادها بغيرهم .

واتجهت الجماعات التبشيرية — خلال القرن التاسع عشر — الى أن تنقسم بين جنباتها عائلات وأطفال أوربيين يفوق عددهم ما كانت تضمه المؤسسات الحكومية الرسمية .

وفى نفس الوقت أوحى المبشرون الى كثيرين من الأفريقيين بأنهم مدافعون بل وممثلون للاستعمار السياسى والثقافى . كما أن مجرد انتماء رجال الكنيسة للجنس الأبيض — فضلا عن تحدثهم وتصرفهم كما يتحدث ويتصرف الأوربيون — كان فى حد ذاته دليلا واضحا لا شبهة فيه على الارتباط بالحكم الأجنبى . وكانت البرامج التعليمية لرجال الكنيسة تشمل عامة لغة أوربية — وهى لغة الدولة الحاكمة بصفة عامة — كما ان مناهج الدراسة كانت تخضع بشكل مطرد لتوجيه الحكومة . كما تتلقى المساعدات فى تمويلها .

وكان تنظيم الكنائس يتمشى مع الحدود السياسية الأوربية بأكثر مما يتمشى مع الحدود القبلية والثقافية التقليديه . ولم يقتصر الأمر على قبول المبشرين لسلطة المديرين الاستعماريين (مديرى المستعمرات) بل المعروف انهم غالبا ما كانوا يؤثرون فى رسم السياسة الاستعمارية ذاتها .

وفضلا عن ذلك كان للمبشر بحكم الضرورة ، ومهما يكن تواضعه ، مستوى معيشى وبعض الممتلكات المادية ، بحيث كانت موضع ملاحظة عدد من الناس يفوق من كان يمكن له ان يؤثر فيهم روحيا . وكان لابد أن يحدث الالتزام بالدعوة لدين جديد أصداء واسعة فى المجتمع الأفريقى بأسره . وحتى لو كان المبشر يؤثر ضرب المثل والقدوة الحسنة واداء الخدمة على مجرد التبشير المباشر ، فقد كان لزاما ان ينطوى سلوكه على نوع من تأكيد الذات والسلطة التى كثيرا ما يسهل على الحضارات الغربية تأويلها على انها ضرب من الغطرسة أو ضرب من التصرف الذى ينم عن الاستعلاء .

وقد كان ثمة عقبات عديدة تحتم على المسيحيه أن تجتازها وتتخطاها : فقد كان المسيح من الجنس الأبيض ، وكان القديسون بيض البشرة والمبشرون كذلك من ذوى البشرة البيضاء . ولم تكن المسيحية لترضى بالاندماج أو التوافق مع المعتقدات المحلية ، بل كانت تتطلب القبول والاعتناق التام المطلق لمعتقداتها . وكانت المسيحية تتطلب كذلك الانفصال عن الأديان التقليدية ، ولذلك كثيرا ما اضطر من يعتنق المسيحية الى ان ينعزل عن أسرته وقبيلته وعن النظام الاقتصادى بسبب الارتباط التام بين هذا كله وبين المعتقدات الثقافية التقليدية . ومن ثم كانت هناك نزعة متأصلة تتطلب احداث تغيير ثقافى كجزء من اعتناق الدين المسيحى .

وكان هذا الارتباط بين الثقافة الأوربية والدين المسيحى امرا مفهوما تماما فى اطار الاتجاهات الليبرالية التى سادت القرن التاسع عشر . فالثقافة الأوربية التى انتعشت المسيحية فى أحضانها وازدهرت منذ أمد طويل — قدمت فيما يبدو معايير اخلاقية وفضائل مادية ومعنوية غير محدودة قصرت أى حضارة اخرى عن اخراج أو تقديم مثلها . فالثقافة الأوربية هى الوحيدة فيما يبدو التى حاربت البدع والخرافات والجهل ، كما انها لا ترى الاعتماد المطلق على العمل اليدوى ، فضلا عن انها لا تغير ظاهرة التبعية الجماعية ، وكلها من الأمور التى تحول بين الانسان وبين تفجير واطلاق طاقاته الروحية المطلقة . وكانت لفات

الثقافة الأوربية تحتوى على المعارف وعلى النظرة العميقة التى اعتقد الأوربيون ، وكثيرون من المبشرين انها فريدة من نوعها فى العالم . ولذلك بدا ان الأخذ بالثقافة الأوربية ليس هو السبيل الأيسر فحسب، بل هو السبيل الذى لا سبيل غيره لاعتناق المسيحية ولخلاص النفوس الأفريقية .

ولا شك فى أن وجود الطوائف المتعددة التى تؤكد وتبرز الاختلاف فى جوانب الفكر المسيحى كان من شأنه أن يخلق الاضطراب والازدواج حتى فى أكثر المجتمعات رقيا وتمدنا . أما أثر هذا التباين فى مجتمع له ثقافته الغربية فسيكون أشد خطرا . وكانت ثمة نزعة لابراز جوانب خاصة ، إما لأنها مميزة لطائفة من الطوائف ، وإما لما لها من تأثير فى الناس . فنزعة الشك بل والايمان المزعزع قد تحل محل الاعتناق الحقيقى الجاد لمبادىء الدين ومن ثم يظهر ميل دائم للربط بين الطوائف العديدة وبين الطبقات الاجتماعية التقليدية أو بين هذه الطوائف وبين الانتماءات السياسية .

واحيانا ما تمخض هذا التنافس الطائفى عن الشجار فيما بين تلك الطوائف ، وكان نصيب الأفريقى من هذه المعارك اما الاغفال واما الاستغلال ، بيد أن العاقبة المألوفة لمثل هذه المنازعات تمثلت فى أنه لم تتمكن كنيسة واحدة من الكنائس المشتركة فى النزاع من تحقيق مجتمع مستقر لها يؤمها ، أو تحقيق برنامج قوى فعال أو تدبير ما يكفيها من المال للنهوض برسالتها .

ولقد كان هنالك فى ربوع أفريقيا مبشرون يعملون بدوافع مخلصة ، لكنهم قوبلوا بالرفض والنبذ من قبل الكنائس المستتبة ، ومنهم من كان يؤثر العمل فى منطقة لا تخدمها جماعة من الجماعات النظامية . وكان هؤلاء المبشرون يعملون بجهد ذاتى محصن ، وقد بلغ الفقر ببعضهم أحيانا حدا حال بينهم وبين تقديم خدمات ذات أثر ، على أن ابرز ما كانوا يفتقرون اليه عادة هو ذلك الاتصال بالفكر والثقافة والطب والتعليم سواء فى أفريقيا أو فى أوربا .

وقليل من هؤلاء المبشرين — الذين كانوا لا ينتمون لهيئة بذاتها — من كان قد تمرد على أوربا المسيحية لكن كان يعوزهم المال والمعرفة

اللازمة لهم ليحققوا أى اثر يذكر . بيد أن عددا قليلا من هؤلاء الأفراد — — المنفردين بجهودهم — كانوا من ناحية أخرى من الذين أسهموا فى العمل وامتازوا بالنبوغ والتأثير .

وفى نفس الوقت كانت الارساليات البروتستانتية والكاثوليكية رائدة على درجة عظيمة من حيث ادخال التعليم وادخال قدر من التكنولوجيا والاحساس بالشخصية القومية جنوبى الصحراء . فلقد توافر لكل لغة أفريقية كبرى — بفضل هذه الارساليات — نظام الكتابة . ويكاد يكون ذلك لأول مرة — ولما كانت هذه الارساليات يعوزها المال كما أعوزها المعلمون ، فقلما تجاوز نشاطها التعليمى أكثر من ٥٪ من السكان الذكور . ورغم ذلك فقد سبقت مدارس الارساليات اى برامج حكومية ، وازداد سبقها هذا فى بعض الأحيان ما يناهز مائة عام وقد طرأت تجديدات مماثلة فى ميادين تعليم اللغات الأوربية والمهارات الأساسية والموضوعات العلمية ، وان كانت معظم الارساليات قد نزعت الى عهد حديث نسبيا الى أن يكون تركيزها على موضوعات ليست عملية بالمعنى الكامل مثل الأدب المسيحى والثقافة الأوربية . لكن يجدر أن نذكر أن التركيز على الموضوعات الكلاسيكية (التقليدية) أكثر من الموضوعات التطبيقية — كان ظاهرة واضحة فى أوربا ذاتها وفى مناهج الارساليات التى تتمتع برعاية الحكومات ، ومن ثم فان أساس هذا المدخل كان يكمن فى الاتجاهات الأوربية العامة أكثر منه فى سياسة الكنيسة .

ولقد تجلت المنافسة الكبرى للمسيحيه فى الزحف الاسلامى المتجدد ، فقد اضطلع المسلمون فى بعض الأحيان بتنظيم وايفاد البعثات التبشيرية التى تضم خبراء فى الطب ، بل وفى الصناعة ، فى محاكاة مباشرة للأساليب المسيحية . بيد أن التأثير كان يفد عادة من الجيران أو من الأسر القريبة والتى كانت قد انطبعت بالمؤثرات الوافدة عليها من اقليم السفانا . وكان التركيز دائما ينصب على أن المبشرين ، والزعماء ، أو الوكلاء الذين يحملون القرآن كانوا من الأفريقيين أنفسهم ، كما تكرر الزعم بأن الاسلام دين أفريقى يتلاءم مع المجتمع الأفريقى بشكل

خاص . ولم يكن المسلمون يطلبون الكثير ، فقد سمحوا باستمرار نظام تعدد الزوجات ، واستمرار التقاليد والشعائر القبلية ، واستمرار التركيب العائلى التقليدى ، كما أتيحت الفرصة ازاء ذلك لازدياد ملحوظ فى عدد أفراد القبيلة ، كما حمل الاسلام معه نظاما للكتابة ، وقدرا عظيما من الأدب والمؤلفات وشريعة تلائم المجتمعات الصغيرة والكبيرة ، وكلها كتبت بالطبع باللغة العربية وكانت العقيدة بحكم طبيعتها ، تكفل عن ثقة خلاص النفوس مثلما تكفل استمرار التكيف مع المجتمع . وكانت فلسفة الاسلام جازمة كما أنه من السهل جدا أن تستوعب العقول ، ومن ثم فهى تقتضى قدرا أقل من الفكر النشط وقدرا اقل من الاعتقاد فى الفروض المعقدة مما تقتضيه فلسفة المسيحية التى تقوم على فكرة الثالوث . ولقد (انضوى) تحت لواء الاسلام فى أفريقيا كلها ، منذ عام (١٨٠٠) ضعف العدد الذى انضوى تحت الطوائف الدينية الأوربية .

كان هذا الزحف فى جبهة ملامسة وملاحقة لجنوبى اقليم السودان التى تغلب عليها ظاهرة الحشائش اى جنوبى الصحراء مباشرة . ومما لا شك فيه أن نجاح الاسلام ساعد عليه ما أتصف به من وحدة وتماسك ، وما اتجه اليه من التركيز على اعتناق الجماعات والمناطق الكاملة للدين الجديد اكثر من التركيز على الافراد المشتتين فى أماكن متفرقة .

ومنذ اواخر القرن التاسع عشر بدأ الأفريقيون يواجهون الأوربيين الذين لم يفدوا للتبشير أو للتجارة او للحكم ، بل لمجرد العيش بين ظهرانيهم ولدراسة الشعوب نفسها . وفى البداية كان هؤلاء من علماء الأجناس البشرية والانثروبولوجيين ممن يمثلون الرعيل الأول من العلماء أو هم يمثلون طليعة علمية ينظر اليها فى المفهوم الأوربى العام بأنها شديدة الارتباط بالسرعة المتزايدة فى غزو القارة واقتسامها بين القوى الاستعمارية .

وقد طرح تشارلز دارون فى كتابه أصل الأنواع الذى ألفه عام ١٨٥٩ ، نظريته فى علم الاحياء التى استندت الى ما قام به من بحوث ميدانية فى المحيط الهادى ، ومؤداها ان الكائنات الحية تنجب سلالات أكثر مما تستطيع الطبيعة اعالته ، ولذلك فثمة صراع وتنافس مستمر للحصول على

الغذاء ، ولا يخرج ظافرا من هذه المعركة الا الأكثر تلاؤما مع البيئـة (البقاء للاصلح) . اما الأقل صلاحية فلا بقاء له . واذا ما حدثت طفرة سلالية تحسن من قدرة النوع على البقاء فان هذا العنصر سوف يعيش وينقل خاصية الطفرة الى ذريته وسلالته . وهذه السلالات بدروها تصبح أقدر على المنافسة من سابقتها من نفس الأنواع ثم تحل بعد ذلك محلها . ولم تكن هذه الفكرة التى تقول بمبدأ (التطور) جديدة تماما على المؤلفات العلميـة ، الا أن (دارون) كان أول من يخضـع هـذه الفكرة للتجربة بمشاهد'ته الميدانية .

وفى عام ١٩٧١ طبق (دارون) هذه النظرية على الكائنات البشرية فى كتابه « أصـل الانســان » ، ولم تكن النظريه هـذه المرة مبنية على بحث ميدانى محـدد . لكن الكتاب أثار عاصفة من الجدل الذى خلف أصـداء على الفكر الدينى والفكر الدنيوى ، وظهر اهتمام غير معهود بين الناس ، تمخض عن التغيرات التى طرأت على الفكر الدنيوى ، ثم تطور الى كيان من الافكار الاجتماعية والمبادىء السياسية التى تختلف اختلافا تاما عن اطروحة دارون العامية . وكانت لهذه الاراء الذائعة الانتشار آثار فى أفريقيا أعمق بكثير من آثار المنازعات الدينية المجردة نسبيا حول قضية التطور .

وانتقل الكتاب والساسة القوميون المأخذ بالغرض القائل بأن نظرية دارون تنطبق على الجماعات الثقافية أكثر مما تنطبق على النماذج المنفصلة وهم — اى الكتاب والساسة — اذا اعتبروا الأمة والعنصر هما الوحدات الأساسية فى الصراع من أجل البناء — فقد حولوا الأطروحة العلمية الى نظرية تقر بمبدأ التنافس بين الحكومات حتى الى درجة الحرب ، والواقع أن بعض الكتـاب ذائعى الصيت بلغ بهم الأمر الى اعتبـار أن النصر فى الحرب هو اقوى دليل على التفوق القومى .

واستنادا الى نفس المنطق زعم هؤلاء الساسـة والكتـاب — ممن يوصفون بأنهم (أتباع دارون الاجتماعيون) — بأنه ليس من الحـق فحسب ، بل ومن الواجب على الأوربيين (المتفوقين) أن يحتلوا ويسيطروا على البـلاد الأوربيـة . فالرجـل الأبيض يحتـاج الى موارد أفريقيـا وآسيا من اجل البقاء . واذا ما استطاع النفوذ بهذه الموارد فمن حقـه أن يحتفظ بها . غير أن معظم أتباع دارون الاجتماعيين قد كتبوا آراءهم

من زاوية أمة واحـدة بعينها أو من زاوية جماعـة من الأمم ، حتى أن الجماهير التى اقتفت اثرهم نزعت الى الاعتقاد بأن التنافس انما مداره بين الأمم الأوربية ، وأنه موجه ضد العناصر والأجناس الأجنبية .

ولم تكن مثل هذه الأفكار تتفق بطبيعة الحال ، مع المثل والمبادىء المسيحية ، كما انها كانت موضع اعتراض الليبراليين فى القرن التاسـع عشر ممن كانوا يؤمنون بحرية الفرد وبالمساواة العامة . ورغم ذلك فقد انقسم الليبراليون فى آرائهم ، فبعضهم كان يؤكد عالمية المثـل الاخلاقية وشموليتها كى يؤكد مبدأ تكافؤ الفرص للجميع ، وبعضهم كان يؤكد مبدأ عدم التدخل وترك الأمور تجرى فى أعنتها ، وقالوا بضرورة عدم التدخل فى تفاعل القوى والعوامل الطبيعية . ولما كان (الصراع من اجل البقاء) قانونا طبيعيا — فان التنافس بين الأمم والأجناس أضحى أمرا مطلوبا وضروريا ، وحينئذ أضحى مذهب الليبراليه (أو الحريه) الاقتصادية — لفترة من الزمن — ذريعة تبرر وتفلسف مذهب الداروينية الاجتماعيـة .

وقد عارض هؤلاء جميعا اتباع المذهب الانسانى من المسيحيين وكذلك المفكرون الليبراليون ، وكان تأثير كليهما قويا وفعالا فى الجماهير الناخبة وفى خريجى الجامعـات الذين أضـحوا فيما بعد صـناع السـياسة الاستعمارية .

ولذلك كانت الاتجاهات والميول فى أوربا فى نهاية القرن التاسع عشر مزيجا من فلسفة التوسع القومية والفلسفة الانسانيه ، ولقد مكن هذا الدول الديموقراطية من أن تنتهج وبصدق السبل لتحقيق غايتين متناقضتين فى ظاهرهما : تحقيق الربح التجـارى والتوسـع السياسى من ناحية ، ثم تنفيذ برامج البعثـات التبشيرية من تعليم واعانة طبيـة من ناحيـة أخرى . وكان هذان الدافعان يؤثران ويلقيان استجابة من الناخبين فى أوربا الذين لم يكن فى مقدورهم أن يتبينوا الصعاب الكامنة فى المزج بين هاتين الفلسفتين .

وكان المثل الانسانى الأعلى ، بطبيعة الحال ، هو صبغ الشـعوب الافريقية بالصبغة الأوروبية ، ولم تكن هنالك بالطبع اية خطة لاستقلال

افريقيا ، لأن الجميع كانوا يفترضون أنه من الضرورى مضى عدة قرون من (التطور) قبل هذه المرحلة ، ففكرة التطور نفسها كانت قد أصبحت مفهوما ثقافيا أكثر من النظرية البيولوجية التى تناولها دارون من قبل .

وقد تمخض عن العرضيات العملية التى جاء بها دارون ، وكذلك عن التطور اللاحق لفلسفه دارون الاجتماعية ، اتجاهان ثقافيان ، فالعلماء المنزهون قاموا بدراسة ومشاهدة الأفريقيين على الطبيعه حتى يصلوا الى دليل يثبت او يدحض نظرية دارون عن التطور البشرى ، وبعبارة مجملة فقد كانت هذه المدرسة رائدة لعلم الانثروبولوجيا الطبيعيه . اما الجماعة الأخرى التى كانت الثقافة مدار ومحور اهتمامها فقد راحت تبحث فى المجتمعات الأفريقية ، اما لتثبت عمق الجذور والأصول الثقافية ، أو لتدلل على انحطاط بالنسبة للمبادىء والمفهومات الأوربيــة . وقد أرست هذه البحوث والدراسات أسس علم الانثروبولوجيا الاجتماعى والثقافى .

على أنه فى كلتا المدرستين لعلم الانثروبولوجيا — فى بدايه عهده — كانت الأساليب التطبيقية اساليب تجريبيه تخضع للخطأ والصواب بحكم الضرورة . وعلى سبيل المثال نجد أن أوجه الشبه الشكلية فى الألفاظ المتشابهة ، الى جانب الأفكار المعمارية والعادات الاجتماعية ، كانت تلقى من التقدير والاهتمام أكثر مما تحظى به فى الوقت الحاضر .

وعلى المدى الطويل اضحى لنظرية دارون أو لفلسفته الاجتماعيــة والعلمية نفس التأثير ، سواء فى المناهج والمفهومات الطبيعية ، أو فى المناهج الاجتماعية والثقافية ، وان كان علماء الانثروبولوجيا قد اختلفوا اختلافا عظيما فى ميولهم ، وفى النتائج التى استخلصوها أو توصلوا اليها. ويتعين توخى أقصى درجات الحذر عند استخدام البحوث الأولى ، حيث أن أساليبها تختلف وتتباين تباينا عظيما ، كما أن تأويلاتها تمثل مدرستين متميزتين مسيطرتين من الفكر الصارم . فهذا الرعيل الأول من الباحثين الميدانيين والمفكرين قد اضطلع بمهمة حيوية بالغة الأهمية من حيث أنهم وضعوا الأفكار والأساليب موضع التجربة ، ثم سجلوا معلومات أولية اختفت من أفريقيا منذ ذلك الحين ، كما انهم حققوا اهتماما علميا عاما سواء بالشعوب الأفريقية أو بين الشعوب الأفريقية .

وفى القرن العشرين ، نجد أن بحوثهم تلك التى خلت من الفروض المسبقة الأولى ومن الميول والأهواء المعروفه — قد ساعدت مساعدة عظمى فى وضع سياسة الحكومات ، وفى عادة تقييم المهام المنوطة بالارساليات ، وفى تطوير معارف ناضجة فى العديد من ميادين العلم والبحث .

وبعد الحرب العالمية الأولى — حين أضحى علم الانثروبولوجيا أقرب الى الموضوعية والصدق — ظهر عدد من المشكلات العميقه التى لم تكن قد عرفت من قبل ، كما انها كانت تستعصى على الفهم . ومن جملة هذه المشكلات ظاهرة أنهيار السلطة القبلية والتقاليد القبلية ، أى ظاهرة التفكك القبلى detribalization ، ثم ظاهرة امتزاج أو اختلاط احدى الثقافات الافريقية بالمؤثرات الأوربية (أى ظاهره التأقلم والتكيف الثقافى acculturation) وظهور المجتمعات الحضرية والصناعيه .

وقد أضحت كل ظاهرة من تلك الظواهر فى أفريقيا الحديثة عاملا تاريخيا هاما ورئيسيا ، وكان لكل منها تأثيره الظاهر فى التطورات السياسية والاجتماعية .

ولقد وجهت نظرية (دارون) — وكذلك المسيحية — الموقف الليبرالى القديم تجاه أفريقيا ، وجهة جديدة . وكانت الاتجاهات الثلاثة تتناقض فيما بينها فى جوانب كثيرة ، على أن هذه الاتجاهات امتزجت فى المفهومات العامة وفى عقول الناس ، فالاهتمام بأفريقيا ازداد وتعاظم الى حد كبير ، كما ظهرت المطالبة المتزايدة بالتدخل الاوربى المباشر فى أفريقيا جنوبى الصحراء الكبرى .

١٤

التوسع فى الأقاليم الاستوائية (١)

كانت ظواهر الهجرة والتفاعل والثورة الثقافية والتجديد فى الاتجاهات السياسية — خلال أواخر القرن التاسع عشر — أوضح ما يكون فى شرق أفريقيا ووسطها عنها فى غرب القارة أو جنوبها . فجماعات النجونى Ngoni التى تمثل جزءا متمردا من قبائل الزولو ، استقرت عام ١٨٣٥ على شواطىء بحيرة نياسا ، بعد شق طريقها بالقوة من اقليم (ناتال) عبر نهر الزمبيزى نحو المناطق الداخلية فى شرق أفريقيا . وقد أدى البرنامج الطموح الذى وضعه السلطان سيد سعيد ، والذى نقل عاصمته من عمان الى زنجبار ، الى تطور هائل فى زراعه القرنفل والسكر على طول الساحل .

وبحلول العقد الرابع من القرن الثامن عشر كان الطلب على العمال الأرقاء (عمال السخرة) قد دفع بالتجار العربَ الى السيطرة على المناطق الداخلية حتى بحيرة تنجانيقا وحوض الكونغو الأعلى . وكان هؤلاء التجار الى جانب بحثهم عن الرقيق ، يبحثون عن العاج الذى تلهف الأوربيون على شرائه . وفى مقابل ذلك كان العرب يبتاعون بنادق أوربية رخيصة وبعض المنتجات الصناعية ، وكانوا ، أى العرب قبل عام ١٨٥٠ ، قد اقاموا وحكموا سلسلة من المواقع التجارية الدائمه الممتدة من زنجبار الى نهر الكونغو . وقد ساعدت بعض قبائل البانتو المتحالفة مع العرب فى حماية طريق التجارة الواضحة المعالم التى كانت تربط بين المراكز الاسلامية .

وفى زنجبار انشأ البريطانيون قنصلية من أجل فرض الحظر على تجارة الرقيق .

كما أصبح القنصل الانجليزى حاميا للسفن الانجليزيه التى تتبع السلع المصنوعة للتجار العرب . وبعد عام ١٨٧٦ ازدادت المنافسة

الصناعة الألمانية وضوحا على طول أسواق الساحل الشرقى .

وبدأت الجمعية الدولية التابعة للملك ليوبولد الثانى فى التغلغل داخل نهر الكونغو . ولكن سرعان ما انتقلت قاعدة عملياتها من زنجبار الى المدخل الواقع على ساحل المحيط الأطلنطى . وقد سيطرت على المنطقة المصالح والأعمال الخاصة ، ولم تقدم الحكومات الأوربية أكثر من خدمات قنصلية واسعة النطاق حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر .

وقبل حدوث اى توسع سياسى أو اقليمى أوربى — كانت هجرات قبائل النجونى التى أشاعت الدمار ، وكذلك حملات جلب الرقيق التى لا تنقطع ، فضلا عن الفكرة المستحدثة عن الحرب الشاملة بالأسلحة الحديثة التى درب العرب قبائل البانتو الحليفة على استخدامها — كان لهذا كله آثاره فى قلب مناطق شرق أفريقيا رأسا على عقب . اما المبشرون البريطانيون ، والفرنسيون والألمان الذين دخلوا منطقة البحيرات العظمى من أجل التصدى لهذه المؤثرات ، فقد عملوا فى تعاون اما مع التجار الأحرار (أى الذين يعملون لحسابهم الخاص) واما مع الافريقيين الموالين لهم . ولم يلجأ هؤلاء المبشرون الى حكوماتهم طلبا للمساعدة المباشرة الا فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر .

اما الرعيل الأول من الرجال البيض الذين توغلوا فى داخل الأقاليم الاستوائية فكانوا من العلماء الذين يبحثون عن منابع نهر النيل . فقد قام ج. ه سبيك سواء مع السير ريتشارد بيرتون أو مع ج.أ. جرانت فى بعض الأحيان — برحلات ثلاث من زنجبار الى بحيرتى تنجانيقا وفيكتوريا فيما بين عام ١٨٥٧ ، ١٨٦٣ حيث اكتشفا طرق تجارة الرقيق كما اكتشفا مملكة البوجندا المتطورة .

وفى أثر الرحلة الرائدة التى قام بها الدكتور دافيد ليفنجستون عبر القارة عام ١٨٥٦ ازداد الاهتمام العام بالاقاليم الداخلية . وبعد ذلك بسنوات ثلاث وصل الى نهر شيرى ، واكتشف بحيرة (نياسا) واقام اول بعثة تبشيرية فى داخل وسط افريقيا . وقد تبين له أن تجار الرقيق من أنصاف البرتغاليين قد توغلوا فى المنطقة قبل وصوله اليها ، وكان

العرب قد فتحوا فى الاونــة الأخيرة طريقا للرقيق من بحيرة نياســا الى زنجبار (*) »

اعتقد لفنجستون أن باخــرته الصغيرة فى البحيرة ســوف تتيــح لارسالية مثيرة عسكرية وتجارية توصد الباب امام تجار الرقيق — بيد أن العرب الذين افلحوا فى تحويل قبيلة (الياو) Yao الزراعيه الى حليف مدجج بالسلاح يمارس أعمــال السلب والنهب — كانوا يتصفون بالعناد على نحو غير منتظر ، وقد بلغت خشية القبائل الأخرى من تجــار الرقيق حدا دفعهم الى عدم الاتصال بالمبشرين ، حتى أن هؤلاء المبشرين اضطروا فى واقــع الأمر الى الكف عن نشــاطهم ، ولم تكن البعثة التبشيرية فى موقع صحى ، ولم يكن القارب التجارى الصغير يصلح للملاحة .

ومضت اثنتا عشرة سنة قبل أن تعود الارساليات الاسكتلندية للظهور مرة اخرى فى اقليم (شيرى — نياسا) ، ثم مضت ثلاث سنوات أخرى حين نظمت شبكة البحيرات الأفريقية لخدمة المواصلات والتجارة . ولم يكن النظام النهرى لشيرى والزمبيزى الصالح للملاحه قد اكتشف حتى عام ١٨٩٩ ، ومن ثم فقد اعتمدت المواصلات على اتصال برى عبر كيوليمان فى اقليم موزمبيق البرتغالى . وكان الهدوء رهنا بالاتفاق مــع المشــايخ العرب فى الجزء الأعلى من البحيرة ، وقد افتتحت الشركة طريقا الى بحيرة تنجانيقا حيث سيرت باخرة صغيرة .

على أن هــذا التوســع حفز التجــار العرب على خرق الهدنة التى التزموا بها عام ١٨٨٧ ، وكانت الخدمات القنصلية البريطانيه قد امتدت لتشمل منطقة نياسا قبل ذلك بأربع ســنوات — لكن البرتغاليين بداوا يطالبون بالرسوم الجمركية ، والتراخيص والاعتراف بسيادتهم على المنطقة.

(*) انصاف البرتغاليين — يقصد بهم السلالة الناتجة من التزاوج بين البرتغاليين والوطنيين الافريقيين — هــذا ولا يخفى على القارىء أن تجارة الرقيق يرجع ازدهارها الى ما أشــار اليــه المؤلف — ضمنا — من رواج الأسلحة النارية التى زود بها الأوربيون العرب ، فتحميل العرب وزر هذه التجارة ظلم يتنافى مع الحقيقة (المترجم) .

وفى النهاية أستطاع (اللورد سولسبرى) رئيس الوزراء البريطانى ان يقنع حكومة لشبونة بالكف عن هذه المزاعم ومنح حق المرور الحر ، لكن (شركة البحيرات الأفريقية) لم تتلق أية مساعدة رسمية فى حملتها العسكرية الباهظة التكاليف التى جردتها ضد تجار الرقيق .

وقد تولى الكابتن فردريك ديلترى لوجارد — فى أثناء اجازة حصل عليها من الجيش الهندى — قيادة الدفاع الذى اضطلعت به الشركة عن مراكز التبشير وعن المراكز التجارية خــلال عامى ١٨٨٨ ، ١٨٨٩ . واذ أحس (لوجارد) بالامتعاض من تدخل البرتغاليين ، وازاء الفوضى الضاربة اطنابها — عاد أدراجه الى انجلترا من أجل بعث الاهتمام الرسمى والاهتمام الخــاص بوسط أفريقيا . وقبل أن يصــل (لوجارد) الى لندن كان هارى هاملتون جونستون قــد غادرها ليتولى العمل فى قنصلية نياسالاند . وكان جونستون قد حظى بالدعم المالى ، كما كانت له مطامع اقليمية توسعية .

وقد جمعت بين كل من (لوجارد) و (جونستون) صــفات الادراك المنطلق فى الخيال والدافع الانسانى ، والقدرة العملية ، والنزاهــة العلمية ، وهى شمائل لم تكن معروفة لدى أسلافهما من رجــال التجــارة والادارة الأوربيين .

كان (لوجارد) جنديا شجاعا محبا للنظام يتمتع بعبقرية ونبوغ فى التنظيم الادارى ، وبقدرة نادرة على الاحساس الانسانى . وكان قدومه لأفريقيا أول مرة من أجل مكافحة تجارة الرقيق وهو لا يزال فى دور النقاهه من مضاعفات المعارك الحربية التى خاضها ومن المناخ فى بورما .

أما (جونستون) فقد كانت شمائله راسخة فى الاعتقاد والايمان المطلق بأن التطور العلمى — وهو ميدان بلغ فيه درجه التمرس الأكاديمى وحظى بالصيت العلمى الذائــع — لا بد وأن يتوج بنشر المبــادىء (الاخلاقية) المسيحية بين الشعوب المتخلفة .

لكن هــذه النزعــة العقلانية عند جونستون كانت تخفف من غلوانها دماثته مع من هم دونه مرتبة ، وكذلك احترامه وتقديره لمن هم يكبرونه سنا ، وامتزج هذ كله بحس مرهف وميل للفكاهة والتبسيط مع شىء من الضعف نحو المبالغات فى الأمور .

وإذا كان جونستون رحالة عنيدا ومشاهدا لماحا ، فقد كتب طوال حياته بثقة مطلقة ودون تهيب أو وجل ، عن المجتمع الافريقي ، والسياسات الأفريقية ، وعن السياسات الاستعمارية ، وعن التطور الثقافي والتاريخ الطبيعي . وبدا أن مواهب (جونستون) أشد ما تكون ملاءمة لسياسة اخضاع نياسالاند وتنظيمها ، ذلك الاقليم الذي أدرك (لوجارد) مشكلاته بجلاء ووضوح تام .

وقبيل نهاية عام ١٨٨٩ ، حصل جونستون على تفويض بتوزيع اتفاقية موحدة النموذج على قبائل البحيرة مع الاكتفاء باضافة المكان والزمان وخاتم رئيس القبيلة فحسب على هذا النموذج . هذا على أن جونستون باعلانه نظام الحماية السياسية رسميا ، أوصد الباب أمام قوة الاحتلال البرتغالي . لكن التطورات اللاحقة في هذا الاتجاه تأخرت بسبب التركيز على تجريد حملة لتوقيع اتفاقيات في حوض الكونغو الأعلى ، وقد تبين (جونستون) أن (الجمعية الدولية) سبق لها أن وصلت الى المنطقة ، لكن الاتفاقيات المتفرقة التي عقدها في أثناء حملته هذه كفلت لبريطانيا حق (الشفعة) — أي الأولوية في احتلال — على المنطقة المعروفة حاليا باسم روديسيا الشمالية .

وقد تأكدت المعاهدات والتصريحات التي عقدها جونستون في الاتفاقية الانجليزية البرتغالية عام ١٨٩١ ، فأصبح الساحل الغربي لبحيرة نياسا ومعظم وادي شيري محمية بريطانية في أفريقيا الوسطى . وكانت كل ما تسعى اليه بريطانيا هو أن تسبق ببساطة كل الأوربيين ، ولم يكن البرلمان البريطاني ينوي تمويل الاقليم أو توفير الحراسة له ، وقد وقعت هذه المسئوليات على كاهل (شركة البحيرات الأفريقية) المناضلة التي اعيد تنظيمها كفرع من شركة جنوب أفريقيا البريطانية (*) الوافرة الثراء التي كان يملكها سيسل رودس .

(*) وافق البرلمان البريطاني على المرسوم بتأسيس شركه جنوب افريقيا البريطانية في ٢٠ ابريل عام ١٨٨٩ ، ووقعت الملكة على المرسوم في ٢٩ اكتوبر ١٨٨٩ ، وذكر رودس أن هذا التاريخ يعتبر ميلاد مستعمرة جديدة تضاف الى التاج البريطاني. وكان محقا في ذلك. فقد كان للشركة دور حاسم في استعمار روديسيا والمناطق المجاورة (المترجم) .

وسرعان ما أصبحت الأرساليات تنبذ الاعتماد على المؤسسات التجارية الكبيرة ، على حين كان (رودس) يسعى للوصول الى الشمال كما كان يعمل لتصفية هذه الشركة الفرعية التي لا تدر عليه اي أرباح . وحصل (جونستون) على سلطات مندوب المحمية ، كما قدمت اعانة حكومية مباشرة للشركة حفزتها على الاستمرار في خدماتها غير التجارية .

وفي عام ١٨٩٣ تولت الحكومة المسئولية حيال أراضي الأرساليات كافة، بيد أن الحدود قد رسمت لتضم اقل قدر ممكن من الاقاليم وادنى حد ممكن من المسئولين ، في حين اضطلعت الشركه بالشطر الأكبر من هذا كله — ولذلك فقد تكونت منطقة (نياسا) عن قصد في صورة محمية مسيحية صغيرة مقطوعة الأطراف منفصلة انفصالا تاما عن المنطقة المجاورة الشاسعة التي أصبحت فيما بعد روديسيا الشمالية .

واستمرت عمليات تجارة الرقيق التي تدعمها السلطة العسكرية لقبيلة الياو Yao تبدد السكينة والهدوء وتهدد المواصلات ، كما كانت الدعاية العربية تقف حائلا منيعا يحول دون توغل الارساليات أو النفوذ الحكومي، اذ كانت الدعاية تقنع قبائل (النجوني) وغيرها اقناعا مؤثرا بأن الانجليز انما يسعون لجلب الرقيق ليؤكلوا في أوربا .

ولما كانت هذه الرواية مقيتة كل المقت لدى قبائل البانتو الملتزمة بتقاليدها في ضرورة الاحتفاظ بالرفات كاملا في الحياة الأخرى — فقد أظهرت أن الاسترقاق عند العرب هو أخف وأهون الضررين .

وجلب (جونستون) فترة من قبائل السيخ الهندية وشن سلسلة من الحملات الميدانية القصيرة والمؤثرة في نفس الوقت ، وتمكن في النهاية من اخضاع قبيلة (الياو) Yao ، واخضاع العرب في نهاية ١٨٩٥ تقريبا. ولقد عجل بهذه الهزيمة حينئذ ما ظهر من نفوذ لألمانيا في تنجانيقا وقوة البريطانيين في زنجبار نفسها بعد أن تم تقسيم الساحل عام ١٨٩٠ ، على ان نهاية تجارة الرقيق لم تتم الا بعد السيطرة على الخط الساحلي وعلى المصادر البرية الداخلية .

ولم تعترف كل القبائل بسلطة الحماية الا عام ١٩٠٤ ، ولم تستطع البعثات التبشيرية التغلب على الاعتقاد بأن الأوربيين يأكلون الرقيق

الا بعد اقرار سلطة الحماية فى هذا التاريخ . وقد حققت المسيحية تقدما سريعا خلال السنوات اللاحقة ، اما المحميه التى اعيدت تسميتها باسم (نياسالاند) عام ١٩٠٧ فقد بقيت ذات اهمية فائقة بالنسبة للنشاط التبشيرى فيها أكثر من اهميتها الاقتصاديه . وعلى الرغم من ذلك فقد زاد انتاج الشاى والدخان فى المزارع الكبرى المملوكة للأوربيين فى المرتفعات الواقعة جنوبى البحيرة بكميات تصلح للتصدير .

وبالنسبة للأوربيين الذين استوطنوا فى نياسالاند فقد خلقوا مشكلات حول الأحقية فى الأرض . ومن القوانين الأولى التى أصدرتها حكومة المحمية انشاء محاكم قانونية تستطيع الفصل فى الدعاوى والمنازعات . وحين وصل (جونستون) كان المزارعون قد بداوا فى شراء أراضى القبائل بأساليب ملتوية ومغرية . وكانت حكومة التاج تقرر الاحتفاظ بما يكفيها من الأراضى للوفاء بحاجاتها من أفريقيا فى المستقبل ، ولتضمن للقبائل ثمنا عادلا مقابل الأراضى المبيعة ، وفى نفس الوقت كان البريطانيون يأملون منح المهاجرين الذين سوف يعملون على تطوير البلاد وتنميتها حقوقا مضمونة فى ملكية الأرض .

وكانت معظم الأراضى ، التى جردها تجار الرقيق من سكانها ، تقع فى مرتفعات شيرى الفائقة الجودة . وقد دعا (جونستون) رؤساء القبائل فى هذه المنطقة لبيع اراضيهم ، هذا اذا رأى انهم يفهمون معنى هذا الاجراء ، وذلك فى مقابل ثلاثة شلنات (٠ر٠٦) دولار للفدان (الايكر) الواحد . وبعد ذلك يصدر صكا بالملكية بوضع اليد على الطريقة الانجليزية.

وقد بيع ٥٪ من مساحة المحمية تقريبا للأوربيين بهذه الطريقة . على أن السؤال الذى يحتاج الى اجابة هو : هل يستطيع رئيس القبيلة فى حقيقة الأمر أن يبيع الأرض ؟ لقد كان رئيس القبيله فى الأصل فى مكانة الوصى على ممتلكات القبيلة الخاضعة لملكية جماعية ، وكانت القبيلة تغير موقفها فى بعض الأحيان . وفى كل حالة من تلك الحالات ، كان من الضرورى اما تحريم الملكية على الأوربيين نهائيا ، واما فرض مبدأ الملكية الدائمة للاوربيين بطريقة تعسفية قهرية .

ولقد اتاحت خبرة (جونستون) بهذه المشكله فرصة مكنته من تنفيذ برنامجه الواسع الخاص بالأراضى فى أوغندا قرب نهايه القرن التاسع

عشر . ومع أن (جونستون) كان يعتبر نفسه — دون شك — واسع الخبرة ، فان الوضع فى الجانب الاخر من سلسلة البحيرات العظمى كان قد تمخض عن تطورات تاريخية مختلفة .

اما سبيك — أول أوربى يصل الى اوغندا — فقد اشار بألفاظ براقة الى وجود دولة قوية موحدة متمدينة نابضة بالحياة على شواطىء بحيرة فيكتوريا . ولم يظهر الاهتمام الدائم بهذه المنطقة حتى عام ١٨٧٥ حين طلب (موتيسا) كاباكا بوجندا ايفاد المبشرين الى بلاده ، وحين تلقى (ستانلى) — الذى كان يقود فى المنطقة حملته الثانية — الرسالة (رسالة موتيسا) أرسلها على الفور الى أوربا عبر الطرق التجارية النيلية .

وكانت مملكة البوجندا تمر بحالة من الفوران . (فمنذ عام ١٨٤٠ كان التجار العرب القادمون من زنجبار يقتربون من الجنوب بأعداد متزايدة لممارسة النشاط التجارى فى بادىء الأمر ، ثم لجلب الرقيق بعد ذلك ، كما أن غيرهم من المسلمين كانوا قد توغلوا عبر السودان المصرى ، واخذوا يفدون للمنطقة من جهة الشمال) ، ثم جاء سبيك وبعده باثنتى عشرة سنة جاء ستانلى نفسه . وحين كان ستانلى مقيما فى تلك الانحاء وصل مستكشف ثالث قادما من فرنسا وهو ارنست لينان دى بلفون (*) وكان موتيسا يخشى ان يؤدى ازدياد الاتصال بالأجانب الى الحاق الضرر بسلطنة موتيسا الشعبية ، ولذلك كان يأمل ان ينقذ المبشرون المسيحيون بلاده من التسلل (تسلل الأجانب) من التقسيم .

ولقد أستثارت رسالة ستانلى المثيرة مشاعر انجلترا. فسرعان ما أوفدت الجمعية التبشيرية الكنسية جماعة من الانجيليين الى بوغندا . وحين تحدثت صحف باريس كذلك عن التحمس الذى سرى فى بريطانيا ، ازداد

(*) فى الحقيقة ان ارنست لينان دى بلفون كان فى هذه الزيارة لأوغنده مبعوثا من قبل الادارة المصرية فى السودان ، وكانت زيارة هذه البعثة لأوغندا فى ابريل ١٨٧٥ ، وقد زار ارنست فى أثناء هذه الفترة بحيرة فكتوريا مع ستانلى وقد نشرت الجمعية الجغرافيه الخديوية فى نشرتها عام ١٨٧٦ تقريرا عن احداث هذه الرحلة (المترجم) .

الاهتمام الفرنسى بها كذلك ، فاتجهت الى المنطقة كذلك جماعة من الاباء البيض White fathers التى كانت قد نظمت فى الجزائر حينئذ . وبحلول عام ١٨٧٧ كان البروتستانت والكاثوليك قد دخلوا بوغندا . وقد أثار موتيسا دهشتهم ، لأنه حاول أن يستغلهم بما يتلاءم وأهدافه . ولقد أصابتهم الدهشة أيضا حين بادر موتيسا باحتجازهم داخل بلاطه فى منجو وكان يرمى من وراء ذلك أن يضع زعامتهم الدينية تحت تصرفه كى يستغلها ويستفيد منها ، ومن ثم فعلى الرغم من بقاء موتيسا نفسه على وثنيته فقد اعتنق معظم أفراد أسرته وبلاطه أحد المذهبين اللذين أصبحا فيما بعد طائفتين متصارعتين .

وقد توسعت مملكة بوغندا طوال القرن التاسع عشر وأصبحت ملكيتها المركزية شديدة البأس عظيمة القوة ، بيد أن الانشقاق بين الكاثوليك الفرنسيين والبروتستانت الانجليز بعد عام ١٨٧٧ زعزع كيان البلاد وأركان الحكم فيها . على أنه ربما حال دون نشوب الفوضى والحرب الأهلية احتمال قيام التحالف بين البروتستانت والكاثوليك الأوربيين أو الباغندا وبين (الكاباكا) الوثنى ضد العرب والمصريين الذين حملوا معهم القرآن . ومع ذلك تجمع عدد من الذين اعتنقوا الاسلام فى مقاطعات الحدود فى بوغندا .

وازدادت خشية موتيسا من خطر الغزو حين تبين له أن التبشير يحدث من التفتيت والتمزق بين شعبه أكثر مما يحدثه من السحر ، هذا وقد طوقت حملة كارل بيترز الألمانية الخاصة — المملكة من الجنوب ، كما نقلت الأنباء خبر وجود وكلاء (للجمعية الدولية) فى منطقة خط تقسيم مياه الكونغو تجاه الغرب . وبعد عام ١٨٨١ ، ضاعت معظم المصالح المصرية تجاه الشمال بفعل الضغط الذى مارسه غلاة المهديين . ولم يعد خالصا من أيدى الأجانب سوى المدخل الشرقى لبوغندا ، على أن هذا وفر لموتيسا شيئا من الراحة والسكينة ، وتروى احدى الأساطير أن بوغندا لا تسقط تحت الغزو الا من هذا المدخل الشرقى . وحين مات موتيسا فى عام ١٨٨٥ ، حل محله موانجا الذى كان يعى مدلول هذه الأسطوره ومغزاها تماما . ومع أن الطائفة (الانجليزية) هى التى تعهدته وتولت تربيته ، فلقد

أثار (الكاباكا) الجديد فزع بلاطه المسيحى باعتناقه الدين الاسلامى — وربما كان ذلك لمجرد اثارة الخصام والمشاكسة ، ولكن الأرجح أنه أقدم على ذلك حتى يحتفظ بمكانته المتميزة .

وبادر موانجا باتخاذ خطوتين غاية فى الخطورة ، فبادىء الأمر بلغته أخبار عن محاولة الأسقف الانجليى جيمس هانتجتون دخول أوغندا عن طريق مرتفعات كينيا فى الشرق ، فاذا (بالموانجا) ، ومدفوعا بالخوف التقليدى الموروث ، أو بكرهه للمسيحية — أمر بقتل الأسقف ، ثم حاول موانجا بعد ذلك بعام ذبح المسيحيين فى البلاد — وخاصة البقية الباقية فى البلاط — لكنه أخفق فى تحقيق غرضه . ويبدو أن الدافع لهذه المحاولة كان دافعا دنيئا ، لأن المكانة التقليدية (الكاباكا) ، حتى مع اسلامه ، كانت مستقرة سياسيا كل الاستقرار ، وذلك داخل بلاط منقسم الى طائفتين مسيحيتين متكافئتين .

وكانت بريطانيا والمانيا فى ذلك الوقت (١٨٨٦) قد اقتسمتا الساحل الى منطقتى نفوذ ، وبعد ذلك بأربع سنوات ، وبموجب اتفاقية هيلجولاند التى قسمت كذلك المناطق الداخلية لشرق أفريقيا — دخلت أوغندا رسميا فى المنطقة التى استأثرت بها بريطانيا . على أن الحكومة البريطانية لم تكن تنوى مطلقا تحمل أية مسئولية فى شرق أفريقيا ، وكانت قد أنشأت محمية صغيرة فى وسط أفريقيا حول بحيرة نياسا — وسمحت للقنصل فى زنجبار أن يقدم مشورته للسلطان ، لكنها منحت مزايا أخرى بموجب اذن مجرد لأغراض التنمية الخاصة . وكانت شركة شرق أفريقيا البريطانية الامبراطورية (I.B.E.A) تزاول مزيجا من الأعمال التبشيرية والتجارية . وقد حصلت هذه الشركة على الاذن بممارسة أعمالها عام ١٨٨٨ ، لتعمل نيابة عن الحكومة فى ظل الاتفاقيات الانجليزية الألمانية الموقعة فى عام ١٨٨٦ . وحصلت الشركة آليا — على المزايا الاضافية التى حصلت عليها بريطانيا عام ١٨٩٠ ، ولم يتحقق شىء ملموس حتى ذلك الوقت ، ومرد ذلك غالبا الى عدم وضوح نطاق المسئولية كما لم يتيسر لها رئيس مناسب .

وكان الاهتمام الأكبر والأخطر يتركز حول أوغندا بطبيعة الحال . ولم

تكن قبائل المرتفعات المجهولة المعادية ، كما لم تكن مستنقعات الساحل الموبوءة فى كينيا بأكثر من عائق مزعج يمتد بطول أربعمائه ميل ويتحتم اجتيازه وعبوره . وكان الرجل القادر على هذه المهمة هو لوجارد الذى كان يرتبط فيما سبق بشركة البحيرات الافريقية ، ثم تولى نشاطه المعروف من بعده فى بحيرة نياسا جونستون والحكومة البريطانية .

وبحلول عام ١٨٩٠ ، كانت حملة شركة شرق أفريقيا البريطانية التى تزعمتها قد وصلت الى منجو عاصمة بوغندا .

وقد ظلت رحى الحرب الأهلية دائرة حول شواطىء بحيرة فيكتوريا ، وقد استطاع تحالف جمع بين الطوائف المسيحية أن يحتفظ (بموانجا) سجينا فعليا ، فى الوقت الذى حاربت فيه هذه الطوائف انصاره من المسلمين . وقد انضم (لوجارد) الى هذا التحالف ، وساعد فى الحاق الهزيمة بالمسلمين ، وعقد اتفاقين مع (موانجا) الذى وضع مملكته فى ظل حماية شركة أفريقيا البريطانية الامبراطورية (I.B.E A) ، ورغم ذلك فقد كان (موانجا) والكاثوليك الفرنسيون يكرهون البريطانيين — كل منهما لأغراضه ودوافعه الدقيقة الخاصة — وكان كل منهما يسعى للتحالف مع الألمان . اما الماتيا ، حتى لو كانت تدرك حقيقة مشاعر الباجندا ؛ فقد كانت ملتزمة — بموجب المعاهدة البريطانية الألمانية — بالاعتراف (بشركة شرق أفريقيا البريطانية) ، ومن ثم فان حلفاءها المنتظرين لم يحصلوا على أية مساعدة . لكن ما أن تشتت المسلمون وانفرط عقدهم عام ١٨٩٢ حتى بدا المسيحيون يقتتلون فيما بينهم . فقد انضم البريطانيون تحت قيادة (لوجارد) الى البروتستانت فى الحرب بين الانجليز والفرنسيين التى استمرت ثلاثة شهور ، واستطاع (لوجارد) ورفاقه الذين استخدموا المدفع الرشاش الوحيد فى البلاد ان يكسبوا المعركة . وبعد ذلك قسمت بوغندا الى ثلاث مناطق : منطقة (مديرية) صغيرة للمسلمين ، واخرى للكاثوليك ، ثم عدة مناطق كبيرة مسيطرة على المناطق الأخرى — للبروتستانت . وأصبح (الكاباكا) المسلم بعد ذلك العوبة فى يد البروتستانت . ولقد أدى هذا القتال بشركة أفريقيا البريطانية —

التى لم تكن قد مارست التجارة على الاطلاق — الى ان تقف على حافة الافلاس ، وقد وضع (لوجارد) خطة على أساس أن يغادر هو البلاد ، لكن الجمعية التبشيرية الكنسية وافقت على أن تتحمل النفقات العسكرية للشركة عام ١٨٩٢ — ١٨٩٣ . وفى ختام تلك السنة قامت الحكومة — بعد أن خضعت للضغط التبشيرى ولضغط الرأى العام — باعلان الحماية على البلاد والحلول محل شركة شرق أفريقيا البريطانية ، وبذلك أصبحت اوغندا من الممتلكات البريطانية المغلقة من كل جانب حيث أن كينيا ظلت — اسميا — تابعة لمنطقة نفوذ الشركة ، ثم أصبحت كينيا من ممتلكات الحكومة بعد ذلك بعامين حين اعتمد البرلمان المال اللازم لانشاء خط حديد أوغندا . وظلت شركة شرق أفريقيا البريطانية تمارس عملها سبع سنوات ، وهى تمارس سلطات الحكومة العسكرية والسياسية وعقد المعاهدات . ولم تمارس الشركة النشاط التجارى على الاطلاق . والواقع أن شركة شرق أفريقيا البريطانية قد تكونت ، لا لشىء الا لتكون منفذا للعمل التبشيرى ولاستثمار رأس المال . وقد ظهرت صعاب خطيرة خلال السنوات الأولى من محمية أوغندا ، اذ سبق أن وضعت خطة حازمة لتحقيق السلام والهدوء الدينى فى البلاد — فقد خصص لكل منصب كبير من المناصب فى (باجندا) اثنان : احدهما كاثولكى ، والآخر بروتستانتى (رئيسان للوزارة ، قائدان عسكريان ... الخ) . وكان المفروض أن يتعاونا فى عملهما الا أن الانقسام الطائفى والدينى استمر فى البلاط ، وكان من المنطقى أن يشعر (الباجندا) بضرورة وجود حاكمين لهما ، أى (كاباكين) لهما . ولكن لم يكن هنالك سوى حاكم (كاباكا) واحد ، وهو مسلم سجين لدى البروتستانت ، كما أنه كان خاضعا للضغوط من المندوب السامى البريطانى . وقد ادى الاضطراب الذى تمخض عن ذلك الى خلق فراغ اقتضى استحداث اصلاحات جذرية فى نهاية المطاف . لكن حكومة المحمية كانت مشغولة بتحقيق السلام والهدوء أكثر من انشغالها بتحقيق اى مشروع اصلاحى فى ذلك الوقت ، وكانت هذه السياسة المثالية تستهدف ترك الادارة الداخلية لكل شعب فى المحمية ، وخاصه شعب

لبوغندا ، وكذلك شعوب البانيورو ، والتورو البوسرجا ، والأشولى ، وعدد من الشعوب الأصغر . لكن الاختلافات بين هذه الولايات جعلت مثل هذه السياسة تساير الواقع . وكان (الكاباكا) والبلاط فى بوغندا يمارسون أعمالهم على ما يرام اللهم الا اذا كان الأمر يتعلق بالوظائف الثنائية للأديان والطوائف المتنافسة ، كما كان من الممكن دعم قبائل (البانيورو) لتؤدى نفس العمل — الا أنه كان من المستحيل — تقسيم سلطات رؤساء القبائل ، أو جمع شتات القبائل المبعثرة فى مناطق أخرى . وفى مثل هذه الظروف ، كان من المحتم على حكومة المحمية أن تتولى مهام الادارة المباشرة .

وعاد (الكاباكا) موانجا — اسميا — الى الديانة المسيحية لكنه ظل على كراهيته للنفوذ البريطانى للقيود التى فرضها البريطانيون على سلطته . وفى يوليو ١٨٩٧ استطاع (الكاباكا) الفرار من ممنجو وحاول أن ينظم تمردا . لكن العمل العسكرى الناجز السريع قمع هذا التمرد فى مهده ، فلجأ (موانجا) الى الأراضى الخاضعة لألمانيا وخلع بعد ذلك من عرشه على الفور ، أما الوصاية على وريثه (الكاباكا) داودى تشوا (Daudi Chwa) — الذى كان يبلغ من العمر سنة واحدة — فقد وضعت فى أيدى ثلاثة أشخاص هم : رئيسا الوزراء ، وكان أحدهما بروتستانتى ، والآخر كاثوليكى ، ثم بورتستانتى ثالث . وكانت هذه الوصاية ناجحة كل النجاح فى ممارستها للسلطة الملكية ، لكن استمر القتال متقطعا لمدة عامين .

لكن الحقت الضرر البالغ بهيبة البريطانيين ثورتان أخريان ، ففى عام ١٨٩٧ تمردت بعض القوات السودانية المرتزقة لحلول موعد رواتبها دون دفعها لها ، ولأنه أعدت لهم مطابخ موحدة حلت محل زوجاتهم الطاهيات التقليديات — لكن جنود (السيخ) الهنود الموالين ، يدعمهم المسيحيون المؤمنون فى بوغندا ، نجحوا فى الحفاظ على الحكومة .

أما المحنة الثانية فقد أثارتها هجمات قبائل (البانيورو) خلال عام ١٨٩٤ التى شنتها على القبائل الصغيرة التى عقدت المحمية معهم معاهدات وقدمت قوات (الباجندا) مساعدات هامة ، بحيث أتيح

للبروتستانت والكاثوليك مساحات شاسعة من الأراضى ، وأرغم رؤساء قبائل (البانيورو) على الاذعان والاستسلام للاصلاح . ومر عامان قبل أن يقرر البريطانيون ضرورة خضوع قبائل (البانيورو) للمحمية ، كما مرت ستة أعوام قبل أن تنتهى الى أن شعب (البانيورو) من حقه امتلاك الاراضى فى الأقاليم التى حصلت عليها البوجندا . ويفسر هذا الموقف من الحكومة ما كانت تراه من ان اقليم (البانيورو) اقليم مفتوح بقوة السلاح ، أما اقليم البوجندا فقد أمكن الحصول عليه بقوة المعاهدات والاتفاقيات .

وقد ادخلت ، فى نفس الوقت تغييرات سلمية ، فأصبحت المسيحية، على الأرجح هى دين الأغلبية فى البوجندا ، خلال العقد التاسع من القرن التاسع عشر . وشارك الباجندا البروتستانت فى مجالس الحكومة عام ١٨٨٤ كما عينوا فى المناصب منذ عام ١٨٩٦ . وخبت جذوة القضية الدينية بعد عام ١٨٩٥ حين وضع البابا جميع أباء تل الطاحونة (Mill Hill Fathers) فى موضع وسط بين الكاثوليك الفرنسيين القدامى وبين الانجيليين . وألغت البوجندا الرق وأرست أسس النظام المدرسى الذى يعتمد على الضرائب ، كما أن تحسين المواصلات مع الساحل الغربى تحقق فى ظل التقدم البطىء فى الخط الحديدى من (ممباسا) قد دفع بعجلة الاقتصاد . لكن الباب لم يفتح للتجارة العالمية المنافسة حتى عام ١٩٠١ حين وصل الخط الى كيسومو فى كينيا ، حيث وصلت بحيرة فيكتوريا بالبواخر القادمه من أوغندا .

وبحلول عام ١٨٩٩ كان الأمر يتطلب اتخاذ اجراءات محددة لتوضيح المهام القضائية والسياسية التى بدأت حكومة المحمية فى ممارستها . وكانت ثمة حاجة الى وضع نظام منتظم للضرائب لدعم الحكومة ، ووضع نظام للملكية وحيازة وبيع الأرض يسهل فهمه وتطبيقه بمعرفة القضاة البريطانيين او الأفريقيين ، كما اقتضى الأمر وضع سياسة واضحة خاصة بشراء المهاجرين للأراضى ، ووضع أساس دستورى لتقسيم السلطة بين البريطانيين والباجندا .

ووصل جونستون — اصبح فيما بعد — (السير هارى) فى ديسمبر

١٨٩٩ ، وقد منح سلطات واسعة للتفاوض ، تؤهله لذلك خبرته وتجاربه فى وسط افريقيا . لكن لم تكن لديه او لدى حكومة لندن أو حكومة المحمية صورة واضحة عن التركيب السياسى أو نظام حيازة الأرض فى بوغندا . وكانت التعليمات لديه تؤكد أهمية : زيادة الايرادات ، وخفض المصروفات ، وتوحيد القوانين والعملة ، والغاء الرق . وبصفة عامة فقد فوض لتنظيم ادارة محمية اوغندا على أسس تفى باحتياجات المحمية بعد استكمال الخط الحديدى من (ممباسا) . وقد أوضح (جونستون) — قبيل أن يغادر لندن — أنه سوف يتناول مسأله الأرض بنفس الأسس التى تناولت بها نفس المسألة فى أفريقيا الوسطى البريطانية ، وانه سوف يحاول تحديد الحدود القائمة للأراضى التى يستغلها أهالى البلاد ، وتثبيت الأهالى المستوطنين فى ملكية الأراضى التى يزرعونها .

وبعد وصول جونستون بثلاثة ايام ، قدم برنامجه الى أوصياء العرش فى بوغندا ، مع أن البريطانيين الموجودين فى البلاد لم يكونوا قد استوعبوا أحوالها المحلية ، كما لم يكن لديه الوقت لدراسة هذه الأحوال — فقد اقترح وضع نظام ضرائبى موحد على كل كوخ أو منزل واخضاع الأجانب كافة للحكم المباشر ، وتأكيد حق الاستئناف فى الأحكام ، والاشراف على كل شئون بوغندا الداخلية واصدار صكوك ملكية الأراضى لرؤساء القبائل المعترف بهم بعد الحصول على مساحات واسعة للتاج البريطانى . وقد توقع قبولا سريعا لبرنامجه على نحو ما حصل عليه فى بلاد نهر شيرى — لكنه تبين أن الباجندا اشد عنادا واصعب مراسا ، وأنهم دبلوماسيون محنكون وراءهم خبرة طويلة فى التفاوض مع الأوربيين ، وقد استغرقت المفاوضات ثلاثة اشهر قبيل الوصول الى اتفاقيات . وفى البدء ظن الأوصياء ، والرؤساء انه يزمع عزل الكاباكا وفرض نظام الحكم المباشر على البلاد . وقد احتاج (جونستون) الى بعض الوقت لاقناعهم بأن عبارته التى تقول : « أن يحكموا أنفسهم بأقل قدر من التدخل » ، انما تعنى أن اختصاصه سوف يكون مقتصرا على تحقيق العدالة بين الأجانب ،

وعلى شئون النقل والمواصلات ، والموارد الطبيعية ، وعلى التنظيم المالى .

وقد أدت مناقشة هذه المسائل الى تحديد دستورى واسع النطاق لحكومة باجندا وعلاقتها بالمحمية البريطانية . وفضلا عن ذلك فان حق ملكية الأرض ظل دائما جزءا لا يتجزأ من الدستور السياسى لبوغندا . وحين أصر جونستون — الذى لم يكن يدرك ذلك على الاطلاق — على الفصل بين هذه الأمور على الطريقة البريطانية ، استغل الأوصياء ورؤساء القبائل هذا الفهم الخاطىء من جانب (جونستون) لصالحهم . أما الآثار التى كانت بعيدة المدى فى مضمونها ، فهى تعتبر ابرز سمة من سمات الاتفاق النهائى .

كان (الكاباكا) فى التركيب التقليدى عاهلا مطلق السلطة فى التشريع والحكم والقضاء ، كما كانت له جميع حقوق ملكية الأراضى . وكانت مقسمة الى مناطق ادارية (أحياء أو مقاطعات) يتولى السلطة فى كل مقاطعة منها فرد من أفراد طبقة النبلاء العليا يدعى الباكونجو . ومن ثم كان رئيس كل مقاطعة من هذه المقاطعات يتولى مسئولية جمع الضرائب والدفاع والقضاء المحلى ، وكذلك حق توزيع الأرض على المستأجرين المزارعين التابعين له . وكانت سلطة (الكاباكا) (حقه) فى طرد هؤلاء الرؤساء وتعيين من يحل محلهم تكفل الولاء للسلطة المركزية .

وعلى الرغم من أن طرد أى من هؤلاء الرؤساء كان أمرا غير شائع — فان (الباكونجو) اذا طرد يفقد فى الحال حقه فى ملكية الأراضى ، بالاضافة الى سلطاته السياسية — ومن ثم كان التحكم فى حق الملكية للأراضى هو الوسيلة الأساسية التى تمكن (الكاباكا) تقليديا — من حظر اى جنوح او فتور فى الولاء او تطرف فى الاستقلال المحلى ، حتى حين توسعت بوجندا توسعا سريعا فى مطلع القرن التاسع عشر . ولم تستطع الحكومة البريطانية ان تفهم هذا الوضع على الاطلاق ، كما ان المبشرين المجربين — وان توافرت لهم بعض المعلومات عن ذلك — لم يتبينوا الدلالات الكاملة لهذه المسألة .

وكان رئيس كل مقاطعة يقوم بدوره بتفويض سلطته لرؤساء أدنى

منه مرتبة — يطلق عليهم الباتونجولى وكانوا يمثلون فى الواقع طبقة من النبلاء أقل فى العدد وأدنى فى المستوى ، كما كانوا يمارسون حقوقا فى ملكية الأراضى وحقوقا سياسية .

وكان (الكاباكا) قبل بدء عهد المحمية يستأثر وحده بكل السلطات القضائية والتشريعية — لكنه كان يمارس نفوذه فى وجود مجلس يعرف باسم اللوكيكو (Lukiiko) يضم نبلاء الباكونجو ، ولذلك كان يخضع لنفوذ مشاعرهم المنطلقة وان لم يخضع لأصواتهم الحقيقية .

وبعد عام ١٨٩٣ اجتمع المسئولون فى المحمية مع (الكاباكا) فى مواجهة مجلس الأعيان (اللوكيكو) ، ولم يكن قد استحدث حتى الآن نظام التصويت البرلمانى — الا انه مع تقسيم مجلس الأعيان (واللوكيكو) والوزراء فى ضوء الأسس الدينية كانت للكاباكا ومساعديه البريطانيين سلطات ضعيفة وغير محددة ، أما القرارات النهائية فكان يتولاها — على التبادل — الأوربيون ثم الكاباكا ، دون اتفاق رسمى فى بعض الأحيان حول تقسيم السلطة الدستورية . ولو لم يكن مجلس الأعيان (اللوكيكو) قد قسم وتفتت على أسس طائفية ، لكان عجز البريطانيين وقصورهم عن فهم أو استشعار اتجاهاته غاية فى الخطورة ، وكانت الفوضى تحيط بالسلطة ، واستبدلت الأساليب التقليدية لفرض الولاء بعلاقة أخرى ضعيفة غير واضحة الملامح تستند الى أن (الليكوكو) والبريطانيين كانوا مسيحيين ، فى حين آلت سلطة (الكاباكا) فى بادىء الأمر الى أيدى أحد المسلمين ، ثم للوصاية المؤقتة . واقتضى الأمر بالضرورة شيئا من التوضيح .

وفى ضوء تصور البريطانيين للمشكلة — فرض (السير هارى هاميلتون جونستون) فصلا بين المسائل الدستورية وقضايا الأراضى منذ البداية ، وبمجرد أن تحقق رؤساء الباجندا أن (الكاباكا) لن يحرم من سلطته ، أو من الاستقلال المحلى ، تقبلوا البنيان السياسى الجديد . واقتضى هذا النظام أن يساعد (الكاباكا) باعتباره الحاكم المحلى ثلاثة من المسئولين المحليين فى الدولة ومجلس استشارى من الأعيان (اللوكيكو) المؤلف من عدة رؤساء مناطق . ويتولى (الكاباكا)

التعيين فى هذه المناصب ، التى لا تشغل بطريق الانتخاب ، بشرط موافقة البريطانيين . ويتولى رؤساء المناطق جباية ضريبة الروبيات الثلاث من كل كوخ من كل حامل لسلاح (بندقية) فى بوغندا . وتودع هذه المبالغ كاملة لدى السلطات البريطانية . ويحق للبريطانيين فصل اى رئيس يقصر فى عمله ، الا انه لا يحق للكاباكا فصل رئيس اى منطقة أو مسئول بمجلس الأعيان (اللوكيكو) دون موافقة البريطانيين . ويحق لمجلس الأعيان (اللوكيكو) اقتراح التشريعات ، الا أنه يتعين على (الكاباكا) أن يحصل على موافقة البريطانيين قبل التوقيع على اى اجراءات . على أنه لم يكن من الواضح ما اذا كان من حق الكاباكا أن يعترض على اى اجراء ، حتى لو وافق عليه البريطانيون .

وقصارى القول فان المحمية لم تلتزم بشىء لم تكن تمارسه من قبل ، لكن سلطات الباجندا كانت محدودة بشكل واضح ، ووضع نص هام مؤداه — أن من حق البريطانيين تعطيل الدستور والحكم بشكل مباشر — اذا ثبت عدم ولاء (الكاباكا) والرؤساء لصاحبة الجلالة . على أن الفرق بين العناد أو الخلاف وعدم الولاء الصريح ظل غامضا ، وبخاصة فى الأمور الدقيقة المنفصلة عن قضايا العلاقات السياسية والمالية البسيطة .

وقد جعلت هذه الاتفاقية من بوغندا ، أساسا ، ولاية فيدرالية فى اطار حكومة مركزية موحدة ، وقد بدا فى أول الأمر ، أن الاتفاقية تتيح حقوقا دستورية خاصة ، وحقوقا تتصل بالمعاهدة لحكمة الباجندا — الا أنه فى عام ١٩٢٦ ، أفتى مجلس الشورى الملكى البريطانى بأن كل السلطات تستمد مصدرها من حكومة المحمية ، ومن ثم فان سلطات بوغندا بما فى ذلك تلك السلطات التى تكفلها الاتفاقية — كان وجودها (ممارستها) مرهونا بارادة الحكومة المركزية (البريطانية) ، وكانت اتفاقية ١٩٠٠ تعنى — فى واقع الأمر — ان سلطة الحماية قد أصبحت كاملة فى أوغندا كلها ، وقد سمح لبوغندا بممارسة السلطات التى رأى البريطانيون أنها سلطات هامشية أو اختيارية ، كما سمح لها باعادة تنظيم مؤسساتها وأنظمتها التقليدية للنهوض بهذه المهام .

واقترح (جونستون) لدى طرحه لمسألة الأراضى فى ديسمبر ١٨٩٩ ضرورة توزيع الأراضى بين الكسباكا والأسرة الملكية والأمراء ، ورؤساء المناطق، والتاج البريطانى ، وعموم السكان بنسب عديدة . وأن تكون أراضى التاج مستوعبة للغابات والأراضى المهجورة ، وتتولى هيئة حكومية ادارة الممتلكات الزراعية .

وفى أثناء المفاوضات التى استمرت مدة طويلة نجح رؤساء الباجندا فى استبعاد عموم السكان وحصة الوصايه البريطانية من الاتفاقية . واضطر البريطانيون للاقتناع بأن رؤساء القبائل هم حاليا ملاك كل الأراضى ، وان السلام والرخاء يعتمدان على اشرافهم على استغلال الأراضى تقليديا . وظل (جونستون) قلقا بالنسبة لمجموع المزارعين — لكن مساعديه والمبشرين اقنعوه بالحفاظ على النظام وتوثيق العلاقات بالاذعان لرؤساء القبائل . أما هؤلاء الرؤساء الذين كانوا فى غالبيتهم من رعاية (الباكونجو) من مجلس الأعيان (اللوكيكو) — فقد ادركوا — على ما يبدو — ادراكا تاما ما هم فاعلون. فقد نجحوا فى الحصول على نظام لملكية الأراضى على الطريقة الانجليزية ، كما تمنى جونستون ، لكنهم اقنعوه بأنه — على ضوء التقاليد المستقرة — فان حقوقهم ستظل فى صورة اقاليم حقيقية ، لا فى صورة مزارع فردية مستقلة فى العمل . وكانت هذه التسوية مواتية لرؤساء (الباكونجو) الى اقصى حد — ومعنى ذلك أن حقوقهم اضحت كاملة ودائمة ، ولم تعد رهن ولائهم للكاباكا ، ثم أنه — مع الاحتفاظ بضياعهم الكبيرة — فقد احتفظوا بسيطرتهم على الفلاحين الذين تحولوا من رعايا سياسيين الى مجرد مستأجرين للأراضى ، ولم يتحدد هذا الأمر فى الاتفاقية بطبيعة الحال . لكن البريطانيين اقتنعوا بانه من الحكمة ترك مسألة توزيع حقوق الملكية كلية لمجلس الأعيان ، واعطيت منح بصفة خاصة للكاباكا ولأسرته ، ولكبار الوزراء ، ولألف من رؤساء القبائل والمناطق ، فى حدود ثمانية أميال مربعة لكل واحد على الأقل ، هذا مع احتفاظ التاج بتبعية الأراضى له . وكانت قرارات مجلس (اللوكيكو) تخضع لموافقة البريطانيين الا ان موظفى المحمية آثروا السماح بقدر من الحرية

على التدخل فى شتى الأمور . وفى نهاية المطاف قدمت هبات فى صورة من الأراضى مساحتها ميل مربع واحد تعرف باسم أراضى الميل الواحد (الميلو) الثلاثة آلاف وسبعمائة من رؤساء المناطق — أى كل رؤساء الباكونجو الكبار ولنسبة مئوية كبيرة من رؤساء الباتونجولى الأقل نفوذا — فحصل كل منهم على قطعه من الأرض تتناسب ومرتبته أو نفوذه .

وكان القصد من قطع (الميل الواحد) هذه أن تضارع وتؤكد الملكيات القائمة تبعا للاتفاقية . لكن مجلس (اللوكيكو) اعطى الأفضلية الأولى للمراتب العليا دون اعتبار السابقة ، وكانت النتيجة تركيز أضخم المزارع واكبرها مساحة فى أفضل الأراضى وايسرها واغناها ، مع تناثر الرؤساء الأدنى رتبة عبر الأراضى الفقيرة البعيدة . ولم يكن ثمة ما يقدم لكثير من (الباتونجولى) الأدنى مرتبة الذين اصبحوا زراعا مستأجرين ، وكذلك فان الباتاكا (Bataka) — وهى طبقة خاصة — كانت تتولى أراضى الدفن . والضياع الخاصة بالعشيرة كادت تمحى من الوجود ، مع انهم كانوا الوارثين الوحيدين للأرض الى جانب الكاباكا من جملة سكان الباجندا ، بحكم نظام الباجندا نفسه .

وفى النهاية أصبح الاستيطان فى (أرض الميلو) يمثل صراعا وسباقا على السلطة ادى الى قلب هيكل ووظيفة الحياة السياسية والاقتصادية للباجندا . فأعضاء مجلس (اللوكيكو) ، أو من كان يتولى مناصب الرؤساء ، تصادف انهم من الذين عينتهم (الكاباكا) فى مناصبهم فى الآونة الأخيرة ، وقد تأكد وضعهم ومكانتهم الاقتصادية الى الأبد بضربة واحدة ، ومن ثم فقد (الكاباكا) الوسيلة الأولى لفروض الولاء ، كما فقد الوسائل الوحيدة الفعالة من مكافأة من تثبت كفايته ونجاحه فى الخدمة العامة . وهكذا استحال عليه تعيين أحد الا من كان يحمل هذا اللقب بالوراثة — فى منصب رئيس منطقة أو مقاطعة .

وقد شعر رؤساء المناطق ، وكذلك اعضاء مجلس الأعيان (اللوكيكو) الذى يسيطرون عليه ، بالامتنان والولاء لسلطات الحماية التى ضمنت لهم مكانتهم أكثر من شعورهم بالامتنان والولاء (للكاباكا) نفسه .

وجوهر القضية كلها هو أن جماعة من الجماعات الضعيفة التى تصادف وجودها فى موقع الحكم فى وقت من الأوقات ، قد تحولت الى طبقة أرستقراطية مستقلة دائمة الوجود .

ولاسباب واضحة اضحت اقلية الباجندا الجديدة الحاكمة شديدة التحمس لاتفاقية (١٩٠٠) ، كما اضحت قوة موالية للبريطانيين داخل محمية أوغندا ، وقد ثبت دعمهم ومساندتهم بشكل واضح حين استلزم وباء مرض النوم الذى تفشى فيما بين ١٩٠٠ ، ١٩٠٧ — أن ينقلهم البريطانيون جميعا من ساحل بحيرة فيكتوريا ، فأبدوا تفهما للموقف وتعاونا عن طواعية مع البرنامج الطبى الذى كان تنفيذه أمرا واجبا .

على أن البريطانيين — الذين نظروا الى تلك الأقلية الحاكمة على أنها طبقة متوسطة ناشئة أكثر منها طبقة ارستقراطية — ظلوا يشعرون لعدة سنوات أن النزعة الدستورية والتفاعل الثقافى قد بدأت معالمها فعلا فى بوغندا . وبدا أن الخطوة التالية هى توسيع نطاق فكرة الاتفاقية الى بقية أجزاء المحمية . وقد تحقق ذلك فى منطقة التورو خلال عام ١٩٠٠ ، وفى منطقة الانكولى عام ١٩٠١ ، وفى كلتا الحالتين تم الاعتراف بادىء الأمر بحاكم تقليدى (ثم قدم له الدعم والتأييد بعد ذلك بحيث يقف ندا (لكاباكا البوغندا) . وكان نظام الأراضى شديد الاختلاف ، لأن التاج لم يعترف بأى حق سبق بالأرض ، وقدمت هبات ملكية الأرض للحكام وللقارة من الرؤساء — لكن عموم السكان اصبحوا مستأجرين مباشرين خاضعين لحكم الملكة ، وفرضت تسويات مماثلة فى بقية أجزاء المحمية حيث كاد حكم الحكومه على القبائل الصغيرة أن يصبح حكما مباشرا بالفعل .

وبدأت خدمات التلغراف عام ١٩٠٠ ثم أعقبها بعد ذلك بعام خط حديدى الى كيسومو على الساحل الكينى من بحيرة فيكتوريا على بعد مائتى ميل بالباخرة من بوغندا . وسرعان ما انخفضت تكاليف السلع والأغذية والمصنوعات المستوردة ، وتيسر الطريق أمام تجارة الصادرات . ووصل التجار الهنود وقليل من المستوطنين الأوربيين قبيل وصول الخط الحديدى بقليل ، وتولى الهنود مهمة التجارة ، وتولى المستوطنون

الأوربيون انتاج القطن على نطاق واسع .

وقد طلب الباجندا — فى ذكاء — أثمانا عالية من المهاجرين الذين يرغبون فى شراء الأراضى ، أما كينيا فبعد أن فتحت للاستيطان عام ١٩٠٢ — أصبحت أشد جذبا وأسهل منالا لمعظم هؤلاء المستوطنين ، واستأثر مزارعو الباجندا بالشطر الأكبر من زراعة القطن عام ١٩٠٧ ، وسرعان ما انضمت الولايات الأخرى لانتاج القطن .

وقد جذبت مشروعات مد الخطوط الحديديه وشق الطرق وغيرها من المشروعات الرأسمالية الخاصه بالتنمية — رؤوس الأموال الهندية والبريطانية ورأس المال المحلى للتنمية السريعة لمحصول القطن ومحالج القطن . كما أن التعليم الذى انفردت البعثات التبشيرية ومجلس الأعيان بالنهوض بمهامه ، دون أى دعم من الحكومة البريطانية — قد اتسع نطاقه بشكل سريع . وبحلول عام ١٩١٠ ظهرت المدارس العليا التابعة للارساليات ، كما أنشئت مدرسة متوسطة بمساعدة (الكاباكا) . هذا بالاضافة الى بعض المشروعات التجارية ومدرسة صناعية ، فضلا عن انشاء معهد لتدريب المعلمين . وقبيل الحرب العالمية الأولى حل الموظفون الكتابيون الباجندا محل الكتبة الهنود وبعض الموظفين البريطانيين من الدرجات الدنيا فى الأعمال الحكوميه والتجارية .

وفى عام ١٩٠٩ — حين اتضح أن ضرائب الأكواخ تثبط حركة تشييد منازل جديدة فى بوغندا — فرضت ضريبة مباشرة على الأفراد . وكما استقرت ابعاده فى أوغندا ، طبق الاصلاح الذى كان قد طبق أولا فى بوغندا — تدريجيا على الأقاليم والقبائل الأخرى فى المحمية . أما فى الأراضى الواقعة شرقى أوغندا ، والتى رأت شركة شرق افريقيا البريطانية ووزارة الخارجية أنها عديمة الفائدة ، فقد خضعت لادارة الحكومة ، مثلها مثل محمية شرق افريقيا البريطانية (كينيا) ١٨٩٥ — وبدأ العمل فى خط حديد أوغندا الذى يربط الميناء العربى ومزارع ممباسا بالمناطق الداخلية ، وبعد ذلك بعام واحد بدأ مشروع الخمس السنوات الذى يتكلف خمسة ملايين جنيه استرلينى (٢٦ر٠٠٠ر٠٠٠ آنئذ) ، وهو أكبر مشروع رأسمالى تحقق بين جنوب

أفريقيا والسويس ، وقد عبر هذا الخط الصحارى والمناطق الموبوءة بذباب التسى تسى ، والسلاسل الشديدة الانحدار والوعورة فى مرتفعات كينيا . وتعرض بناة هذا الخط لهجوم الأسود ، ولغارات الرعاة الرحل الذين سرقوا القضبان لدعم حصونهم ، فى حين تحولت أسلاك خطوط التلغراف الى أساور يستخدمها الاهالى . ولم يكن القصد من هذا الخط الحديدى مجرد فتح الطريق أمام الارساليات والاسواق فى أوغندا ، بل من اجل تاكيد السيطرة البريطانية على أعالى النيل الذى كانت تعتمد عليه اعتمادا مطلقا مصر التى كانت يومئذ خاضعة لحكم البريطانيين .

ولم تكن تقل أهمية عن هذا القصد ، تلك الرغبة فى الغاء الرق والقضاء عليه على نحو ما اقترح مؤتمر بروكسل عام ١٨٩٠ . وقد نجح الخط الحديدى فى تحقيق الغاية ، اذ أن زنجبار التى كانت توفر الجزء الأكبر من الحمالين الأرقاء اللازمين للوصول للمناطق الداخلية — الغت الرق عام ١٨٩٧ . وحين وصل الخط الى أوغندا ، انخفضت تكاليف نقل طن من السلع من الساحل بنسبة ٩٧٪ اى من سبعة شلنات وستة بنسات الى بنسين ونصف بنس فقط .

واحتاج مد الخطوط الحديدية الى استيراد العمال وجلبهم من الهند ، وقد بقى معظم هؤلاء فى شرق افريقيا ، سواء باعتبارهم تجارا أم باعتبارهم عمالا مهرة . وقد بقى دورهم فى الاقتصاد على أهميته ونجاحه فى مستوطنات التشييد والبناء التى تحولت الى مدن مستقرة مثل مدينة (نيروبى) . كما أن وجودهم باعتبارهم الرعيل الأول من المستوطنين قد ساعد الأوربيين على أن يتحققوا من أن كينيا تتمتع بمزايا أخرى غير اتصالها بأوغندا ، وذلك بعد ان تم مد الخط الحديدى اليها .

وظلت مسألة الأرض فى كينيا أشد خطورة وأهمية منها فى أوغندا أو نياسالاند ، فقبائل الكيكويو — التى كانت قد استقرت منذ زمن طويل شرقى بحيرة فيكتوريا منذ اربعة قرون على الأقل — بدأت تحتل المرتفعات الخصيبة منذ عام ١٨٠٠ ، اما السكان الأوائل المجهولون ،

فاما أنهم قد اختفوا أو استوعبتهم قبائل (الكيكويو) التى تتحدث لغة البانتو — وسرعان ما أصبحت هذه القبائل مالكة لهذه المزارع أو الغابات الهضبية اكثر مما هى مستغلة أو مستأجرة لها .

أما جنوب قبائل (الكيكويو) — فى السهول الدنيا المفتوحة التى قسمت بين النفوذ الألمانى والنفوذ البريطانى فى اتفاقية ١٨٩٠ — فقد كانت تتجول قبائل الماساى الرعوية المحاربة التى تتحدث لغة حامية .

وحين مدت الحكومة البريطانية خط حديد أوغندا ، امتد الطريق عبر المرتفعات ، لأن قبائل الكيكويو ، بوصفهم مزارعين مستقرين امتازوا نسبيا بالهدوء وبروح الود ، بل انه قبيل وصول الخط الى المناطق الداخلية ، كان رجال القبائل قد سقطوا صرعى الأمراض التى جلبها معهم العمال البريطانيون والهنود عن غير قصد على طول الساحل . وقد تفشت فى المرتفعات بادىء الأمر أمراض حمى الجدرى ، ثم تفشت موجة من طاعون الماشية الذى اباد الماشية فعلا وقضى عليها ، ثم جاء القحط والمجاعة ، ومن بعدهما الجراد ليقضى على قبائل (الكيكوكو) ، فقد مات ما بين ٢٠٪ و ٥٠٪ من افراد القبائل ، وبخاصة فى المرتفعات، حتى ان القبيلة وقد تضاءل عددها انسحبت وانزوت مؤقتا عن أراضيها الأصلية . وبرغم ان الكيكويو قد استمروا على اعتقادهم بأن الأرض لا تزال أرضهم — فقد بدت الأرض خاوية حين بدات جماعات التشييد فى مد الخط الحديدى بالفعل عبر المرتفعات . وكان الهدف الوحيد فى بادىء الأمر ينحصر فى الوصول الى أوغندا ، الا أنه — بعد استكمال مد الخط — اكتشفت بريطانيا أن التربة والمناخ يصلحان للاستيطان الهندى أولا ، ثم للاستيطان الأوربى .

وقد وصل الرعيل الأول من المهاجرين عام ١٩٠٢ للاستقرار فى المزارع فوق الهضبة الخاوية ، واستنادا الى النظريه القائله بأن هذه الأراضى كافة تتبع آليا التاج البريطانى — منحت الحكومة البريطانية بحرية صكوك تأجير لمدة ٩٩٩ سنه للأراضى الموازية للخط الحديدى . وقد ازدهرت فيها مزارع عظيمة لزراعة البن . وفى نهاية المطاف اقام عشرون ألفا من الأوربيين مزارع تحتل حوالى ١١٫٠٠٠ ميل

مربع من اجود الأراضى فى كينيا . بيد أن القادرين على تدبير مبلغ ستة آلاف جنيه استرلينى (٢٩ الف بالعملة الجارية) الذى يكلفه انشاء مزرعة منتجة هم أنفسهم الذين تحتاج اليهم أوربا نفسها ، ولذلك لم تكن كينيا مطلقا هى (المنفذ) للاكتظاظ السكانى فى الوطن الأم (انجلترا).

وعلى الرغم من احتجاج الكيكويو على احتلال اراضيهم — فقد ارغمتهم ظروفهم الاقتصادية العصيبة على ان يتحولوا الى عمال لأصحاب المزارع الجدد — وفى بادىء الأمر كان وضعهم كمستأجرين للأرض يمثل تحسنا ملحوظا فى الأوضاع السائدة فى مناطق الأراضى المنخفضة — الا انه مع تزايد عدد المستأجرين وقله الاتصالات مع المراكز القبلية اضمحلت مكانتهم مرة أخرى .

ولقد ازداد اضطراب العلاقات بين الحكومة والسلطات التقليدية ، ومرد ذلك — الى حد كبير — يرجع الى صعوبة استيعاب نظام الكيكويو داخل حكم أشمل وأوسع نطاقا .

وقبيل عام ١٩٠٢ لم يكن ثمة رؤساء مناطق أو سلطة مركزية — فكانت كل سلسلة جبلية او كل مجتمع جبلى مما يعرف باسم روجونجو يخضع لحكم مستقل من قبل مجلس من كبار السن ، وكل مجلس من مجالس (الروجونجو) هذه له متحدث بلسانه ، الا انه لم يكن يزيد على رئيس للمجلس ، أو مجرد مراقب ليست له أى سلطة شخصيه . وفى الشئون التى تخص أكثر من (روجونجو) واحد فان المجالس المعنية تتعاون حيال تلك القضية . واذا حدث ذلك — فان الأمر ينطوى حينئذ على اندماج عدد من المجالس أو المجتمعات برؤسائها ، وان ظلت مثل هذه التنظيمات ذات طابع موقوت .

بيد أن السلطات البريطانية كان يمتلكها شعور بأن لجميع الأفريقيين رؤساء قبائل وبدا ان أفراد (الكيكويو) الوحيدين الذين يناظرون الرؤساء فى مكانتهم هم هؤلاء المتحدثون أو الممثلون لجماعات (الروجونجو) ، ومن ثم فقد اعترفت بهم السلطة وجعلتهم مسئولبن عن الأمور المحلية كافة . والواقع أن البريطانيين قد وضعوا رؤساء لهذه القبائل ، فحل هؤلاء محل المجالس التقليديه تماما . ولم تكن طبيعة

تطور المواصلات فى شرق ووسط أفريقيا

هؤلاء (المتحدثين) معروفة الى ان تم توزيع أراضى المرتفعات بين المهاجرين البيض . ففى بعض المنازعات الخاصة بالأراضى حاولت الحكومة أن تتفاوض وأن تشترى الحقوق من السلطات التقليدية ، لكن هؤلاء (المتحدثين) الذين لم يكن لهم اية سلطة حقيقية فى ظل العرف السائد عند (الكيكويو) — أساؤوا فهم البريطانيين ، أو انهم أفرطوا فى التطلع والطموح .

وقد بدا النشاط التبشيرى بين قبائل المناطق الداخلية بعد أن بدا نمو المزارع الأوربية ، وكانت قبائل (الكيكويو) شديدة الاعجاب والاقبال على التعليم الذى اهتمت به الكنائس فى القرن العشرين وأولته

رعايـــة خاصـــة . عـــلى أن أى فرد من أفراد القبـــائل ممن انتظموا فى المدارس — حتى ولو لم يعتنق الدين المســيحى — انتهج العـــادات والميول والطموح الذى أبعـــد بينـــه وبين المشـــاركة فى الاحتفـــالات ، والشعائر الدينية التقليدية .

ولـــا كانت هـــذه الصـــلات التى تفوق مجرد الطاعة السياسية هى الصـــلات الأســـاسية التى تربط بين مختلف قبـــائل (الكيكويو) — فقد كان جميع الذين تعلموا تعليما أوربيا غرباء مبعدين ، ولم يكن هؤلاء الذين انفصلوا عن تراثهم — فى الغالب قـــد اعتنقوا الدين المسيحى الى ذلك الوقت — الا أنه كـــان محتما عليهم أن يعتمدوا عـــلى أصحاب المزارع الأوربية ، أو على الوظائف فى المـــدن من أجل كسب الرزق .

ويوصـــف هؤلاء بأنهم قـــد نزعوا عن انفســـهم صـــفات القبيلـــة وخصائصها ، الا أنهم أصبحوا أشباه أوربيين ، أو أنصـــاف أوربيين .

وبحلول عـــام ١٩٢٠ أصبح (الكيكويو) وغيرهم من الأفريقيين طبقة من طبقـــات الحضر ، والطبقـــات المستأجرة للأراضى . ولم تظهر حـــدة المشكلة التى يواجهونها وتحظى بالاعتراف والتقدير الا فى تلك الآونة .

١٥
التوسـع فى الأقاليم الاسـتوائيـــة (٢)

اتاحت اتفاقيـــة هليجولاند ، التى عقدت عـــام ١٨٩٠ ، لبريطانيـــا فرصـــة الاستئثار بكينيـــا ، لكن الألمـــان اختصوا بالسيطرة على الأقاليم الواقعة جنوبى كينيا . وعلى الرغم من أن سلاطين زنجبار قـــد سيطروا منذ أمـــد بعيد — سواء على الســـواحل أم على طرق التجـــارة — فان التناقض أو التبـــاين بين كينيا وشرق أفريقيـــا الألمانية سرعان ما أضحى واضحا ملموســـا .

ففى البدايـــة حـــاول القيصر ولهلم الثـــانى أن يضـــاهى النموذج البريطانى فى الحكم ، وهو نموذج حكم الشركة المرخصـــة الـــذى يتجنب أمرين ، هما الانفـــاق والمسئولية التى تتحملها الحكومة ، بيد أن الشركة الألمـــانية أشرفت على الافلاس فى غضـــون عـــام واحـــد ، ولذلك فان مهمة ادارة شرق أفريقيا وقعت على عاتق حكومة برلين عـــام ١٨٩١ . وبدا أن أيسر وأرخص السبل لادارة المستعمرة هو أن يتم ذلك من خـــلال الحكم العربى المستقر فى زنجبـــار . وظهر أن كارل بيترز — الذى أدت كشوفه وجهوده التجارية الى ظهور الدعاوى الألمـــانيه — أكفأ ما يكون تأهيلا لهذا المنصب ولمهام الحكم . أما القضـــاء والادارة المحليـــة للرعايا الجـــدد البـــالغ عـــددهم (٧,٠٠٠,٠٠٠) فقـــد أنيطت مهامها كاملة للوكلاء العرب المحليين التقليديين . واختصت الحكومة فى المقـــام الأول بمكافحة الرق ، وغالبا ما كان ذلك بالتعـــاون مع جونستون فى أفريقيـــا الوسطى البريطانية كما اختصت بتوسيع التجـــارة المشروعه .

وقـــد لقى المهـــاجرون الألمـــان التشجيـــع للاستيطان فى الأقاليم المرتفعة بالقرب من جبل (كيلمينجارو) حيث منحوا حق ملكية ملبونين من الأفدنة . أما بقية الأراضى — باستثناء الأقاليم التى تزرعها قبائل البانتو

العديدة ، الى جانب بعض القبائل الأفروآسيوية ، وقليل من القبائل التى تتحدث لغة الخويسان — فقد اعتبرت تابعه للتاج . وباستثناء الأرض المخصصة للمستوطنين ، فقد خصصت أجزاء من أراضى التاج تعادل مزارع القبائل الحالية أربع مرات باعتبارها أرض (وصاية) تخص أهل البلاد . بيد أن مرتفعات (كليمنجارو) التى خصصت للمهاجرين كانت أيضا من الأراضى التى تركزت فيها القبائل بكثافة عالية ، وكان من العسير العثور على أراضى (وصاية) فى تلك المنطقة ، بل أنه فى بعض الحالات أدت الهبات التى منحت للمهاجرين الى نزع ملكية مزارع القبائل ، وظن الحاكم (بيترز) أن هذا الضغط سوف يقلل من أثر الطلب المتزايد من جانب المستوطنين على العمال المأجورين ، لكن المزارعين البانتو آثروا الاحتفاظ بملكياتهم ، ومن ثم فحين احتاج المستوطنون الى العمال — اضطروا الى تجميع القبائل بالقوة وتسخيرهم للعمل ، وازداد السخط لذلك ، وبلغ أبعادا خطيرة ، وهرب أعداد كبيرة من المنطقة ، فتعرضوا للمجاعات ، أو انتفضوا فى تمرد سافر — فى حين حرمت جماعات أخرى من أراضيها وسخرت للعمل .

ولم يكن العرب هم الأساس الوطيد الذى تستند اليه دعائم الادارة ، فالمؤكد أنهم (أى العرب) لم يشعروا بالولاء أو الآلتزام حيال السادة الأجانب وقد تملكتهم نزعتان فى اضطلاعهم بأعمالهم : الضعف ، والميل للانتقام والتشفى . وقد ثارت القبائل التى تربطها بالألمان صلات قليلة — ضد صغار الموظفين ، لكن الجيش الامبراطورى اتجه لسحق هذه الحركات بالقوة بدلا من تقويم الاعوجاج ، ومن ثم حصل (بيترز) على اسم ذائع الصيت بصفة أنه الرجل صاحب « اليدين الملطختين بالدماء » وقد أدانته أحدى المحاكم الألمانية بتهمة القسوة فى المعاملة ، لكنه لم يعزل من منصبه حتى عام ١٨٩٧ ، أى بعد ذلك بسنوات خمس ، حين أصبح فساده واستغلاله للسلطة واضحا للعيان .

ولم تعدل السياسات الادارية الأساسية الا عندما نشبت حركات الثورة العنيفة فى أرجاء المستعمرة ، فلقد كانت ثورة الماجى — ماجى التي

ابتدأت خلال عام ١٩٠٥ — مزيجا من عدة عوامل : كراهية العرب ، ورد الفعل ضد الاعتداءات العربيه والألمانية على التقاليد القبلية ، والاحتجاج على السخرة والضرائب ، ثم ما يشبه الوجد الدينى . فقد اتجه السحرة الى توزيع مشروب يقال انه يبطل مفعول رصاص الألمان ، ووعد الأنبياء الناس بالفردوس بعد القضاء على القوات الألمانية ، وقد شملت حركة الثورة معظم النصف الجنوبى لتنجانيقا ، ولم تخمد تلك الثورة الا بعد أن أحرق الجيش المحصولات . وقد مات فى المعارك ما يقرب من ١٢٠,٠٠٠ من أفراد القبائل ، سواء بقوى السلاح ، أم بأثر الجوع فى غضون عامين .

لكن الرأى العام سواء داخل المانيا أم خارجها ، حث (الرايشتاج) فى عام ١٩٠٧ على تقصى الحقيقة واصلاح الأحوال فى شرق أفريقيا ، وجاء القانون الجديد ليجعل من رعاية شئون المستعمرة الواجب الأول ، ومظهر تصنيف بارع وحاذق للقوانين استطاع تحقيق التوازن بين القوانين الألمانية والقوانين القبلية . وتعين على كل مسئول فى المستعمرة أن ينضم الى احدى المدارس التدريبية ، كما عين القضاة الألمان فى كل قرية ، واستحدث نظام تعليمى تجريبى طليعى ، وأعيد القضاء المحلى لاختصاص المجالس القبلية التقليدية التى كان يفترض فيها تقديم المشورة للقضاة الألمان بقدر ما يقدم لها هؤلاء القضاة النصح والمشورة . وكان يكفل لكل ذكر بالغ حدا أدنى من ملكية الأرض تقدر بستة أفدنة ، ولتحقيق ذلك ، رصدت الأموال لشراء أو لمصادرة الأراضى المجهولة . وقد حرم استخدام العمال عنوة فى الاقطاعيات الخاصة ، لكن اذا اقتضى الأمر استخدام العمال فى المشروعات العامه فقد كانت تدفع لهم أجورهم مقابل ذلك . كما أن البرامج الجديدة للبحوث فى الطب المدارى والزراعة المدارية — أسهمت اسهاما فعالا ، وظهر أثرها فى أفريقيا كلها . وقد تم مد خط حديدى من الساحل حتى بحيرتى فيكتوريا وتنجانيقا — لكن المشروع أنجز على عجل وعلى نحو اقتضى ضرورة اعادة تشييده بالكامل خلال سنوات قليلة ، وذلك من أجل تسهيل الطريق أمام التجارة والمواصلات والتنمية . لكن لم يتحقق الأثر الكامل

الا لاصلاحات قليلة . وقد كان من العسير أحيانا فى السنوات اللاحقة توفير الاعتمادات اللازمة للاستمرار فى المشروعات التى بدأت بالفعل . وقد مضى وقت قبل التمكن من تدبير وتدريب الأفراد اللازمين ، كما كانت الاقاليم اكبر من أن تغطيها البرامج التى لم تفد سوى مناطق معينة للتجارب . وجاءت الحرب العالمية الأولى لتوقف معظم المشروعات قبل المضى فيها لمراحل كبيرة ، فكان مصيرها الأهمال ، الى أن انتعشت او عدلت من جديد على يد الحكومات التى تولت الأمر فيها بعد الحرب .

ولم يتوغل نفوذ الألمان للمناطق الداخلية ليصل الى مملكتى رواندا وأوروندى الا بعد فترة الاصلاح . فهذه المناطق التى كانت تتميز بالنظام الاقطاعى المستتب لم تدخل مطلقا فى تيار التجارة الألمانية ، وقد ظل ملوك هذه المناطق المستتبة ، فى معظم الحالات سادة على بلادهم ، اللهم الا باستثناء وجود عدد قليل من المستشارين ، وهم لم يستشعروا نفوذ أو أثر الدين الاسلامى أو التجار العرب أو المؤثرات الثقافية الوافدة من زنجبار .

وبالاحتلال الفعلى لكينيا وتنجانيقا بعد عام ١٨٩٠ ، استطاعت بريطانيا والمانيا القضاء على مزاعم البرتغال فى أحقيتها فى ساحل الزنج . فكل الموانىء الواقعة شمال موزمبيق — وهى لآلىء التاج البرتغالى — فى القرن السادس عشر ، كانت قد آلت منذ زمن بعيد الى سلطان زنجبار ، ومن سلطان زنجبار حصلت الدول الجديدة على هذه اللآلىء . ومن ثم فقد انحصرت شرق أفريقيا البرتغالية فى منطقة تمتد حوالى ٦٠٠ ميل على جانبى مصب نهر الزمبيرى . ولم تستمر أية بقايا للنفوذ البرتغالى الا على طول هذا الساحل على امتداد حوالى اربعمائة ميل مع اتجاه النهر . أما الزعم بأن المستكشفين البرتغاليين قد عبروا من انجولا الى موزمبيق عبر نهر الزمبيزى قبل رحلة لفنجستون بوقت طويل ، فهو زعم لم يقم عليه دليل .وعلى أية حال ، فان المنطقة لم تقع تحت الاحتلال فى الوقت الذى كان فيه البريطانيون يتجهون بالفعل نحو المناطق الداخلية . ولم يكن يستحق ان يطلق عليه كلمة (اقليم برتغالى) بمقتضى القانون الدولى سوى بعض الحصون الساحلية وبعض المزارع المتناثرة

لانصاف البرتغاليون وهى المزارع الواقعة على حوض الزمبيرى الادنى . أما نياسالاند والروديسيتان ، والسواحل القريبة من زنجبار فقد آلت كلها الى دول أوربية أخرى قبل أن تقدم الحكومه البرتغاليه على اية محاولة سواء لاحتلال البقايا أم لادارتها على نحو حقيقى وفعال .

وكانت السلطة القبلية البسيطة أو السيادة الفعلية للمزارع المنعزلة هى شكل الحكم السائد المألوف خارج نطاق حصون البرتغال المتداعية التى لم يتجاوز عددها ستة حصون . وفيما بين عام ١٨٩٧ ، ١٩٠٢ خضعت هذه المزارع مرة أخرى للفتح والغزو ، وخضعت القبائل المتاخمة لاحدود البريطانية والألمانية لسلطة وحكم لشبونة فيما بين ١٨٩٦ ، ١٩١٢ — لكن أجزاء الساحل ظلت خارج نطاق الاحتلال حتى عام ١٩٠٩ ، واستسلم آخر المشايخ العرب للبرتغال في عام ١٩١٠ .

وكادت التجارة تتوقف بعد انتهاء تجارة الرقيق المنظمة فى العقد الخامس من القرن التاسع عشر . وقد نشط المهربون العرب في العقد التاسع من القرن المذكور ، كما اتجه بعض الرقيق الى أصحاب المزارع الفرنسيين في جزيرة ريونيون منذ العقد الثامن من القرن التاسع عشر . وقد مارس التجار القادمون من (جوا) ومن الهند البريطانية تجارة غير منتظمة فى الحلى والسلع البسيطة لمدة مائتى عام على الأقل ، ولكن رأس المال لم يصل للمنطقة الا بعد انشاء خط حديد الترانسفال فى عام ١٨٩٤ ، وخط حديد روديسيا بعد ذلك بثلاثة أعوام . وحتى ذلك الوقت لم يكن دور موزمبيق في المقام الأول يتجاوز دور الملاحة الانتقاليه عند ميناء الوصول، وكانت ثمة أحلام عن الثروات ، لكن معظم هذه الأحلام كانت مجرد احياء لأساطير العصور الوسطى التى لم يتحقق شىء منها منذ القرن السادس عشر . ولم تكن المستعمرة تنتج سوى ما يكفيها من المواد الغذائية الأساسية . وقد وفرت الدولة تعليما أساسيا لحوالى ١ر٠٪ من السكان بعد عام ١٨٧٠ ، وهو معدل ارتفع به المبشرون الأجانب الى نسبة ٤ر٠٪ بعد الحرب العالمية الأولى .

ولم تحل الادارة المدنية محل الادارة العسكرية التى ظلت تحكم مدة أربعة قرون حتى العقد الأول من القرن العشرين ، كما أن التنظيم المالى

ارجىء حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . الا أن اقتصاد موزمبيق واحوالها المالية تحسنت بعض الشىء بعد عام ١٩٠٢ ، لأن العمال الأفريقيين الذين يعملون بموجب العقود مع مناجم الترانسفال كانوا يدفعون الضرائب البرتغاليين ، كما انهم كانوا ينفقون القدر الباقى من أجورهم فى المستعمرة. وكان عنصر العمل هو المصدر الأساسى بالنسبة لكل من موزمبيق ومستعمرة انجولا الواقعة جنوبى نهر الكونغو على ساحل الأطلنطى . وكان جلب الرقيق هو الشاغل الأول في كل من المستعمرتين حتى القرن التاسع عشر . وفي أنجولا كان الرقيق لا يزال يمثل الصادرات الأساسية حتى عام ١٨٧٠(*) وفى النهاية تفوقت المنتجات الزراعية ومنتجات الغابات على الرقيق في الأهمية ، ولا سيما بعد ان بدأت أسواق الرقيق في الاختفاء . ولم تحدث زيادة حقيقية فى الطاقة الانتاجية ، ومن ثم بدأت المستعمرة في الاضمحلال ، واصبحت انجولا ، شأنها شأن موزمبيق ، تعتمد اعتمادا كليا على العمال الزنوج من أجل اعالتها ، وقد بدأ (آباء الروح القدس) في عام ١٨٦٥ في احياء النشاط التبشيرى الكاثوليكى الذى كفت عنه البرتغال منذ ٢٥٠ عاما خلت ، كما وفد البروتستانت لأول مرة عام ١٨٨٥ . وقد أفلحت الجهود الدينية في نهاية المطاف ، في فتح أجزاء كبيرة من المناطق الداخلية . ولكن الانجازات التعليميه فى (انجولا) لم تكن أوضح منها في موزمبيق .

وقد زعمت البرتغال أن سياستها تنطوى على نشر المدنية بين الأفريقيين وادماجهم في السكان الأوربيين ، اما انصاف البرتغاليين الذين يفترض فيهم انهم أمثلة أو نماذج لهذا الانتقال ، فقد كانوا أقرب الى الاندماج في المجتمع الافريقى ، كما أن سياسة التعليم والتبشير والعمل التى انتهجتها الحكومة لم تستطع أن تغير من هذه الحقيقة سواء فى أنجولا أو فى موزمبيق (**) .

(*) اشتهرت انجولا بالذات بتجارة الرقيق التى ظلت مزدهرة فيها حتى صدرت قرارات بالغاء تصدير الرقيق من المستعمرات البرتغالية — وقد اشتهرت أنجولا في تاريخ البرتغال الاستعمارى باسم الأم السوداء The blackmother اشاره الى تجارة الرقيق (المترجم) .

(**) كان التقدم فى مجال التعليم فى المستعمرات البرتغالية يسير بخطى بطيئة حتى ان نسبة الأمية فى هذه المستعمرات ظلت حتى وقت =

أما أول هجرة كبيرة للبيض منذ عام ١٦٠٠ فقد تمثلت في وصول جماعة منشقة عن البوير عام ١٨٨٠ ، لكن بقيت هذه الجماعة منعزلة الى أن عادت الى اقليم الترانسفال بعد جيلين . وفيما عدا ذلك لم يفد الى الاقليمين احد من البيض برغم الدعاية الاستعمارية المستمرة ، اللهم الا المديرين المعينين وبعض الشراذم منحثالة المجتمع الذين سرعان ما اختفوا وذابوا في المجتمعات الافريقية .

على أنه ، حتى بعد أن عملت دوريات السفن الانجليزية على الحيلولة دون تصدير الرقيق ، فقد ظل (الرقيق) يمثلون عنصرا هاما فى افريقيا البرتغالية ، فقد استخدمتهم مزارع موزمبيق على نطاق واسع . كما كان المستوطنون ، والموظفون ورجال الجيش يعتمدون على خدماتهم واعمالهم ، واحيانا كانت تحدث عمليات تهريب للرقيق أو يسمح للعرب بالاستمرار فى ممارسة تجارتهم . لكن ضغط الراى الخارجي والضغط الدبلوماسى اضطرا البرتغال لأن تلغى الرق عام ١٨٦٩ ، الا انه من الوجهة العملية ، استمر الرقيق تحت اسم جديد ، فقد طلب من الرقيق القدامى أن يظلوا تحت سيطرة سادتهم الذين يفترض أن يدفعوا لهم اجورهم ويوفروا لهم الحماية ، واستمر ذلك حتى طبقت مادة التجوال دون ترخيص ، أو الانتقال دون ترخيص فى قانون الخدمة بالعقود بعد ذلك بتسع سنوات . وترتب على ذلك أن المستغل أو المنتفع كان يلجأ بدلا من شراء الرقيق الى شراء (العقد) الخاص برعايا احد رؤساء القبائل . وأحيانا كانت الحكومة تعلن أن كل الافريقيين فى منطقة بعينها (يعملون دون ترخيص) ما لم يكن لديهم عقود تربطهم ، وبالتالى فان هذا بدوره كان يخلق آليا سلسلة متجددة من ضروب القهر والقسر ؛ فالدولة ، أو رب العمل نفسه ، يضع كشوف المرتبات لدفع الغرامات أو الضرائب والأجور المستحقة ، وحين ينتهى اجل العقد — فاما ان يجدده الأفريقى او يرسل مرة أخرى للعمل

= قريب ثابتة لاتتجاوز هذا الرقم المخيف ٩٩٪ ،وقد ذكرت الادارة البرتغالية بالفخر أن نسبة الأمية فى المستعمرات انخفضت فى عام ١٩٥٩ الى ٩٦٪ — وقد لا نعجب من هذه الأرقام اذا علمنا أن نسبة الأمية فى البرتغال ذاتها فى ذلك الوقت كانت تصل الى حوالى ٤٠٪ (المترجم) .

بعد ان يلقى عليه القبض بتهمة (التشرد) او العمل دون ترخيص .

وفى عام ١٨٩٩ عدلت نصوص القوانين ليكون على النحو التالى :
« يتعين على جميع رعايا الأقاليم البرتغالية فيما وراء البحار ، من الناحية الأدبية والقانونية اعالة انفسهم والنهوض بأحوالهم الاجتماعية عن طريق العمل » وحتى يعفى الأفريقى من هذا الاشتراط يتعين عليه ان يثبت ان لديه شيئا من رأس المال ، او ان لديه اتجاها حضاريا اوربيا » واضاف القانون انه يحق للحكومة والأفراد أن يطلبوا تسليم الأفريقيين المشاكسين . ولم يعدل مضمون تلك القوانين حتى عام ١٩٢٦

وبين الحين والحين كانت الشائعات أو الأنباء التى تنقل عما يعانى منه العمال الأفريقيون فى المستعمرات البرتغالية تستبد بأذهان المراسلين الأجانب. واحيانا اخرى كان الانفعال بالأوضاع أكثر من الواقع أو كان ينم عن اقتناع ذاتى بأكثر مما تبرره او تتحمله الظروف ، ولكن كان للاحتجاجات المتعددة أثرها فى النهاية . ومن الأمثلة الممتازة فى هذا الصدد ما نشره المراسل البريطانى المعروف هنرى نيفنسون عام ١٩٠٦ تحت عنوان « ارق الحديث » ؛ فقد كتب هذا المراسل يقول ان الأنجولايين يسخرون للعمل فى مزارع الكاكاو فى جزيرة ساو تومى . وقد صور المراسل طرق التسخير وظروف العمل بألوان قاتمة . كما أن غيره من المراقبين ورجال الأعمال الذين تقصوا الحقيقة اكدوا جوهر هذه الاتهامات ، وأساء البرتغاليون الى قضيتهم باتهام البريطانيين بالانقياد للعواطف . وقد أرغم الرأى العام شركات ومصانع الشيكولاته فى أوربا وامريكا على الغاء عقودها لاستيراد الكاكاو (*) .

أما وزارة الخارجية البريطانية ، التى أولت الموضوع اهتماما خاصا

(*) سافر (هنرى نيفنسون) الصحفى الانجليزى الى انجولا — لحساب (دار هاربرز) الأمريكية للنشر — وادى ما نشره من مقالات عن سياسة البرتغال فى مستعمراتها — الى أن قررت شركة (اخوان كادبورى) الانجليزية مقاطعة الكاكاو المستورد من ساوتومى كاحتجاج على سياسة العمل الاجبارى والسياسة التى يتبعها البرتغاليون تجاه الافريقيين فى مستعمراتهم . (المترجم) .

لعدة سنوات ، فقد ابلغت بتحسن طيب فى الاحوال خلال الحرب العالمية الأولى .

واصبح اهتمام البرتغال بحوض نهر الكونغو يصطبغ بطابع غير رسمى باطراد — وذلك بعد أن تحول الاتصال المبكر لقبائل المانيكونجو الى غارات لجلب الرقيق ، والى تفشى الفوضى خلال القرن السابع عشر . أما معظم الصلات المتأخرة فقد كانت موجهة نحو شعب البانتو فى المناطق الداخلية من انجولا . وكان هذا الشعب أدنى مرتبة من حيث التنظيم من المانيكونجو . وحين اخترق (هنرى مورتون ستانلى) حوض الكونغو لأول مرة فى عام ١٨٧٧ لم يكن للبرتغاليين احتلال فعلى ، ولم يكن لهم اى نفوذ متصل هناك . وقد ادت الغزوات التى قام بها دى برازا بين قبائل البانتو المتفرقة ، والتى عقد خلالها العديد من الاتفاقيات على وجه السرعة — الى بعث الاهتمام الفرنسى بالجابون والضفة الشمالية لنهر الكونغو . لكن قلب حوض النهر ظل حرا لا يطالب به أحد ، وبدا للبيض ان تلك المنطقة يستعصى الوصول اليها أو انها عديمة القيمة ، ولقد كانت كذلك بالفعل بالنسبة لمعظم الناس ، باعتبارها آخر منطقة من المناطق المحايدة ، وهى منطقة طمع فيها الكثيرون فى الوقت الذى لم يجرؤ أحد على أن يقترب منها .

وقد اتفقت الدول الكبرى فى برلين على أن تسمح للجمعية الدولية المحايدة ظاهريا بملء هذا الفراغ ، وكان الاشتراط الوحيد هو ضمان حرية التجارة الى جانب الوعد بالاضطلاع بالخدمات الانسانية والحضارية التى اقرها ووافق عليها الجميع .

وحين عاد ستانلى عام ١٨٧٧ من رحلته الى نهر الكونغو شكل (ليوبولد) واللجنة البلجيكية التابعة للجمعية — لجنة خاصة لدراسة أعالى الكونغو . وقد دعا مشروعهم هذا الى تكوين هيئة خيرية دولية تضم وتنشر الحضارة بين قبائل الكونغو عن طريق عقد الاتفاقيات معها . وقد أطلقت اللجنة على هذه الهيئة اسم « الحملة الصليبية الجديدة بهذا القرن من قرون التقدم » .

وقد أمضى ستانلى أربع سنوات فى تنفيذ مهمة اللجنة الخاصة فى

رسم الخرائط وعقد الاتفاقيات ، وكانت النتائج والمشروع الانسانى الخيرى الذى ترتب على هذا العمل هى الأساس لقيـام دولة الكونغو الحرة التى اعترف بهـا فى برلين عـام ١٨٨٥ . وفى الوقت نفسـه حولت اللجنـة نفسها الى هيئة الكونغو الدولية وكانت هذه وسيلة لأن تفصل ببساطة ويسر المصالح البلجيكية ومصالح الملك ليوبولد عن لجان الهيئة الدوليـة القديمة لأفريقيـا فى البلاد الأخرى . وقد شرع الملك (ليوبولد) على الفور فى شراء كل الحقوق التى كانت فى حوزة البلجيكيين أو الأجانب فى الهيئة القديمة . ولذلك فقد ظهر عـام ١٨٨٦ باعتبـاره المـالك الوحيد للهيئـة القديمة والجديدة . ولذلك فقد الغى فى سهولة تامة الهيئة القديمة ولجنتها البلجيكية . وعلى ذلك لم يكن ثمة اى ضابط دستورى او برلمـانى يحـد من سيادته . وكانت الخطوة التالية تتمثل فى التغلغل النشـيط وغرض الهدوء ، ثم الشروع فى تطوير الكونغو . وكانت معظم أجزاء النهر تقريبا تصلح للملاحة طول العـام ، الا انه ظهرت بعض العقبات على نحـو اقتضى وجود استثمارات كثيرة ، أى القيـام باصلاحات قبل فتح السبيل أمام السلع أو البشر للانتقال الى المناطق الداخلية . وعلى بعد مائة ميل فقط من ساحل الأطلنطى تبدأ حوالى مائتى ميل من المنـدفعات المـائية الخطيرة ومن الجروف الشديدة الانحدار مما يعوق كل الانتقالات الى المناطق الداخليـة .

وفيما وراء مدينة كينشاسا ، التى تقع عند الطرف الأعلى للمندفعات المـائية ، تصلح معظم أجزاء النهر للملاحة لحوالى الف ميل ، وبعد ذلك توجد ثلاثة مندفعات مائية أخرى تقطع المساحات الواسعة من الميـاه الهادئة الآمنة . واجمالا فان النهر يصل الى (٢٢٠٠) ميـل فى الداخـل حيث يقترب لمسافة مائتى ميل من تنجانيقا والروديسيتين . والنهر صالح للملاحـة فى حـوالى ٨٨٪ من طوله الاجمـالى ، ولكن تمثـل النسبـة الـ ١٢٪ التى تصلح للملاحة والتى تتألف من اربع سلاسل منفصلة من المندفعات المـائية عائقا خطيرا يعوق التنمية .

وبعـد أن اشترى الملك (ليوبولد) المصالح الأخرى كافة لم يتبق لديه المـال الكافى للتنمية الفعليـة فى حوض نهر الكونغو ، وقد حظرت عليـه

اتفـاقية برلين انشـاء تعريفة حماية (جمركية) ، ولم يكن قد أصـبح هنالك من الرعـايا من تفرض عليهم ضرائب ، كما أن البرلمـان البلجيكى لم يكن على استعداد لمنحـه أية اعتمادات ماليـة .

فكانت الوسيلة الوحيدة لتدبير رأس المـال ، أو تنمية البلاد ، هى منح امتيازات احتكار جذابة ومغرية . وقد تحقق ذلك أول ما تحقق خلال عام ١٨٨٦ من اجل بنـاء الخط الحديدى من الأطلنطى حول أدنى المندفعات المـائية ؛ وذلك لأن كل مشروعات التنمية الأخرى كانت تتوقف على هذا المدخل الوحيد من ناحية المحيط . ولم يفتح هذا الخط الذى يبدأ من ميناء ماتادى حتى العـاصمة الجـديدة فى كينشـاسا (التى غير اسمها الى ليوبولد فيل) لمدة اثنتى عشرة سنة . لكن نظام الامتياز امتد نحو الداخل فور اعلان مشروعات الخط الحديدى .

وكان الأسلوب المـألوف هو بيع ٥٠٪ من أسهم وسـندات الشركة الاحتكارية فى السـوق الحرة المفتـوحة ، وكانت الاحتكارات المضمونة للمنتجات الرئيسية وحق ملكية مساحة الأراضى التى يسـتطيع أصحاب الامتياز تغطيتها بالدراسة هى العامل الذى يجذب رأس المـال المغامر . وقد حصل الملك (ليوبولد) تلقائيا على رسـوم ضخمة من الامتيازات ، بالاضافة الى نسبة الـ ٥٠٪ المتبقية من الأرصدة الخاصة بحق التصويت ، وكانت تلك منحة شخصية يتمتـع بها . وكانت هنالك ثلاثة أنـواع من الامتيازات : الخطوط الحديدية ، واحتـكار بعض المنتجات المعنيـة ، ثم الاحتكار الشـامل للاقليم .

ومجمل القول أن (دولة الكونغو الحرة) اعترفت بثلاثة خطوط حديدية مدت ٣٩٥ ميلا ، وهى خط ماتادى — ليوبولدفيل الرئيسى الذى يمتـد لمسافة ٢٢٩ ميلا حول المندفعات المـائية الأولى ، ثم خط ثان طوله ٧٨ ميلا يلتف حول المندفعات المـائية الثانية التى تقع على بعد ١٣٠٠ ميـل من مجرى النهر ، ثم فرع صغير يتصل بالغابات الساحلية — وقد بلغت هبات الأراضى المقدمة لها اجمالا ٢٢ر٥٠٠ر٠٠٠ فدان ، او حوالى (٨٨) ميلا مربعا من الملكية الحرة ، مقابل كل ميل اقيمت فيه الانشاءات . وهذا يفوق بنسبة ثمانين مرة هبات الأراضى المقدمة لانشاء الخطوط الحـديدية فى المناطق الغربيـة من الولايات المتحدة .

وتركز الاهتمام من البداية حول استغلال المطاط والعاج الذى أصبح حكرا على الدولة منذ عام ١٨٨٥ ، واذا كان الأفريقيون قد سبق لهم احتلال الغابات والاستغلال المستمر لهذه الموارد فانه لا يمكن انتزاع هذه الحقوق منهم أو استباقهم اليها ، لكن أفتت احدى لجان التحقيق بأن الاستغلال يعنى البيع التجارى قبيل صدور (مرسوم برلين) . ولما كانت التجارة تقتصر حينئذ على أعمال المقايضة للاستخدام المحلى ، فلم يكن ثمة بالتالى اى اعتراف بالحقوق المحلية — وهكذا أصبحت جميع (الأراضى الأهلية والموارد الأهلية) متاحة للتقسيم فيما بين الامتيازات الاحتكارية ، وحصلت الشركات بعد ذلك — بموجب الامتياز المنوح — على حق الاستخدام والاستغلال والادارة لأى أراض تحتلها . وليس ثمة وسيلة تمكننا من أن نعرف بالتحديد مساحة الأراضى التى احتلتها أو استغلتها بالفعل دولة الكونغو الحرة ، الا أن حوالى عشرين فى المائة من مجمل أراضى البلاد تمت دراستها ومسحها ، وأصبح ثلث هذه المساحة ملكية احتكارية . وكانت المساحة الباقية تعتبر تلقائيا وفعليا ملكا للملك ليوبولد — صاحب حكومة (دولة الكونغو الحرة) .

أما الشكل الثالث من اشكال الأمتياز فكان يشمل السلطات الاقتصادية والسياسية كافة ، وكذلك حق الملكية بنسبة ثلث مساحة الأراضى المنوحة ، حتى ولم يكن قد تم مسح تلك الأراضى أو دراستها . وكان أضخم امتياز من هذا النوع هو الذى منح (لشركة كاتنجا) التى كانت تستوعب حوالى ٢٠٪ من الكونغو ، وكان من المستحيل دون عمليات مساحة سليمة ، الفصل بين أراضى الشركات وبين ممتلكات التاج ، واذلك قامت (لجنة خاصة بكاتنجا) تضم أربعة ممثلين للحكومة وممثلين عن الشركة لتولى الأمور المتعلقة بالسياسه والتجارة فى المنطقة فى صورة مشروع مشترك أو مشروع جماعى . وبحلول عام ١٩٠٨ حصلت الامتيازات من الأنواع الثلاثة على حق ملكية أكثر من ١١٪ من البلاد ، وقامت بمسح حوالى ٣٥٪ ، واستغلت ما بين ٦٠٪ ، ٨٠٪ .

وفضلا عن ذلك تحولت نسبة ١١٪ من الكونغو ، وهى مساحة متصلة بالقرب من قلب البلاد ، الى ملكية شخصية للملك

ليوبولد الثانى . وهذه الضيعة التى تعادل فى مساحتها الجزر البريطانية — كانت خلاف ممتلكاته كعاهل وكصاحب لحكومة (دولة الكونغو الحرة) . وقد وصفه المدافعون عنه بأنه رجل مثالى وصاحب رسالة حضارية (١) . أما النقاد فقد وجدوه شخصا مغرورا جشعا وأنانيا مفرطا فى أنانيته (٢) . أما أحد المعجبين (٣) به فبعد أن اعترف بأن (ليوبولد) كان انتهازيا يعوزه الوازع الخلقى — رأى أن مثل هذه الخصال هى سمة العظمة والنبوغ السياسى . وقصارى القول أن (ليوبولد) استثمر ما لا يزيد على ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار فى أفريقيا ، وخلال حكمه الاستعمارى الذى امتد خمسا وعشرين سنة — حصل على ما لا يقل عن عشرين مليون دولار ربحا صافيا ، أنفق ٩٥٪ منها على القصور والعشيقات والدعاية فى أوربا . وفى عام ١٩٠٨ حصل (ليوبولد) على (أموال للامتنان) تقدر بعشرة ملايين دولار من البرلمان البلجيكى . وفى نفس الوقت ، استخدم أرباحا أخرى لانشاء مؤسسة (نايدر فولباخ السرية) وغيرها من المشروعات ، وقد حصلت هذه المشروعات على ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار من المضاربات فى العقارات فى مناطق الاستجمام مثل الريفييرا ومنتجات المياه المعدنية فى ألمانيا ، وفى الشواطىء البلجيكية وفى منطقة دميرى الفرنسية ، وحين مات

---

(١) Henry Wellington Wack : The Story of the Congo Free State (New York, 1905).

(٢) E.D. Morel, Red Rubber (London, 1906)
Passim, John Gunther : Inside Africa (New York 1953) P. 655

ترجمت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر . كتاب جون جنتر تحت عنوان « داخل افريقيا »

ملحوظة :
كان موريل صاحب هذا الكتاب كاتبا فقيرا يعمل فى مصنع سفن فى ليفربول من المصانع التى كانت مشتركة مع الملك ليوبولد فى أوجه نشاطه الاستغلالى فى الكونغو ، وأرسل لمكتب الشركة فى أنتورب لعمل حسابات نقل البضائع والركاب فهاله ما رأى وما سمع عن المآسى التى تحدث هناك ، ولما لم يستطع أن يقفل فمه عن التحدث عما سمعه ورآه — فصل من عمله فأصبح يكسب رزقه بالكتابة عن الأحوال فى دول الكنغو الحرة (المترجم) .

(٣) Robert Stanley Thompson, Fondation de l'Etat indépendant du Congo, Brussels, 1933, p. 315.

(ليوبولد) عام ١٩٠٩ ، قدرت وصيته بثمانين مليون دولار (٤) . بيد أن حقيقة صفقاته أو أرباحه غير معروفة ، فلقد دمرت سجلاته وسجلات معظم امتيازات حكومة دولة الكونغو الحرة قبل أن تفحص أو تراجع ، ولذلك كان التقدير تقريبيا (*) .

ولم يكن السكان الأفريقيون راغبين فى العمل ، سواء لدى الشركات صاحبة الامتيازات أم فى المزارع الخاصة بالملك ليوبولد . فقد آثروا الاحتفاظ بمزارعهم الخاصة ، ولم يكن من الميسور غوايتهم لكى يعملوا — نظير مبلغ معين — فى استغلال موارد العاج والمطاط التى كانت تنتزع منهم . ولذلك قال الأوربيون ان رسالتهم الحضارية هى تعليم الأفريقيين قيمة العمل ولذا فقد سخر (العمال المحليون) للعمل نظير أجور اسمية .

وبقدر ما كانت الاحتكارات تستأثر بالسلطة الاقتصادية والسلطة السياسية — فقد طبق نظام تسخير العمال ونظام فرض الضرائب فى نفس الوقت . وكان يتعين على كل أفريقى أن يقدم السلع والخدمات بدلا من الضرائب (ولا يهم أن يحصل الفرد على أجر مقابل عمله ثم تفرض عليه ضريبة تستنفد أجره بالكامل ، أو يسخر للعمل بدلا من دفع الضريبة) وفى كل عام ، كان يتعين على كل قرية قوامها أربعون فردا تقريبا أن تتبرع بأربعة من أفرادها للعمل كل الوقت (فى خدمة الحكومة) ، فينخرط أحدهم فى الخدمة العسكرية ، هذا

---

(٤) Harry H. Johnston : George Grenfell and the Congo, 2 Vols. du Congo, Brussels, 1933, p. 315.
Henry H. ohnston : George Grenfell and the Convo, 2 Vols. (London) 1908) Vol. 1. I. PP. 451—452.
F. Cattier, Etude sur la situation de l'Etat Indépendant du Congo (2d. ed.), (Brussels 1906) pp. 216, 312 cited analysed by R.L. Buell, The Native Problem in Africa, 2 Vols. (New York 1928) Vol. II pp. 423 — 450.

(*) كثير من الأبنية والمتاحف والحدائق وغيرها من المشروعات العمرانية التى أقيمت فى أنتورب كانت من دخل هذه البقرة الحلوب (الكونغو) — المترجم .

بالاضافة الى عشرة أفراد آخرين يسخرون للمشروعات العامة أو لجمع المطاط والعاج ، وكذلك يتعين على تلك المجتمعات تقديم اتاوة اضافية قوامها خمسة أغنام ، وخمسين دجاجة ، وثلاثمائة رطل من الحنطة (القمح) وحوالى مائة رطل من الخضراوات الأخرى ، (١٥٠) رطلا من المطاط الخام . وكان القرويون يضطرون للعمل أوقاتا اضافية ليستطيعوا شراء المواد المطلوبة التى لا تنتج محليا . وينطبق هذا بصفة خاصة على المطاط حيث كان يفترض تقديم حصة منه حتى لو كان الأوربيون يسيطرون على أشجارها كافة . ولا يستطيع الأفريقى الاشراف على مزرعته الخاصة ، أو السعى لكسب قوته الا بعد أن يفى بهذه الاحتياجات .

أما فى مجال الادارة السياسية والقضائية لدولة الكونغو الحرة التى تعتمد على قاعدة قبلية — فقد رفض الملك (ليوبولد) ، كما رفضت الشركات صاحبة الامتيازات ، الاعتراف بسلطة أى رئيس من الرؤساء الموجودين — فقد عزل كل رؤساء القبائل من مناصبهم ليحل محلهم آخرون ، وكان هؤلاء الرؤساء الجدد الذين أطلق عليهم لفظ (Capita) من الأهالى الخارجين عن نطاق عشائر الزعامة القبلية ، وقد التزموا بالولاء للأوربيين . وكانوا فى غالب الأحيان يضمرون الظلم والهوان تجاه رؤساء قبائلهم القدامى ، كما أنهم كانوا بالضرورة يتحدون التقاليد ، ولما كانوا يفتقرون الى أى تدريب أو تعليم أوربى فقد جرت العادة على أن يعتمدوا على القوة المادية والبطش المادى لتأكيد سلطتهم ، وقد تبددت كل الضوابط القبلية التقليدية التى تحد من الافراط فى فرض الضرائب ، أو الافراط فى المفاسد وسوء استغلال السلطة . وفى بلد تعوزه قوة الشرطة الفعالة ، أو تعوزه المحاكم القانونية ، كان هؤلاء الرؤساء هم الذين يقيمون موازين العدل ، وكان القانون — لا التراث الأفريقى — يخضع لأهوائهم وأمزجتهم الخاصة . ولما كانت السلطة القبلية والاجتماعية قد انهارت ، فلم يعد أمامهم من وسيلة لتنفيذ احكامهم سوى العقوبة البدنية . وقد استخدموا مفهومات جديدة فى العقاب تمثلت فى القتل والتعذيب وبتر الأصابع أو الأيدى ، ووشم أجزاء من الجسد . ولم تكن افريقيا تعرف مثل هذه الأساليب

الا فيما ندر حيث يعتبر الجسد كله من قبيل المقدسات نظرا لأهميته فى الحياة الأخرى — كما أن القانون الأوربى كان يحرم مثل هذه الأفكار . ولقد كان هذا النظام (نظام الكابيتا) بالضرورة عنصرا هداما ومخزيا ؛ فقد شتت القبائل التى لا ترتبط بوشائج قوية ، كما عمل على تفكك القبائل التى كانت أكثر استقرارا وترابطا . والمؤكد أن فكرة (الكابيتا) هذه كانت فى الأصل ، فكرة أوربية ، لكن نزعة القسوة وهدم النظام القبلى قد تطورت وترعرعت لأن الساخطين والناقمين هم الذين تولوا مقاليد الأمور برغم التقاليد الراسخة التى كانت من قبل تحدد تصرفاتهم .

وبرغم مشروعات الامتيازات (للشركات الاستعمارية)،وبرغم القدر من الاستغلال الذى لم يسبق له مثيل — استمرت (دولة الكونغو الحرة) تواجه صعابا مالية . وكان التركيز على تحقيق الربح السريع ، لا على توظيف الأرباح فى مشروعات مفيدة أخرى ، من العوامل الكبرى فى خلق هذه المشكلة . وبحلول عام ١٨٩١ ، كان (ليوبولد) قد حصل على ترخيص من دول مؤتمر (برلين) بفرض تعريفة عالية . وحاول الحصول على المال من البرلمان البلجيكى عام ١٨٨٩ بأن يجعل الحكومة هى المستفيدة من وصيته — لكن حكومة الأحرار رفضت تقديم أية اعتمادات مالية له ، وحين ازداد عبء الاستثمارات البلجيكية قدمت بعض المنح والهبات . لكن دعامة أموال الكنغو بقيت هى رسوم الامتيازات والتعريفات الحركية . أما الأرباح العائدة من الاستغلال فقد اتجهت مباشرة الى الشركات أو الى الخزانة الخاصة للملك .

وكان (هنرى مورتون ستانلى) هو الحاكم العام لدولة الكونغو الحرة لكنه استقال عام ١٨٨٧ بعد أن بدأ سريان مفعول (اتفاقية برلين) بوقت قصير . وبعد ذلك حظى الملك (ليوبولد) بالسيطرة الشخصية على هيئة الكونغو الدولية كلها وعلى دولة الكنغو الحرة . كما أن الهيئة المختلفة من الموظفين البريطانيين والايطاليين والأمريكيين وغيرهم خضعت لسيطرة المواطنين البلجيك . وظل نفوذ

زنجبار قويا فى أعالى النهر — كما ظل تيبوتيب Tipoo Tib (*) لعدة سنوات هو الحاكم الاقليمى التابع للملك ليوبولد ، ولقد مضت فترة من الزمن قبل أن تتوقف تجارة الرقيق أو قبل أن يستطيع الأوربيون التوغل فى المنطقة . اما أتباع (تيبوتيب) فقد تمردوا تمردا سافرا فى وجه حكامهم الجدد منذ عام ١٨٨٦ ، لكن جيش الكونغو لم يحاول حتى أن ينتزع منهم سلطتهم حتى نشبت ثورتهم الكبرى بعد ذلك بست سنوات .

وقد حاول الملك (ليوبولد) عزل دولة الكونغو الحرة وتثبيط همم الرحالة الأجانب — لكن الهواجس والانتقادات ازدادت وتكاثرت . فقد استثار السير ايفلين بارينج (اللورد كرومر) القنصل البريطانى فى مصر — الرأى العام حين ناقش احد تقاريره المصالح البلجيكية بالقرب من النيل ، واهتمت بالموضوع جمعية حماية السكان الأصليين وهى حركة ليبرالية نشطة فى انجلترا منذ عام ١٨٣٧ — وقد شكلت هذه الجمعية (هيئة اصلاحية خاصة بالكونغو) (Congo Reform Association) وكلفت أ . (موريل) بتقصى الحقائق ، كما حصلت على دعم من الغرفة التجارية فى لفربول . وجاءت تقارير (موريل) التى بدأت عام ١٨٩٧ لتثير الاهتمام فى البرلمان البريطانى وفى الصحافة البريطانية . وسرعان ما ظهرت حركات الاحتجاج والنقد فى الولايات المتحدة وفى القارة الأوربية ، وكان عادة (ليوبولد) الا يعير اهتماما للنقاد ، وان كان قد عمل على أن يحظى بتأييد القوميين البلجيك الموالين له ، واتهمت بريطانيا بأنها تدعى الفضيلة ، كما اتهمت بالنفاق والتدخل غير المشروع فى الشئون الداخلية لدولة حرة ذات سيادة ، وأثبتوا كذلك أن بعض التقارير الأجنبية المليئة بالاثارة ليست الا زيفا

(*) اضطر الملك ليوبولد ودولة الكنغو الحرة للاعتراف بسلطة الزعيم العربى تيبوتيب (حميد بن محمد المرجى) بل منح مرتبا شهريا يوازى ستين جنيها باعتباره ممثلا للملك فى هذه المناطق وظل كذلك حتى وطد البلجيكيون أقدامهم واستطاعوا فى النهاية القضاء على هذه الدولة العربية التى شهد الجميع بحضارتها وعظمتها . (المترجم) .

وكذبا . وقالوا ان القدر الأكبر من التغير يستند الى نزعة انسانية أكثر مما يستند الى الحقيقة المجردة لسبب بسيط هو أنه ليس ثمة من يعلم يقينا حقيقة المشاعر والتقاليد الافريقية . (*)

ورغم ذلك فان الحقائق التى لم يكن الى انكارها من سبيل ، ظلت تلهب مشاعر الرأى العام . وقد بررت الجماعات الأجنبية الاحتجاجات والانتقادات على أساس أن الدول الموقعة على اتفاقية برلين مسئولة عن العمل على تطبيق نصوص الاتفاقية .

واشتدت الثورة المطالبة بالاصلاح وبلغت ذروتها حين وضع القنصل البريطانى روجر كيزمنت عام ١٩٠٣ تقريره الذى يستفيض بالنقد ، كما أن وزارة الخارجية البريطانية قدمت التأييد الدبلوماسى الايجابى للمطالبة بالاصلاح ، وصدر قرار برلمانى بريطانى ليزيد من وطأة الضغط ، وعين الملك (ليوبولد) لجنة للتحقيق ، لكن تقريرها الذى قدمته فى عام ١٩٠٥ أخفق من تبرير تصرفاته . وفى الثامن عشر من أكتوبر ١٩٠٨ أصدر البرلمان البلجيكى فى النهاية قانونا للاستيلاء على دولة الكونغو الحرة التابعة للملك وتحويلها الى الكونغو البلجيكى .

واحتوى الميثاق الاستعمارى Colonial Charter على القانون الأساسى للمستعمرة الجديدة ، ولم يكن ثمة من هدف تسعى اليه السياسة سوى تصحيح المساوىء التى أدت الى حدوث الضم (أى ضم المستعمرة الى الحكومة البلجيكية) . وخضعت الكونغو للسيادة البلجيكية ، لكنها منحت نظاما قانونيا واداريا مستقلا ، وأكد الميثاق أهمية الأداة الادارية والتنمية الاقتصادية . ونزعت من الشركات صاحبة الامتيازات معظم السلطة السياسية وحوالى ربع الملكيات الممنوحة لها ، لكن حقوقها الاقتصادية لم تمس ، لأن تنمية المستعمرة كان رهنا بجذب رأس المال الخاص باستمرار .

(*) اتبعت سلطات (دولة الكنغو) سياسه عنيفة لاخفاء حقيقة الوضع فى الكنغو ، فلم يكن يسمح للشخصيات والبعثات الأجنبيه الا بزيارة أماكن معينة حيث كانت تتركز الغالبية الأوربيه من المستوطنين فكان الزوار يشاهدون مظاهر المدنية الأوربية متمثلة فى المدارس والمبانى والمستشفيات فلا يستطيعون تكوين فكرة صحيحة عن أوضاع الأفريقيين هناك (المترجم).

وقد حظى مد السكك الحديدية باهتمام خاص ؛ لأن النقل الحديث قد زاد من الأرباح وقلل من التكاليف ، وفتح آفاقا جديدة للتنمية وقلل الحاجة للعمال المسخرين للعمل ، وهو الأمر الذى كان موضع نقد الأجانب وخلال عشر سنوات تضاعف أميال الخط الحديدى التى مدت تقريبا بنسبة ثلاثة أمثالها . وقد ارتبطت بحيرة تنجانيقا ، وروديسيا الشمالية ومناجم كاتانجا التى افتتحت حديثا ببواخر الكونغو ، كما أن المندفعات المائية كلها كانت قد أمكن تخطيها وتحولت الامتيازات فى كاتانجا الى احتكارات لتعدين النحاس تخضع للتنظيم الحكومى ، وقد أنشأت هذه الاحتكارات مدينة (اليزابت فيل) وعديدا من المدن الأخرى ، وكان السكان المحليون قد عملوا فى المناجم قبل أن يكتشفها الأوربيون ويدعوا أحقيتهم فيها عام ١٨٩٠ ، لكن أحدا لم يعمل لتطوير هذه المناجم الى أن تولت الحكومة الاستعمارية الجديدة الاشراف على السكك الحديدية وعملت على تثبيت حقوق ملكية الأراضى فى اقليم (كاتانجا) .

وكان البرلمان البلجيكى ، من الوجهة القانونية ، هو الهيئة التشريعية العليا ، ورغم ذلك فانه كان يجوز للحاكم الاستعمارى اصدار الأوامر والتشريعات المحلية التى تستمر صلاحيتها لمدة ستة شهور ، أما وزراء الملك فكانوا يصدرون المراسيم بالقوانين الدائمة . واقتصر عمل البرلمان على مراجعة القرارات السياسية الهامة ، والميزانية الاستعمارية السنوية ، ومنح الامتيازات الجديدة . وبعد سنوات قليلة لم تعد الهيئة التشريعية تهتم بمثل هذه الأمور وقد تشكل مجلس استعمارى مؤلف من خبراء أكثر مما يتألف من سياسيين وخول سلطات استشارية محدودة ، ولم تظهر لجنة حماية الأهالى المحليين الفريدة من نوعها Native Protection Commission التى تبناها وسيطر عليها القساوسة ورجال الكنيسة الا ما بين عام ١٩٠٨ الى ١٩١٠ .

وكانت بعض الشروط القوية فى الميثاق الاستعمارى تتصل بالاجراءات التشريعية . فالمحاكم التى انفردت بالاختصاص فى كل مستويات القضاء — كانت مقاليدها بيد رجال القانون المحترفين المستقلين استقلالا تاما عن الحكومة الاستعمارية — ولم يكن للقبائل أو البرلمانات أو للساسة أو الموظفين الاستعماريين أى سلطة من السلطات . بيد أنه لم يكن هنالك عدد كاف من الأوربيين المحترفين لتولى الشئون القانونية المحلية أو العامة فى المستعمرة كلها ، ولم يكن فى مقدور الأفريقيين استيعاب

الفكرة التى ينطوى عليها ذلك النظام وبحلول عام ١٩٢٣ كانت الفوضى قد عمت فى ميدان تطبيق القوانين .

وجاءت الحرب العالمية الأولى لتوقف كل نشاط للتنمية والاستقرار ، وخضعت معظم اجزاء بلجيكا للحكم الألمانى . وكان النقاد الأجانب الذين دفعوا عجلة الحركة الاصلاحية ونفخوا فى جذوتها قد أضحوا اشد انصار بلجيكا حماسا خلال فترة الحرب . وتوقفت المصادر الرأسمالية . وخصصت جميع الطاقات الباقية للانتاج الحربى والهجوم على شرق أفريقيا الألمانية .

وقد اصطدم اندفاع مشروعات التنمية البلجيكية بشكل ملحوظ مع المصالح الفرنسية الواقعة شمال الكونغو . وكانت أفريقيا الاستوائية الفرنسية ، وهى الاقليم الذى استولى عليه (دى برازا)شمال غربى مملكة (ليوبولد) تعانى من نقص رؤوس الأموال بنفس القدر . وقد خلقت امتيازات الغابات الاحتكارية التى منحت كذلك فى تلك المستعمرة فوضى حقيقية ، وكثيرا ما قوضت نظام ملكية الأرض وهدمت حياة الأفريقيين ، بيد أنه كانت هنالك ثلاثة عوامل تخفف من هذا الأثر وتحسن من الأوضاع : اذ كانت هناك أربعون شركة اقليمية ضعيفة نسبياً وذلك أفضل من وجود حوالى ست شركات قوية ، وكانت الحكومة — لا الأفراد هى التى تتولاها ، ومن ثم فقد خفضت منح الامتيازات الأصلية بالتدرج . وفيما بين عام ١٩١٢ ، وعام ١٩٤٥ قل عدد الملكيات الحرة الى ما لا يزيد عن خمسين فدانا ، كما خضعت الأنشطة الاحتكارية الأخرى فى النهاية لتنظيمات مشدودة دقيقة .

وفى واقع الأمر لم يحظ الأفريقيون المحليون — سواء فى المشروعات التجارية الفرنسية أو البلجيكية — الا باهتمام محدود نسبيا ، وكانت الدولتان تفترضان أن التنمية الاقتصادية سوف تعود بالفائدة على رعاياهما فى المستعمرات . فالنظام البلجيكى المزدهر الذى اتسم بالتخطيط البارع والمركزية القومية قد اثر فى عدد متزايد من الأفريقيين ، وخلق قاعدة صناعية لا مثيل لها فى أفريقيا المدارية .

ومن ناحية أخرى ، فان حياة الرعايا الفرنسيين الذين كانت مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية عندهم تتسم بالعشوائية والافتقار الى التخطيط — قد تاثرت تاثرا طفيفا وسطحيا .